شقة على شارع النيل

رواية

رواية حلب
أنجزت كتابتها في ٢٠١٥/٧/٤

الدكتور أحمد زياد محبك

شقة ...على شارع النيل

رواية

٢٠١٥

العنوان: شقة على شارع النيل
النوع: رواية
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
أنجزت كتابة الرواية نهائياً في ٤/٧/ ٢٠١٥
الطبعة الأولى: ٢٠١٥
الهاتف: ٠٩٤٤٩٢٨٧٩٢

"أنا أخطِّط لكتابة رواية عن الواقع الراهن في حلب، في سورية، ولكني متردِّد، لا أعرف كيف سأكتب، بأيِّ طريقة كتبت فأنا غير وفيٍّ للواقع، وغير صادق معه، وأيُّ كتابة لن تنال رضا أي قارئ، لأن الواقع أكبر من أي كتابة، سواء أكانت قصة أم رواية أم دراسة، المشكلة أكبر... وهذا لا يعني الفشل ولا الإخفاق، ولا يعني عدم الكتابة، أعِدُ الجميع، وبشيء من التحدي: سوف أكتب".

"نحن نكتب الرواية للقارئ لا لكي نسليه فينام، ولا لكي نقدم له قصص الجنس فيهرب إلى عالم الأحلام، نحن لا نكتب الرواية ذات الحوادث المشوقة التي تشد القارئ وتسحره، وتجعله يجري وراء الحوادث لمجرد معرفة ما يجري، وما سيقع في الختام، نحن نكتب الرواية المفككة، قد لا يكون فيها حوادث، قد تكون مجرد مواقف، كي يقوم القارئ بتركيبها، وتجميع خيوطها، واستنتاج ما يريد استنتاجه منها بنفسه، لا نحلل الشخصية، ولا نعلق على المواقف، ولا نصدر الأحكام، ولا نطرح الحلول، نحن نترك ذلك كله للقارئ، نحن نكتب الرواية الحديثة للقارئ كي يفكر بحرية".

الدكتور سامي
قاص وروائي

الكرة الأرضية

في ساحة سعد الله الجابري
بسطة في وسط الساحة فوق عربة، والبائع ينادي:
. أربع قطع بمئة ليرة.
ونساء كثيرات ملتفات حول البسطة وأطفال، وبعض الرجال يحاولون أن يجدوا مكاناً لهم بينهن، والأيدي تنتقي.
وشمس آذار تمنحهم الدفء.
أمشاط، برايات، أقلام منوعة، ملاقط لتثبيت الغسيل على الحبال، مرايا صغيرة، شفرات، كؤوس بلاستيكية، ألعاب أطفال، دفاتر صغيرة، قداحات، شوكات، ملاعق، سكاكين، قراضات أظفار.....أشياء وأشياء.
ويعلو النداء:
. أربع قطع بمئة ليرة.
أم جميل تختار بضع قطع، ويختار أبو جميل قطعة، ويدفع الثمن، ويمضيان معاً.
هذه هي الدنيا، ما أصغرها وما أتفهها، حاجات بسيطة وتافهة وعادية جداً، ولكن لا غنى عنها، يحتاج إليها الكبير والصغير الغني والفقير.
أربع قطع بمئة ليرة، لا يمكن أن تجد أرخص من ذلك.
أم جميل تسأل زوجها:
. ماذا انتقيت؟
. الكرة الأرضية.
. الكرة الأرضية كلها؟
. نعم، وبخمس وعشرين ليرة، ما أرخصها!
هي مجرد مبراة صغيرة على شكل كرة، عليها خارطة العالم، ولها قاعدة يمكن أن توضع على منضدة.
ـ أنت تذكرني بموسوليني وهتلر، هل تريد مثلهم امتلاك العالم والسيطرة عليه وحكمه؟

ـ أنا امتلكت الكرة الأرضية كلها بخمس وعشرين ليرة، وهم دفعوا أكثر من خمسين مليون من الأرواح ثمن قطع من أراض استولوا عليها، ثم خسروها، بل خسروا كل شيء.

ويتجهان نحو مبنى البريد مبتعدَين عن الساحة، يريدان المضي نحو حي الإسماعيلية، ماشيين على الأقدام نحو بيتهما في منطقة الملعب البلدي.

ويدوي صوت انفجار.

ترتج من تحتهما الأرض، ويجد كل منهما نفسه وقد اندفع ليختبئ وراء مبنى البريد.

يدركان أن الانفجار حصل حيث كانا قبل قليل.

يرجعان ليريا البسطة الفقيرة وقد تناثر كل ما فيها واختلط بأشلاء مَنْ حولها مِن أطفال ونساء ورجال.

*

البسطة
العالم الصغير البسيط الفقير بكل ما فيه
وبكل مَنْ حوله مِنْ بشر
دُمِّر.

الشرفة

أسرع أبو سامر إلى أباجور الشرفة، رفعه، امتلأ البهو الواسع بالذهب الأصفر تنثره أشعة الشمس المائلة إلى الغروب، فتح باب الشرفة الزجاجي، تدفق هواء ربيعي منعش، معطر برطوبة الأشجار في حديقة السبيل، خالطه مزيج من رائحة البنزين والمازوت وقليل من ضحجيج حركة المرور.

ـ تفضلوا، هذا المنظر أمامكم، هو يحكي عن نفسه، لا يحتاج إلى شرح ولا كلام.

دخلت أم جميل إلى الشرفة، أسندت ذراعيها إلى سور الشرفة، عبت من الهواء، ملأت عينيها من المنظر.

أضاف أبو سامر:

. هنا تطيب الحياة.

وقف أبو جميل بقربها، وضع يديه مثلها على السور، قريباً منها، همَّ بوضع يده فوق يدها، ولكنه سرعان ما تحاشى ذلك، أحس بانشراح في صدره، كتم انفعاله، لم يعبِّر، التفت إلى دلال العقارات، وكان يقف وراءه هو وابنه، لكنه لم يستطع إلا أن يقول:

. شقة رائعة.

ويشير إلى حديقة السبيل ويصيح مخاطباً زوجته:

. يا أله، انظري، شيرين، ما أجمل حديقة السبيل! كأنها حديقة الشقة.

دلف أبو سامر إلى الشرفة بكتلته الجسمية الممتلئة، وببطنه المدوَّرة، ورأسه الكروي، وأشار بيده نحو الشمال، وقال:

. انظر، هذا شارع تشرين يمتد أمامك على طوله، وهو أوتستراد عريض، وهنا من الشمال تطل بنظرك لترى عفرين.

والتفت إلى أم جميل وقال لها:

. أبو جميل ناداك شيرين، هكذا سمعت، أنت كردية، ومن عفرين؟

أجابته والسرور باد على وجهها:

. نعم.

أضاف أبو سامر يسألها:

. وأنتِ من بيت إيبو، جدك مناضل وطني حارب الفرنسيين.

علقت:

ـ لا، أنا من بيت الشيخ، المناضل إيبو قريب أمي من بعيد، وهو من شرَّان، وليس من عفرين.

علَّق:

. أعرف شران تابعة لعفرين، وعفرين وشرَّان واحد، وأنتم بيت الشيخ في عفرين القديمة.

ردَّت أم جميل:

. لا، أنا ولدت ونشأت في عفرين الجديدة.

ـ أعرف، ولكن، الأصل من عفرين القديمة، وما في أي فرق، عفرين القديمة شوارعها وبيوتها مخططة ومرسومة بقلم مهندس خبير، وهي في الحقيقة من رسم مختار أمي لا يقرأ ولا يكتب، وعفرين الجديدة عماراتها بيض ومتناثرة من غير هندسة ولا تخطيط.

سامر ينظر إلى أبيه مدهوشاً، ولا ينطق بكلمة.

وصمت أبو سامر ثم أضاف:

. في الصباح تأتيك النسمات من عفرين مشبعة برائحة الزيتون.

ثم التفت إلى أبو جميل*، وقال:

. وهنا أمامكم شارع النيل، منظر ولا أحلى منه، شارع طوله خمسة كيلو مترات، يمتد حتى جمعية الزهراء، شارع مليان بالحركة والحياة، تقعد أمامه عشر ساعات ولا تمل، البلدية سمَّتْه شارع النيل لأنه مثل نهر النيل في مصر، كله حركة وحياة، وأنت قاعد في حلب، وشاعر النيل أمامك، كأنك قاعد في مصر وأمامك نهر النيل.

والتقط أنفاسه ثم أضاف:

ـ وهذه هي الشمس تراها عند المغيب، ولا أجمل منها، في كل حلب الاتجاه الغربي هو المطلوب، النسمات تأتي منه في الصيف باردة منعشة، وفي الشتاء دافئة، وهنا، انظر، أمامك دوار الدلَّة، وهذه دلة القهوة المرة وفناجينها مليانة من أطيب بن في حلب، فنان رائع صنع هذه الدلة، لا أعرف اسمه، وفي الصباح تشرب القهوة مع أختنا شيرين أم جميل، ووراء دوّار الدلّة وعلى شمالها تمتد أمامكم حديقة السبيل، كأنك قاعد في حديقة السبيل، أشجار وأزهار وأطيار، كلها أمامك، وإذا أردت النزول إلى حديقة السبيل في الصباح، ما بينك وبين الحديقة غير شارع واحد، خمس دقائق وأنت في حديقة السبيل.

ابنه سامر ينظر إليه صامتاً.

---

* طوال الرواية، سيُرْوَى لفظ "أبو" على الحكاية، من غير إعراب.

والتقط أنفاسه، واستند بجذعه الأيمن على سور الشرفة، ملتفتاً نحو الجنوب وهو يشير بيده ويقول:

. وهذا شارع فيصل يمتد على طوله، عشرة كيلو مترات، ومن هنا ترى الحديقة العامة وساحة سعد الله الجابري والفندق السياحي، لولا الأبنية لرأيت قلعة حلب والفرافرة وجب القبة والصالحين وباب النيرب، حلب كلها أمامك، أنا في الأصل من حي باب النيرب، من بيت خضير.

ثم يلتفت إلى أبو جميل ليسأله:

. أخي أبو جميل، أنت من أي حي في الأصل؟

. من الفرافرة.

. أهلاً وسهلاً، وهل بيتكم قريب من باب النصر أو من جامع العثمانية؟

. لأ، بيت والدي قريب من جامع العثمانية، أقرب إلى الحمام.

ـ أوه، عرفت المنطقة، هناك قناق* أبو الهدى الصيادي الله يرحمه، هذا جد أمي، مفتي حلب الأكبر في العهد العثماني، أو هو مفتي الدولة كلها، وقصره هو الآن دار الإفتاء.

أبو جميل يعلق:

. لكن اسمح لي كي أذكرك، قناق أبو الهدى الصيادي قريب من القلعة من جهة باب الأحمر، وهو أقرب إلى قصره، دار الإفتاء مثلما قلت، وبعيد عن الفرافرة، بينه وبينها مسافة كبيرة.

أبو سامر يرد متلعثماً:

. أعرف، أعرف، مسافة بسيطة، حلب كانت كلها...ما في بعد بين حارة وحارة، وكان هناك يسكن بيت العطار.

. أين؟ في الفرافرة أم في باب الأحمر؟

. في الفرافرة قسم، وقسم حتى في حارة البستان، هل تعرفهم؟

. نعم، أعرفهم، أعرف أهل حارة البستان، ولا أعرف غيرهم، وما كان أحد منهم يسكن في الفرافرة ولا في باب الأحمر.

. جدهم الله يرحمه، كان يلبس الزي العربي، ويلف على خصره الشال العجمي، ويمشي في الحارة ومعه باكورة المحلب**، وعلى رأسه الحطَّة، ولا أحد يقدر على

---

* القناق جزء من الحارة يسمى باسم أسرة مشهورة، أو أسرة كبيرة تسكن عدة دور في ذلك القناق.

** باكورة المحلب، عصا معقوفة الرأس، يتوكأ عليها الرجل، سميت باكورة لأنها تصنع من أغصان جديدة لدنة، والمحلب شجر الكرز البري، وله ثمر يشبه الكرز، له نواة، لبها أبيض، رائحته عطرة، وأغصان شجره عطرة مثله، لذلك تصنع منه الباكورة، وحين يمسك الرجل بقبضتها تتعطر راحة يده بشذى المحلب، وحمل باكورة المحلب يدل على ترف وغنى وذوق.

المرور بالحارة، أنت حضرتك من بيت إسماعيل باشا؟ أنت تشبه أبو أحمد من بيت إسماعيل باشا؟

ـ لا، أنا من بيت حداد، كان عمل جدي في الحدادة، دكانه في مدخل باب أنطاكية، ولكن والدي عمل في تجارة الصوف، وهو الولد الوحيد لجدي، لم يرغب في العمل مثله في الحدادة، وهي مهنة شاقة، عمل في تجارة الصوف، يخرج إلى البادية في موسم جزّ صوف الغنم، فيشتري الموسم بالجملة، ويبيعه في سوق الصوف، فاغتنى، واشترى تلك الدار في حي الفرافرة، ولكن الأسرة ظلت تحمل لقب حداد، كانت الفرش كلها تحشى بجزات الصوف، وخاصة صوف الغنم، دافئ في الشتاء، بارد في الصيف، الآن حلت محله فرش الإسفنج، للأسف، حتى الوسادة كانت تحشى بالصوف.

أبو سامر يتكلم:

ـ أهلاً وسهلاً، تشرفنا بمعرفتك، والله القعدة هنا بالشرفة تساوي الدنيا كلها، حلب كلها أمامك، وإذا نظرت إلى حديقة السبيل وماوراءها، ترى المحافظة، ووراءها الجامعة ووراءها حي الحمدانية، ولولا العمارات لرأيت أمامك طريق حلب الشام، الدنيا كلها بين يديك.

ويصمت ثم يضيف:

ـ ولا تنس، هنا بجوارك جامع الرحمن، صلاة الجمعة فيه كأنك تصلي في مكة المكرمة، هذا الجامع كلفتُه بقدْرِ كلفة عشرة جوامع، المرمر إيطالي، بخمس دقائق تصل إلى الجامع لتصلي وراء الإمام، بيني وبينك أنا دائماً أتأخر عن صلاة الجمعة، أصل إلى الجامع مع نهاية الخطبة، لا أتحمل سماع الخطب، يغلبني النوم، لكن سمعت أنه جاء إلى الجامع خطيب جديد خطبته قصيرة، أنا في الأسبوع الماضي والذي قبله ما لحقت الخطبة، حتى الركعة الأولى فاتتني، الله يرحمنا، الدنيا شَغَلَتْنا، إيه وبعد الجامع هناك الفرن ومطعم سلاف.

ويلتفت إلى ابنه ليقول له:

ـ ابني ذكِّرني، أنا على ما يبدو غلطت واختلطت عليَّ الأمور، والله المنظر أمامي نسَّاني كل شيء، مطعم سُلاف والفرن قبل الجامع، هذا الفرن خبزه أطيب خبز في حلب، كل القرى تأتي لتأخذ منه الخبز، وقبله مطعم سلاف، أطيب فلافل وأطيب فول وأطيب شاورما وأطيب عجة، القعدة أمامه تساوي الدنيا كلها، من كل أطراف حلب يأتي الناس وخاصة يوم الجمعة حتى يأكلوا عنده الفلافل أو الشاورما، كان أمامه ساحة كبيرة فيها حديقة وبركة ونافورة وفيها تمثال لشاعر، ماعدت أتذكر اسمه، ابني يعرف أحسن مني.

يلتفت إلى سامر، يسأله:

. من هو يا بني؟
سامر يتكلم بأدب:
. المتنبي.
أبو سامر يعلق:
ـ نعم المتنبي، كان أعمى، وعاش في المعرة، المهم، رفعوا التمثال، لا أعرف أين وضعوه، وصغروا حجم البركة، ثم رفعوها نهائياً، من أجل السيارات، وخصصوا مواقف للسيارت أمام المطعم، في المساء، لن تجد لك مائدة، الرصيف كله مليان، أختنا أم جميل بعد اليوم لن تطبخ في البيت، كل يوم ستقول لك: سنتغدَّى عند سلاف، وعنده فتة بالحمص ولا أطيب منها، أطيب من فتة الشام، تعرف مطعم المصري في الشام، عند محطة الحجاز، فتة سلاف أطيب من فتة المصري.
ويرن هاتفه الجوال، يضعه على أذنه، يتكلم، وهو يرفع وجهه إلى السقف، كأنه يتلقَّى وحياً من السماء:
. نعم، من يتكلم، أهلاً وسهلاً، أم عصام، أهلاً وسهلاً، والله ما عرفتك، آه، أنت جئتِ مع زوجك وشاهدتِ الشقة، قبل يومين، أي شقة؟ أنا عندي أكثر من عشرين شقة مسجلة كلها للبيع، آه، الشقة المطلة على دوار الدلة، أنت سمَّيتِها أوربة، نعم تذكرت، أنا الآن مع رجل وزوجته في داخل الشقة، يا أختي، هذه مثلما قلت لك، توقيع العقد أربعة ملايين وثلاثمئة ألف، والدفعة الأولى نصف المبلغ، والباقي بعد شهر، عند معاملة الفراغة، قد نوقِّع اليوم عقد البيع، من يسبق هو صاحب النصيب، حددي لي الموعد، اليوم بعد المغرب، أهلاً وسهلاً، أحضري مليونين وثلاثمئة ألف والعقد جاهز، قلتِ: نؤجل الموعد إلى يوم غد، لا بأس، الله يختار الخير، هذا بيع وشراء، لا عتب فيه ولا لوم، صاحب النصيب هو الذي يسبق، الله معك.
يقفل الجوال، يلتفت إلى أم جميل، يقول لها:
ـ هذه أم عصام رأت الشقة قبل يومين، طار عقلها، قالت عن الشرفة: "هذه أوربة"، نعم، حقيقة، هي أوربة، العالم كله أمامك، أنا أبيعكم الشرفة فقط، ومثلما سمعتم، توقيع العقد بأربعة ملايين وثلاثمئة، أمس جاء زبون ودفع أربعة ملايين ومئتين، وصاحب الدار ما وافق، بعض الأشخاص عقولهم صغيرة، ما دامت الشقة أعجبتك، وأنت مستعد لدفع أربعة ملايين ومئتين، هل توقف الأمر على مئة ألف أو مئتين؟ أنا والله لو كنت سأشتري الدار ما كنت وقفت عند مئة ألف، لم يعد لمئة الألف اليوم أي قيمة، والله أستدين مئة ألف ولا أفوت هذه الشقة، مادامت أعجبتني.
ويلتفت بجسمه كله ليقول:
. تعالوا لنرى الدار من أولها، سنعود إلى البداية، من باب الدار.

ويرن هاتفه الجوال، يضعه على أذنه، ويتكلم بصوت مرتفع ووجهه نحو السقف:

. أهلاً حكمت بك، زبون جديد، حاضر، أنا قادم إليك حالاً وسريعاً.

ويلتفت إلى ابنه:

. بسرعة سامر، عندنا زبون جديد في المكتب ينتظر.

سامر يتكلم:

. أنا سأبقى حتى أريهم الدار.

أبو سامر يتكلم بنبرة جادة:

. لأ، أنت ستمشي معي.

ويلتفت إلى أبو جميل وزوجته، ويقول:

ـ خذوا راحتكم، تفرجوا على الدار بحُرِّيَّة، تأملوها، الأرض والسقف والجدران، تفقدوا الغرف كلها غرفة غرفة، وادخلوا إلى الحمام، ابقوا ساعة أو ساعتين، وبعدها عند خروجكم، فقط أغلقوا الباب، وبعدها مروا على المكتب، موعدنا اليوم بعد المغرب لتوقيع العقد، سأتصل بصاحب الدار، أنت أَوْلى بالشقة من أم عصام، أنا أعرفها مترددة.

أبو جميل يتكلم:

ـ ولكن، أنا ماعندي غير مئة ألف نقداً، المبلغ كله في البنك، ابني الدكتور جميل، العام الماضي جاء في زيارة إلى حلب، أول مرة زار فيها حلب، بعد غياب حوالي عشر سنين، وأودع لنا في البنك ستة ملايين، وبعد أقل من شهر سيرجع إلى الوطن نهائياً، لنزوجه، وسنشتري له شقة قريبة من شقتنا.

أبو سامر يتكلم:

. أنا خدَّام الناس الطيبين أمثالكم، أين ابنكم الدكتور جميل؟ ما شاء الله! وماذا يعمل؟

أبو جميل يتكلم:

ـ ابني طبيب جراح، تخصص في أمريكا أربع سنوات، وعمل في السعودية عشر سنوات، سيرجع في آخر نيسان.

يطرق أبو سامر قليلاً، يحكُّ رأسه، ثم يتكلم:

. وبالنسبة إلى الرعبون لا يهمكم، أنا سأكلم صاحب الشقة، سأقنعه، المهم، هل يمكنك سحب المبلغ كله من البنك دفعة واحدة؟

أبو جميل يرد:

. نعم.

أبو سامر يتكلم:

. أنا عندي مسيِّر معاملات شاطر، بيومين يستطيع إنجاز معاملة الفراغة، ندفع لـه أجرة زيـادة، فـي يـومين تمتلك الشقة، وفـي اليـوم الثالـث تسكن، بالمـال كل شـيء يمشي.

أبو سامر يغادر الشقة مع ابنه.

أبو جميل يبقى مع زوجته في الشقة وحدهما.

في الطريق من دوار الدلة إلى مكتب التقوى قبل جامع الرحمن أبو سامر يمشي الهوينى، ابنه يستعجله.

. ابني على مهلك، والله حلقي نشف، الشغل يحتاج إلى لسان حلو، والله هلكت.

. وعمي حكمت ينتظر، والزبون في المكتب؟

. لا تقل حكمت، قل: حكمت بك.

. لا أحب كلمة بك، ولماذا هو حكمت بك؟

ـ أصل جده من تركيا، في العهد العثماني، ويحمل لقب بك، وهو لا يقبل إلا بمناداته حكمت بك، على كل حال، هل صدقت بوجود زبون؟ لا زبون، ولا هم يحزنون، أنا اتفقت مع عمك حكمت بك، قلت له اتصل بي حتى يحس الزبون بوجود حركة بيع وشراء في المكتب، هذا أسلوب، تعلَّمْ، يا بني، تعلَّمْ.

ويضحك، ثم يضيف:

. وحتى أم عصام كذبة، أنت صدَّقت؟ هذا عمك حكمت بك، هو اتصل، يا بني إذا ما اتبعنا هذه الأساليب لا أحد يشتري، يجب أن تعرف كيف تتصب للزبون الفخاخ.

. ولكن...

. لا تقل لكن، هذا شغل، هذه مصلحة، يجب أن نعيش، من أين سوف أوفر لك قسط الجامعة؟ لو كنت حصلت على المجموع الجيد ما كنت دخلت بالتعليم الموازي، كل سنة سأدفع لك ثمانين ألف ليرة.

. أردت القول: شارع النيل طوله أقل من كيلو متر وأنت قلت ثلاثة كيلو مترات، وشارع فيصل مثله، أنت قلت طوله...

أبو سامر يقاطع ولده:

ـ لا تدقق، هذا أسلوب، هذا فن، غداً ستعمل في المحاماة، وإذا ما بالغت في الدفاع عن موكلك فالأمور لا تمشي، هكذا الدنيا يا ولدي، تحتاج إلى شطارة، يا بني، نحن صنعتنا صعبة، تحتاج إلى لسان حلو، انظر، دفعنا عشرة ملايين ثمن هذا المكتب، الديكور وحده كلفنا مليونين، وأثثناه بمليون، أجمل مكتب دلال عقارات في سورية كلها، قبل ما نشتريه كان مكتب عقارات، كان لا يعمل، لا ديكور، ولا أثاث،

ولا إضاءة، ولاضيافة، نحن، أنا وعمك حكمت بك، صرفنا عليه، لا بد أن تبهر عين المشتري، وسيارتي أنا أمام الباب، تويوتا دفع رباعي، وعندنا شاب مستخدم يقدم القهوة ضيافة، الزبون عندما تقدم له القهوة يخجل، وعندما تقدم له كأس شاي تملكه، مكتبنا أنا وعمك حكمت بك أجمل من مكتب أي وزير، المكتب ملكنا، والسيارة ملكنا، الوزير لا يملك مكتبه ولا سيارته، وهذا كله لا يكفي، لا بد من لسان حلو، وغداً أنت بحاجة إلى مكتب وسيارة، وبحاجة أكثر إلى لسان حلو، يعرف كيف يخلِّص القاتل من حبل المشنقة.

. ولكن يا والدي...

ـ لا ترجع إلى كلمة لكن، لا أحبها، أنا أجبرتك على الشغل طول السنة الماضية في السوق الشعبي بحي الخالدية حتى تتعلم الشطارة والمساومة والأخذ والعطاء، رأيت هناك الغش والكذب والسرقة والنهب، أما تعلمت؟ يا ولدي إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، أنت ولدي الوحيد، وأنت الغالي على قلبي، لا أريدك مثل الناس الطيبين البسيطين الدراويش، الدنيا فيها كثير من أولاد الحرام، والله، كل واحد منهم أقوى من النمر، يأكلك من غير ملح.

ويقف، يلتفت إلى ولده يقول له:

. اسمع منّي، أنا خدمت في الجيش أكثر من عشرين سنة، دخلت حرب تشرين، وأصبت بشظية في ساقي، حاربت أنا وعمك حكمت بك في تل الفرس، قاتلنا بشجاعة، أنا متقدم على عمك بدورة، كان هو يقدم لي التحية، خدمنا في قطعة عسكرية واحدة، وتسرحنا معاً برتبة عقيد، لولا أني أنا وهو جمعنا ثمن هذا المكتب كنا بقينا من غير عمل، الراتب التقاعدي لا يكفي، كنت أتمنى تطوعك مثلي في الجيش، نعم، الجيش قوة وعزة وشرف وبطولة ووطنية، لكن في النهاية الضابط عند التسريح لا يستطيع عمل أي شيء، ما بيده مهنة، ولا عنده شهادة، لذلك اخترت لك كلية الحقوق، تعمل في المحاماة، مهنة صعبة، تحتاج إلى شطارة، ولكن المحامي الناجح أحسن من ألف طبيب، طبعاً هذا رأيي أنا، وهنا، عندي في المكتب، تتعلم الشطارة والأخذ والعطاء، وهناك في الجامعة تتعلم القوانين.

سامر يتكلم بهدوء:

. وبالنسبة إلى تمثال الشاعر واسمه المتنبي...

أبو سامر يقاطعه:

. عرفته، نعم، وقلت عنه كان أعمى ويعيش في المعرة، وهل غلطت؟ أنت لا تعرف غير عدّ أغلاطي.

. سامحني يا والدي، أنا لا أعد أغلاطك، ولكن...

. أنا لا أحب كلمة لكن، لا تسمعني هذه الكلمة مرة ثانية.

ـ المتنبي يا والدي عاش في بلاط سيف الدولة، وما كان أعمى، الأعمى هو أبو العلاء المعري، والمتنبي قبل المعري بمئتي سنة.

. نعم، الحق معك، هذا سهو مني، نسيت.

ويصمت ثم يضيف:

ـ والله يا بني، لما كنت في الجيش، كنت لا أحكي غير جملة واحدة مفيدة، كلمتي كانت كلمة، قلت لك، الجيش قوة وعزة، ما كنت أحب الكلام الكثير، هذه المهنة، مهنة دلال العقارات، عودتني على أمور ما كنت أعرفها.

ويعلو صوت المؤذن داعياً إلى صلاة الظهر، وقد صارا أمام المكتب، أبو سامر يطل من الباب، يكلم شريكه حكمت:

. حكمت بك، المؤذن نادى لصلاة الظهر.

حكمت يتكلم وهو وراء المنضدة:

. اسبقني.

يلتفت أبو سامر إلى ولده:

. ادخل أنت يا سامر، اقعد في المكتب حتى نرجع من الصلاة.

. سأذهب معك لأصلي.

أبو سامر يتكلم بلهجة قاطعة:

. لأ، أنت اقعد في المكتب، مُدَّ السجادة على الأرض، صلاتك أنت في المكتب مقبولة أكثر من الجامع، هذا المكتب باب رزق، لا يجوز إغلاقه.

أبو سامر يغادر المكتب، يمشي نحو الجامع وهو يغمغم:

ـ ولد، ما منه خير، المثل قال الولد سر أبيه، هذا غير صحيح، خسارة، ما قدرت أنا على تربيته، أمه ربته على الطيب والصدق، صدق المثل: المرأة ربت الثور فما حرث.

سامر يدخل إلى المكتب، يرى حكمت بك وهو يقلب كتاباً بين يديه، حكمت يناوله الكتاب، وهو يقول له:

ـ خذ كتابك، كان الله في عونك، حاولت تصفحه، قوانين وأرقام، تحتاج إلى دماغ فيلسوف حتى يحفظها، اسمع نصيحتي، تطوَّعْ في الجيش، الطريق قصيرة، ثلاث سنوات، وتضع نجمة على كتفك، الجيش عز يا ولدي، انظر إلى هذا المكتب؟ لولا عملنا في الجيش من قبل أنا ووالدك ما كنا استطعنا شراء هذا المكتب، نعم، سُرِّحْنا قبل سن التقاعد، ولكن كنا جمعنا المبلغ المحترم، نعم أنا الآن ضابط متقاعد، برتبة عقيد، ولكن إلى أي دائرة حكومية دخلت، أجد الاحترام والتقدير، لذلك، اسمع مني، تطوَّعْ في الجيش، أنت لا تعرف، الجيش عزّ يا ولدي.

يحاول سامر أن يتكلم:

. ولكن يا عمي أنا الآن في السنة الثانية، هذا الكلام كان من الممكن...

حكمت بك يقاطعه:

. ما فات الأوان، أنت الآن في بداية السنة الثانية، ولا تنس عندك أربع مواد من السنة الأولى، على كل حال قم الآن الحقْ بوالدك، لتصلي معه في الجامع، الآن تذكرت، لن أذهب للصلاة، سأصلي فيما بعد، أنا أنتظر مكالمة من زبون.

يكاد سامر يصل إلى الباب ليخرج، يناديه حكمت بك، فيرجع:

. سامر، هل تُحْسِنُ العمل على الكومبيوتر؟

. نعم.

. اسمع، من يومين مررت على مكتب الهدى، صاحبه صديقي وصديق والدك، رأيت عنده على الطاولة جهاز كومبيوتر، والله شيء رائع، جاءه زبون، فقال له انتظر حتى أبحث لك في الكومبيوتر، سأشتري هذا الجهاز، تستطيع بالكومبيوتر إدهاش الزبون والسيطرة عليه، الكومبيوتر في الحقيقة حضارة، والأجمل من هذا، بعدما ذهب الزبون، أطلعني على لعبة ورق الشدة، قعدت عنده ساعة، أجمل لعبة، سأشتري للمكتب أحدث نوع، جهز نفسك للعمل عليه ياسامر.

. أنا جاهز يا عمي.

. لا بأس، اذهب إلى الصلاة في الجامع، الصلاة فيه بسبع وعشرين، الله معك.

يخرج سامر، يلتفت حكمت إلى المستخدم عبدو، يطلب منه أن يذهب ليشتري علبة سكائر.

فور خروجه يتصل بالهاتف:

. ألو، سعاد... بعد ربع ساعة سأكون عندك، كوني جاهزة.... أوه، فاجأتني، ما ذهب إلى الشغل؟... في الطريق إلى المكتب، والسبب؟ ....لا تقلقي، أنا سأدبِّر له الشغل المناسب.

يضع السماعة فوراً، وينهض، يروح في المكتب ويجيء، يرجع إليه المستخدم، يتناول منه علبة التبغ، ويخرج، يتمشى على الرصيف، يرى رؤوف قادماً، يستقبله بحرارة:

. أهلاً رؤوف، أنت هنا؟ فاجأتني، هل رجعت من ورشة الحاج إسماعيل؟

رؤوف يجيبه مطأطئ الرأس:

. اليوم ما رحت.

. والسبب؟

ـ بصراحة، يا حكمت بك، الشغل في ورشة البناء صعب، حمل أكياس الإسمنت كسر ظهري، وأنا عمري فوق الخمسين.

. يارؤوف، الرزق لا يأتي بسهولة، والأسواق راكدة، ما فيها شغل، وأنا بصعوبة حصلت لك على هذا العمل، على كل حال، لا تقلق، أنا سأكلم الحاج إسماعيل، لتعمل عنده في الليل، عمل الحارس الليلي أسهل.

. ولكن، يا حكمت بك، زوجتي صبية، ولا يمكن تركها وحدها.

حكمت يقاطعه، يمسك بيده، يمشي به على الرصيف، وهو يتكلم:

. لا تقل زوجتي، ولا تقل ظهري، بغير ورشة الحاج إسماعيل لا يمكن الحصول على شغل.

رؤوف يقف، يلتفت إلى حكمت، يقف قبالته، وهو يقول:

. لي عندك طلب.

. ما هو؟

ـ أتمنى العمل عندك في المكتب، أمسح الأرض، وأصنع القهوة، وأداوم من التاسعة صباحاً حتى التاسعة ليلاً، حتى منتصف الليل، وبيتي هنا قريب، وراء مكتبك، كل ساعة يمكن الإطلالة على زوجتي والاطمئنان عليها.

حكمت، يضع يده على كتف رؤوف وهو يقول:

ـ يا رؤوف، أنت صديق، أنت أخ، وأنا دخلت بيتك، وأكلت على مائدتك، وصار بيني وبينك خبز وملح، أنا لا أقبل، نفسي لا تطاوعني، كيف أراك تصنع القهوة وتقدمها للزبائن، أنت مكانتك في قلبي أغلى وأكرم.

ويربت على كتفه ثم يقول له:

. وزوجتك هي أختنا، لو احتاجت إلى أي شيء أنا أخدمها بعيوني، اذهب الآن إلى ورشة البناء عند الحاج إسماعيل، أنا سأكلمه، ألف إنسان يتمنى عمل الحارس الليلي.

ثم يمد يده إلى جيبه، يستل قطعة من فئة الخمسمئة ليرة، يدسها في يده، وهو يقول له:

ـ خذ، أنا أعرف، أنت عليك ديون، اذهب إلى عملك، الله معك، لا تتردد، ولا تفكر، أنت طريقك من هذا الاتجاه، أنا راجع إلى المكتب.

يفترقان، ويمضي كل منهما في اتجاه.

حكمت يرفع الهاتف الجوال إلى أذنه، يتكلم:

. سعاد، زوجك من اليوم سيغيب عن البيت طول الليل، الحاج إسماعيل يحتاج في ورشته إلى حارس ليلي، وأنا صرفت زوجك رؤوف أفندي إلى الورشة، أنا في الطريق إليك.

يرجع سامر من الجامع، يجد المستخدم عبدو، يقف، يحييه:

. أهلاً بالأستاذ سامر، ما رأيك بفنجان قهوة؟

. أشكرك، لا أحب المنبهات.
. سأصنع لك كأس شاي، وسأقول لك كلمة قبل وصول والدك.
. والدي ذهب إلى البيت، ولن يرجع قبل العصر.
ـ اسمع مني، لا تترك الدراسة، العلم أفضل شيء في هذه الدنيا، أنا سمعت حكمت بك ينصح لك بترك الدراسة والالتحاق بالجيش، أنا لا أوافقه الرأي.
. ولكن أنا لا أحب الحقوق ولا المحاماة، مهنة لا بد فيها من العلاقات والكذب.
ـ لا يا أستاذ سامر، ما كل المحامين ولا كل القضاة سواء، أصحاب الأخلاق هم أصحاب الأخلاق، تجدهم في كل زمان، والمحامي الشريف ينصر الحق، لا تصدق كلام الناس، نصيحتي لك، ادرس، ولا تقصر، ولا تسمع كلام حكمت بك.
ـ أنا بصراحة كنت أتمنى دخول قسم اللغة العربية، أنا أحب اللغة العربية، وأحب الشعر، ولكن والدي نصح لي بالحقوق، وأنا أخذت بنصيحته.
. أحسنت بسماع نصيحة والدك، أنا توفي والدي وعمري ثلاث عشرة سنة، كنت في الصف الثاني الإعدادي، وأنا أكبر إخوتي، نحن ستة إخوة، ثلاث بنات، وثلاثة صبيان، تركت المدرسة، وضعتني أمي أجيراً عند الفران، حتى أوفر لها الخبز، الحمد لله، مرت الأيام، أنا كبرتْ وتزوجتْ وتزوجتْ أخواتي، أنا الآن عمري حوالي خمس وعشرين سنة، ابني في الصف الرابع، كنت أتمنى لو كان أبي الآن على قيد الحياة.
. يرحمه الله.
ـ تعيش يا سامر، أنا أحب والدك وأحترمه، وأحترم حكمت بك، لكن لي رأيي الشخصي والخاص في الحياة، أنا أختلف عنهما، وخاصة مع حكمت بك، وأكثر ما يزعجني تدخينه السكائر، يشعل سيكارة من سيكارة، لا يكفيه في اليوم أربع علب، على كل حال، لا بد من الاختلاف، الحياة علمتني، ولو ما درست، أنا أحب الكتاب والدراسة، وأنا يا أستاذ سامر هذه السنة سأتقدم إلى امتحان الشهادة الإعدادية مع الطلاب الأحرار، وأريد مساعدتك لي بدرس أو درسين في النحو، لا يصعب علي فهم الشعر وحفظه، ولكن تصعب علي دروس النحو، أنا مثلك أحب الشعر.

أجمل شقة

أبو جميل وزوجته يغادران الشقة، يمرَّان بمكتب التقوى، يريان سامر، يطلبان منه أن يخبر والده أن جلسة توقيع العقد لن تكون اليوم، إنما ستكون في الغد بعد العشاء، لأن أم جميل تريد أن تبيِّت استخارة.

أم جميل تجذب زوجها من يده، وهي تقول:

. تعال، لا تمر أمام الصيدلية، انظر إلى اللوحة فوقها.

يعلق:

. نعم، رأيتها قبلك، تتأرجح، وتكاد تسقط، رأيتها أول مرة جئت فيها إلى المنطقة للبحث عن شقة، ومن ذلك الوقت والصيدلية مغلقة، واللوحة تتأرجح في الهواء.

أم جميل تعلق:

ـ ذكَّرْتَني، لما كنت طالبة في الصف الثالث الإعدادي، ذهبنا في رحلة إلى حلب، زرنا فيها القلعة، وعلى برج من أبراجها كان يقف حجر كبير، ثلثه فوق الجدار، وثلثاه في الهواء، وقفت أتأمله، قالت لي المدرِّسة حينها: لا تخافي، هذا معلق هكذا من ألف سنة، وما وقع.

أبو جميل يسأل مستنكراً:

. لوحة حديدية طولها متر وعرضها نصف متر، تلوح في الهواء، عالقة بمسمار واحد، كيف يتركها صاحب الصيدلية هكذا؟

ويصمت ثم يضيف:

. إذا وقعت فوق رأس طفل أو رجل عجوز مثلي قتلته في الحال.

تشد أم جميل على يده وتضيف:

. أنت دائماً تقول عن نفسك: أنا رجل عجوز، والله أنت شاب.

يشد على يدها بدوره، ويعلق:

. الشباب راح.

. المهم شباب القلب.

ويمران بمطعم سُلاف، يتجاوزانه ببضعة أمتار. يتوقف أبو جميل، يلتفت إلى زوجته، يقول لها:

. ما رأيك بتناول صحن فتة بالزيت؟

أم جميل تتردد، أبو جميل يتأبط ذراعها، ينعطف بها نحو المطعم وهو يعلق مازحاً:

. هذه دعوة مني، على حسابي أنا.

ويقعدان متقابلين إلى المائدة، وسرعان ما يأتيهما النادل بصحنين من الفتة بالسمنة مع صحون ملأى بالمخللات والنعنع الأخضر وحبات البندورة والبصل الأبيض.

أبو جميل يتكلم:

. والله أبو سامر ذكي، وطيب، كيف عرفك كردية ومن عفرين، وعرف أسرتك ووالدك، ويعرف أسرة إيبو من عفرين وجدهم رشيد إيبو.

أم جميل تضحك، تعلق وهي تتناول الفتة:

ـ يا أبو جميل، أبو سامر ما عنده أي شيء من الذكاء، هو سمعك تناديني شيرين، فعرف من الاسم، وأكثر سكان بلدة عفرين من الأكراد، ورشيد إيبو معروف، هو من المناضلين ضد الاستعمار الفرنسي يوم كانت فرنسا تحتل سورية، وفي كل سنة تكتب عنه جريدة الجماهير في حلب وعن المناضلين من أمثاله بمناسبة عيد الجلاء.

يقاطعها أبو جميل ويعلق:

. ولكنه وصف عفرين كأنه هو الذي بناها.

. لا، لا، ما وصفها، أي إنسان يزور عفرين ولو مرة واحدة سيتكلم بمثل ما تكلم أبو سامر، وأكثر.

أبو جميل يمضغ بصمت، يتناول عود النعنع، يتسلى بقطف أوراقه الصغيرة، يحس أنه هُزِمَ.

يتكلم:

. ما رأيك بالشقة؟

. أعجبتني.

. لا تقولي أعجبتني، قولي رائعة، والله الإطلالة من الشرفة على حديقة السبيل تساوي الدنيا كلها، ولا تنسي منظر الدلة وحولها فناجين القهوة، والماء ينصب من الدلة في الفنجان، وخاصة في الليل، عندما تلعب الأضواء مع الماء.

. نعم، شقة رائعة، ولكن، من غير الضروري التعبير عن إعجابنا بها أمام أبو سامر، حتى لا يفرض علينا السعر الذي يريد.

. هو لا يحدد السعر، يحدده مالك الشقة.

. ولكنه يتفق معه.

أم جميل تصمت، ثم تتكلم:

. وهناك خطأ فني آخر.
. وما هو؟
. لماذا حدثته بالتفصيل عن ابننا جميل، وعن المبلغ الذي أودعه في البنك.
. غايتي الافتخار بابننا وتأكيد ثقة أبو سامر فينا.
ـ الحقيقة هو ثرثار، وجرَّك معه إلى الكلام، وهو لا يعرف لا الفرافرة ولا العثمانية ولا أبو الهدى الصيادي، هو يلتقط الكلمات، كلمة من هنا وكلمة من هناك، وما عنده غير الكلام.
أبو جميل يترك الملعقة، يمضغ اللقمة بصعوبة، أم جميل تناوله كأس ماء، أبو جميل يتكلم:
. أم جميل، أنت جعلت منِّي أحمق.
أم جميل تتكلم مدهوشة:
ـ لا يا أبو جميل، أنت زوجي، وتاج رأسي، ولكن أنت بحتَ له بكل شيء، وصارحتَه، وكلمتَه على أمور لم يسألك عنها، ولا تغضب مني، الحُمْق يعني الطيبة والبراءة، ونحن المعلمين، بصورة عامة حمقى.
أبو جميل يرجع بكرسيه إلى الوراء، يجرع من الماء جرعة، يبل بها ريقه، يحاول الابتسام، يتكلم:
ـ ونسيت قول أحمد شوقي "كاد المعلم أن يكون رسولا"، ونسيت:"من علمني حرفاً كنت له عبداً".
أم جميل تضحك، تتكلم:
ـ أرجوك، اخفض صوتك، خذني بحلمك، ولا تغضب، هذا الكلام على المِثَال والواجب، أما الكلام على الواقع فمختلف، عندما نصل إلى البيت سأقرأ عليك كلام ابن قيم الجوزي عن الحمق وعن حمق المعلمين في كتابه " أخبار الحمقى والمغفلين".
. عجِّلي، هيا إلى البيت.
. دعني أكمل صحني، الفتَّة لذيذة، وإذا أنت شبعت هات لأكمل أنا صحنك، ولا تنس، لا بد من الشاي بعد الفتة.
أبو جميل يتكلم وهو يهم بالنهوض:
. نشرب الشاي في البيت.
أم جميل ترد بحزم:
. لا والله، لا أشربها إلا هنا.
أبو جميل يرسل زفرة ثم يتكلم:
. أمري لله.
أم جميل تتكلم بلطف:

. والله يا أبو جميل كنت أمزح معك، من لي غيرك حتى أمزح معه، ألا يحق لي المزاح.

. يحق لك.

أم جميل، تنتهي من تناول صحنها، أبو جميل يطلب من النادل كأسين من الشاي. أم جميل تسأل بهدوء:

. هل أنت مقتنع بالدار؟

. يا أم جميل، أنا تعبت، من شهرين وأنا أبحث عن شقة، جميل جاء في ٢٥ من كانون الأول من العام الماضي ٢٠١٢ فور رجوعه من غزة، وبقي أقل من شهر، ووضع في حسابي في البنك ستة ملايين، من الضروري شراء الدار اليوم قبل الغد، الأسعار دائماً في ارتفاع، وفي آخر نيسان أو الأول من أيار سيرجع من المملكة السعودية نهائياً، ومن أول كانون الثاني وأنا أبحث، ونحن الآن في أول آذار، إلى متى؟ ما تركت أي مكتب في المنطقة خلف جامع الرحمن إلا سألته، رأيت أكثر من عشرين شقة، وطلعت إلى مساكن حي السبيل، المنطقة عالية، ومشرفة وجميلة، ورأيت أكثر من عشر شقق، ولكن...

تقاطعه سائلة:

. لم تعجبك غير هذه الشقة؟

. نعم، هذه أجمل شقة، ما رأيك أنت؟

ـ أنا ما ارتحت إلى أبو سامر، رجل ثرثار، يتكلم ويتكلم، ولا يترك لك فرصة للكلام، حتى هندامه لم يعجبني، أنت لم تلاحظ حذاءه، كأنه ما اشترى غيره من عشرين سنة، وجاكيته هو جاكيت عرسه وهو شاب قبل ثلاثين سنة.

أبو جميل يضحك، يعلق:

ـ أنت زوجتي من ثلاثين سنة، ما سمعتك مرة تحدثت عن رجل، هذا شيء جديد.

تضحك، تتكلم:

. أنا لم أتغير، أنا لا أنظر إلى الرجال، ولكن هذا الرجل لفت نظري، لم يعجبني هندامه ولا كلامه.

. صدقت، ولكن هل سنشتري نحن الدار أم هل سنزوجه بنتنا؟ والحق معك، لو كان عندي بنت ما زوجته إياها، الحمد لله، ما في عندنا غير ابننا الدكتور جميل، الله يرجعه بالسلامة، وبنتنا هيفين، وهي متزوجة وتعيش مع زوجها في قطر بأمان واطمئنان.

يرشف الشاي ويضيف مازحاً:

. وهل أعجبك شريكه حكمت، وهو يناديه حكمت بك؟ هو في عمري، ولعله في الخامسة والستين، يعني أكبر مني بثلاث سنين، ولكن هو: شعر أسود مصبوغ، ملمع، وحذاء جديد، وبدلة لامعة، وسيكارة وقداحة ذهبية.

أم جميل تضحك وهي ترد:

. إذا قلت لك أعجبني، فسوف تتهمني فوراً بالحمق.

. إن قلت، أو ما قلت، نحن كلنا . جماعة المعلمين . حمقى.

. نعم، نعم، نحن جميعاً حمقى، وعلى كل حال، بصراحة، وأقول لك بصراحة، والله لم يعجبني لا أبو جميل ولا حكمت بك.

. والدار؟

ـ الدار ممتازة، لا كلام عليها، إلا بما هو ممتاز، ولكن، أحس بشيء غير مريح.

. اطمئني، هذا المكتب أول مكتب يُفْتَتَح في هذه المنطقة كلها، ورأيتِ الفخامة، وواضح: حكمت بك رجل غني ومقتدر، وأبو سامر من أسرة معروفة، من بيت خضير، وأمه من بيت الصيادي، جدها أبو الهدى الصيادي، هي أسرة تقوى وورع.

أم جميل ترشف آخر ما بقي في كأس الشاي، وتقول:

. هذه المفاهيم، ونحن حتى الآن نعيش عليها، هي الخطأ، مكتبه هو الأول في المنطقة كلها لا يعني أي شيء، ليس الأول دائماً هو الأفضل، قد يكون له فضل الريادة، ولكن هذا لا يكفي، والإنسان بعد ذلك لا يُعرَف بأسرته، الإنسان يُعرَف بسلوكه وأخلاقه وأفعاله، قد يكون جد الأسرة من العلماء الأفاضل، أو من أصحاب الأخلاق الراقية، وقد يكون الأولاد أو الأحفاد من أسوأ خلق الله.

أبو جميل يضيف:

. على كل حال بيِّتي أنت الليلة استخارة، وغداً نقرر.

في الطريق إلى البيت يقول لها:

ـ فتة ممتازة، في أول يوم نسكن فيه في الدار الجديدة سيكون إفطارنا في الصباح فتة عند سُلاف.

. أنا سأصنع لك في البيت أطيب منها.

. كيف؟

ـ أنقع الحمص يومين في الماء، ثم أسلقه، وأحتفظ ببعض الحبات، ثم أضع البقية في الخلاط مع قليل من الطحينة واللبن والحمض، وأكون من قبل قليت الخبز المقطع بالزيت، وأصب فوقه الخليط، وأوزع فوقه حبات الحمص، ثم أصب عليه زيت الزيتون الحار، وتفضل بتناول أشهى فتة.

أبو جميل يتكلم معانداً:

. والله الفتة بالسمنة أطيب.

أم جميل تعلق:

. على كل حال في صباح اليوم الأول من نزولنا في الشقة الجديدة لن يكون إفطارنا فتة لا بالسمن ولا بالزيت، سيكون إفطارنا المأمونية.

وفور وصولهما إلى البيت تبادر أم جميل إلى كتاب ابن الجوزي: "أخبار الحمقى والمغفلين"، وتقرأ عليه: "وقد بلغني أن بعض المؤدبين للمأمون أساء أدبه على المأمون وكان صغيراً، فقال المأمون: ما ظنك بمن يجلو عقولنا بأدبه، ويصدأ عقلُه بجهلنا، ويوقرنا بزكانته، ونستخفُّه بطيشنا، ويشحذ أذهاننا بفوائده، ويَكَلُّ ذهنُه بغَيِّنا، فلا يزال يعارض بعلمه جهلَنا، وبيقظته غفلَتنا، وبكماله نقصنا، حتى نستغرق محمود خصاله، ويستغرق مذمومَ خصالنا، فإذا برعنا في الاستفادة برع هو في البلادة، وإذا تحلينا بأوفر الآداب تعطل من جميع الأسباب، فنحن الدهرَ ننزع منه آدابَه المكتسبة فنستفيدها دونه ونثبت فيه أخلاقنا الغريزية فينفرد بها دوننا، فهو طولَ عمره يكسبنا عقلاً ويكتسب منا جهلاً، فهو كذُبالة السراج ودودة القز".

ويبادر أبو جميل إلى سؤالها:

. وما معنى زكانته؟

. الزكانة الفهم، وأن يظن المرء في الأمر فيصدق ظنه ويصيب.

ويصمت ثم يسأل:

. هل تُعقَل قدرة المأمون على النطق بذلك الكلام وهو صغير؟ وما معنى قول ابن الجوزي وبلغني؟ أنا أشك في الخبر كله، ومن تصدقه فهي حمقاء.

. أنا لم أصدقه.

ـ استشهادك به، ونحن في المطعم، وتذكرك له، وفتحك الكتاب على موضعه فوراً كل هذا دليل على تصديقك الخبر.

أم جميل تتكلم وهي تضحك:

. تريد وصفي بالحمق.

. لأ، أنا لا أريد، أنت استنتجت هذا بنفسك.

ـ تريد إغاظتي وإغضابي، لن أغضب، أنا لم أصدق الخبر، ولكن مضمون الكلام المنسوب للمأمون صحيح، وجميل.

ـ هو مجرد رأي، ولا شك هناك رأي آخر مخالف، وبعد ذلك، أنا أسألك: من يصنع الطبيب والمهندس والوزير والأمير والملك والرئيس؟ كلهم يمرون على المعلم، كلهم يحتاجون إلى المعلم.

تصمت، فيسألها:

. وهات، ياشهرزاد، حدثيني عن الحمق؟

ـ تفضَّلْ اقرأ بعض ما رواه ابن الجوزي:"معنى الحمق والتغفيل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود ...فالأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد... فمن ذلك: أن طائراً طار من أمير، فأمر أن يغلق باب المدينة! فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر".

ويضحك أبو جميل ويعلق:

. لا بأس، رضيت، الأمير أحمق على كلام ابن الجوزي، ونحن . المتزوجين ـ حمقى، ولا أقول المعلمين، ولو لم يكن الرجال حمقى حقيقة لما تزوجوا.

ويصمت ثم يضيف:

. والمرأة التي تتزوج حمقاء من غير شك، ما رأيك؟

. لأ، المرأة أكثر تعقلاً من الرجل، والرجل هو الأحمق.

. والدليل؟

ـ المرأة يتغزل بها ألف رجل ولا تستجيب إلا لمن تحب، والرجل على استعداد للاستجابة لأيِّ امرأة، يحبها أو لا يحبها، جميلة أو قبيحة، فمن هو الأحمق؟

ـ هذا على كل حال رأيك، هل من الضروري الاختلاف والخصام؟ خالفي واختلفي، لن أخاصمك.

أم جميل تتدلع، وتقول:

. هل نسيت أغنيتي؟ أنا سأختلف معك، وأخاصمك.

ثم تبدأ تدندن:

خاصمتك بين وبين روحي وصالحتك، وخاصمتك تاني

أبو جميل يقاطعها:

. قبل يومين كنت في السرفيس، سمعت أغنية لا أعرف من تغنيها، ولم أحفظ كلماتها، سمعتها تقول:

أخاصمك آه أصالحك لأ

أم جميل تضحك، ترد:

. هذه نانسي عجرم، هذه مطربة الجيل الجديد.

. ارجعي أرجوك إلى الجيل القديم، ارجعي إلى أم كلثوم.

أم جميل تضحك، تعلق:

. أنا أعرف، عقلك مع أم كلثوم، ولكن قلبك مع نانسي عجرم.

. والله ما شفتها ولا أعرفها.

. هذا من حظي أنا، لو شفتها لطار عقلك.

في غرفة المدرسات

في صباح اليوم التالي، وفي الاستراحة بعد الحصتين الأوليين، تحدث أم جميل زميلاتها عن الشقة.

ـ شقة ذهب، هي الذهب حقيقة، خمس غرف، ثلاث غرف مطلة على الجهة الغربية، أمامك شارع النيل على طوله، وتحتك دوار الدلة، وأمامك حديقة السبيل، غرف مشرقة، نوافذها واسعة، وهي تشترك بشرفة واحدة طولها تسعة أمتار، وعرضها ثلاثة أمتار، الجدران كلها مغطاة بورق جدران من نوع فاخر، مخمليّ، فيه رسوم زهور نافرة، وكل غرفة بلون، غرفة بلون الكيوي، وثانية بلون زهري فاتح، وثالثة بلون برتقالي فاتح، وغرفة على الجهة الشمالية، هذه باردة في الصيف، ورق الجدران فيها بلون سماوي فاتح، تصلح للنوم، وغرفة شرقية صغيرة نسبياً، أربعة أمتار بأربعة أمتار، باقي الغرف كلها ستة أمتار بستة، وهذه الغرفة لها شرفة صغيرة مشتركة مع المطبخ، تصلح للطعام، لأن المطبخ بجوارها، والمطبخ خمسة أمتار بأربعة، فيه خزائن خشبية فاخرة، الأسقف كلها مستعارة، ومزودة بمصابيح وأضواء حديثة، شقة جنة.

هناء، مدرسة اللغة العربية، تعلِّق:

ـ على ذكر ورق الجدران، والأسقف المستعارة، لماذا يُجدَّد ورق الجدران في غرفة الإدارة كل سنة؟ وجدران غرفة المدرسات تأكلها الرطوبة، وليس فيها كرسي مريح، ولا طاولة نظيفة، وغرفة الإدارة كأنها غرفة وزير، والمديرة عندها آذن خاص، ونحن ما عندنا آذن يمسح الطاولة.

مدرسة العلوم تعلق:

ـ هذا الموضوع لا علاقة لنا به، ولا يفيد الحديث عنه، موضوعنا هو شقة أم جميل، أنا أعرف البناء في المنطقة أمام دوار الدلة، هو بناء قديم، العمارة عمرها على الأقل عشر سنين.

أم جميل ترد:

. لا أعرف كم عمرها، ولكن المدخل مجدد، له باب من ألمنيوم، وفيه إنترفون، الأدراج كلها من رخام، والسيراميك في الحمام جديد، وفي الحمام حوض بانيو، وبيكادوش، والحمام واسعة.

تسأل مدرسة الجغرافيا:

. ووقَّعتُم على عقد الشراء؟

أم جميل ترد:

. لأ، أمس عند الظهر شاهدنا الشقة، وكان الوعد توقيع العقد بعد العشاء، ولكنا أجّلناه إلى اليوم، وأنا صليت العشاء، وبيَّتُّ استخارة، ثم نمت، ورأيت في الحلم ما هو مريح.

تتكلم مدرسة التربية الإسلامية:

. ليست هذه هي الاستخارة، في الحقيقة الاستخارة هي الصلاة ركعتين لله تعالى في أي وقت، ثم سؤال الله تعالى التيسير والدعاء بأي دعاء كان أو بنص الدعاء الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا رؤيا ولا حلم، وإذا وجدت نفسك منشرحة فأقبلي على الأمر، ولكن مع ذلك لا تستعجلي، ابحثي مع زوجك عن شقة أخرى، واسألي مع زوجك عن الأسعار، وشاوري، ما ندم من استشار، وما خاب من استخار، والإمام النووي يقول: الاستشارة قبل الاستخارة، فلا بد من السؤال وتعاطي الأسباب.

أم جميل تسأل:

. وما دعاء الاستخارة؟

مدرسة التربية الإسلامية تتكلم:

. الدعاء طويل ولا أريد...

أم جميل تقاطعها:

. نود سماعه.

مدرسة التربية الإسلامية تتكلم:

ـ نص الدعاء رواه البخاري في حديث عن جابر رضي الله عنه، حيث قال:"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: "إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أن هَذَا الأَمْرَ (ثُمَّ تُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ) خَيْرٌ لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، أو قَالَ: فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَأَجِلِهِ، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، واصرفه عني، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ".

وتتكلم مدرسة اللغة الإنكليزية:

ـ هناك مكاتب كثيرة لبيع العقارات، زوري وزوجك كل المكاتب في المنطقة، وكوِّني معه فكرة عن الأسعار.

وتتكلم مدرسة التربية وعلم النفس:

. في أي دور تقع الشقة؟ وكم ثمنها؟

وترد أم جميل:

ـ في الدور الثاني، وفوقها شقة واحدة، وهي الشقة الوحيدة في الدور، ليس أمامها شقة ثانية، يقال عنها بلاطة واحدة، البناية هادئة، ليس فيها سوى أربع شقق، شقة في الدور الأرضي، تحيط بها حديقة، نحن نطل عليها، ونطل على حديقة السبيل، وشقة في الدور الأول، طبعاً نحن لا نعد الدور الأرضي، وشقتنا في الدور الثاني، وفوقها شقة صغيرة، تسمى المرتجع.

وتسأل مدرسة العلوم:

. وهل سألتم عن الجيران؟ المثل يقول: الجار قبل الدار.

وترد:

ـ حدَّثَنا دلال العقارات، قال: يسكن فوقنا رجل متقدم في العمر، يعيش وحده، ليس عنده أحد، عنده بنت واحدة تزوره كل أسبوع مرة أو مرتين، ترعى أموره، وتتفقده، شقته مثلما وصفها الدلال تسمى المرتجع، فيها ثلاث غرف، وأمامها السطح، ويسكن تحتنا جار فلسطيني مع زوجته، كل منهما عجوز أيضاً، ولكن في الدور الأرضي أو الحديقة، تسكن أسرة، الرجل عامل، عنده زوجته وثمانية أولاد، أسرته في الحقيقة كبيرة، ولكن العمارة بصورة عامة هادئة ومريحة.

تتكلم مدرسة الرياضيات:

ـ هذا كلام دلال العقارات، الأفضل أن تسألوا أنتم عن الجيران، حتى تعرفوا، اسألوا الجيران البعيدين عن البناية.

وتتكلم زميلتها مدرسة اللغة العربية:

. أنا عرفت موقعها، واليوم سأسبقك أنا وزوجي سنذهب بعد العصر إلى شرائها، ما اسم المكتب؟

أم جميل تضحك، وتمدّ إليها يدها ببطاقة، وهي تقول:

. مكتب التقوى، وهذه بطاقة باسم المكتب، فيها رقم الهاتف.

وتتكلم مدرسة التربية وعلم النفس موجهة كلامها إلى مدرسة اللغة العربية:

. انتظري يا هناء خانم حتى تعرفي ثمنها، كم ثمنها؟

تتكلم أم جميل:

. أربعة ملايين وثلاثمئة ألف.

ترسل هناء . مدرسة اللغة العربية . صفيراً من بين أسنانها وهي تقول:

. أوه، أنا آسفة، لا يمكنني شراؤها، لا أنا ولا زوجي ولا أبي ولا جدي، نحن بعد خدمة عشرين سنة ما عندنا غير ثمن الشرفة التي وصفتها لنا، هل يبيعنا الشرفة وحدها؟.

وتتكلم معاونة المديرة:

. أنا أنصح لك، يا شيرين، سجِّلي الدار باسمك، لا تقبلي إلا تسجيلها باسمك، هذه الدنيا فيها موت وحياة، والله، إذا مات زوجك، بعد العمر الطويل، ابنك سيرث الدار، ولن تعيشي مع زوجته ساعة واحدة.

أم جميل تضحك، تقول لها:

. الحمد لله، أنا عشت مع زوجي أكثر من ثلاثين سنة، ما حصل فيها بيننا أي خلاف.

وتتكلم مدرسة التربية وعلم النفس:

ـ كل شيء متوقع، غداً زوجك يتقاعد، ويقعد في البيت، ويبدأ الخصام والقيل والقال، الرجل بعد الستين يصبح عقله مثل عقل الولد الصغير.

أم جميل تتكلم:

ـ زوجي تقاعد العام الماضي، ما بدر منه أي شيء من خرف أو تدخُّل في أموري أو أمور البيت، وعلى كل حال ثمن هذه الدار كله من ابني الدكتور جميل، سنسجل الدار باسم ابني جميل.

وتتكلم معاونة المديرة:

. أنا عندي اقتراح يا أم جميل، بيعي داركم في منطقة الملعب البلدي، وأضيفي ثمنها إلى المبلغ الذي معكم، واشتري دارين، واحدة بثلاث غرف لك ولزوجك، وثانية بأربع غرف أو خمس غرف لابنك.

أم جميل ترد:

ـ سنترك دار الملعب البلدي لابني، يفتتحها عيادة، هي في الدور الأرضي، وفي منطقة شعبية، فيها كثافة سكانية، مناسبة جداً لتكون عيادة، وهذه الدار، بخمس غرف، لنا وله، يتزوج فيها، غرفة لي ولزوجي، وغرفة للضيوف، وغرفة مشتركة للجلوس، وغرفتان له ولزوجته.

معاونة المديرة تسأل مستنكرة:

. وهل ستعيش الكنة معك؟ لا تتوقعي هذا، الأفضل هو استقلال الأسرة، لك مع زوجك بيتك، ولابنك ولزوجته بيته، من الصعب عيش الكنة مع الحماية.

وتتكلم هناء مدرسة اللغة العربية:

ـ اسمعي مني يا أم جميل، لا تبيعي ولا تشتري، خذي زوجك أبو جميل، وروحي معه إلى السعودية، عيشي مع ابنك جميل، اطلعي من هذه البلد، وارتاحي، أوضاع البلد غير مريحة، ولا نعرف ماذا سيحدث.

أم جميل ترد بهدوء:

ـ لا يا هناء خانم، هذه بلدنا، ونحن لن نتركها، فيها ولدنا، وفيها سنعيش، وسوف نصبر على قسوة الظروف، نعم، المؤامرة كبيرة، ولكن سورية أقوى وأكبر، ولن يحدث إلا الخير، وابني جميل بعد شهرين راجع إلى حلب، ما في الدنيا كلها أحلى من الوطن.

مدرسة اللغة العربية تضحك، وتعلق:

. أوه، أم جميل، أنتِ صدَّقْتِ كلامي؟، والله كنت أمزح معك، لا أحد يتخلى عن الوطن، أحياناً نضطر للمزاح.

ويرن الجرس معلناً انتهاء الاستراحة.

تنصرف المدرسات إلى غرف الصفوف.

*

تسرع مدرسة اللغة العربية . زميلة أم جميل . إلى المديرة، تقعد أمام مكتبها، المديرة تسألها:

. عندك الآن حصة فراغ؟

. نعم.

. إيه، ما الأخبار اليوم؟

. أنا قلت: المديرة لا تهتم إلا بغرفتها، كأنها غرفة وزير، تمنيت سماع تعليق، لم تستطع أي زميلة التعليق بكلمة.

. أعرف هذا، ما دمت أنا فوق هذا الكرسي فلا يهمني أحبوني أو كرهوني، أريد سماع شيء جديد.

ـ وحرَّضت أم جميل على مغادرة البلد، وقلت لها الأوضاع غير مريحة، والمستقبل مخيف، لكن ما سمعت منها غير حبها للوطن.

. لا تصدقيها، منافقة، الله أعلم بما تخفي بداخلها، وغير هذا.

ـ أم جميل ستشتري شقة من خمس غرف بخمسة ملايين، أو أربعة، لا أتذكر بالضبط ماذا قالت.

. ومن أين لها ثمن مثل هذه الشقة؟

ـ ابنها طبيب، جراح عظمية، يعمل في السعودية من خمس سنين، أو عشر سنين، لا أعرف، وسيرجع إلى الوطن بعد شهر.

ـ أنا مجنونة، العام الماضي جاءتني إعارة إلى السعودية ورفضت، قلت لن أتخلى عن الإدارة، ماذا كسبت من الإدارة غير وجع الرأس؟! والله لو بقيت طول عمري مديرة لا يمكنني شراء شقة بثلاثة ملايين.

مدرسة اللغة العربية تتكلم:

. الدنيا حظوظ، أين أبو عمر الآذن؟ أنا مشتاقة لفنجان قهوة.

المديرة تعلق:

. أنا فزَّ عصبي، أريد مغلي اليانسون، حتى أهدئ أعصابي، لا أريد لا الشاي، ولا القهوة، نادي أبو عمر، ناديه، حقيقة الدنيا حظوظ، أنا مديرة وابني ما قدر على نيل الشهادة الثانوية، ثلاث سنوات وهو يتقدم إلى امتحانها ولا فائدة، لا تذكري لي أم جميل بعد اليوم.

. أنا مثلك، لا أريد رؤية صورتها.

ـ والمشكلة: ماعندي أي مستمسك عليها، ناجحة في عملها، لا تقصِّر، ولا تغيب، ولا تأخذ أي إجازة، ولو مرضية، ولا تخطئ، ولا تسيء للطالبات، وكل الطالبات معجبات بها، لا أعرف السر.

وتتكلم مدرسة اللغة العربية:

ـ وأنا بصراحة حاولت استدراجها، قلت لها، مثلما حكيت لك، روحي أنت وزوجك هاجري، ولكن ما استطعت الإمساك بكلمة عليها.

المديرة تعلق بعصبية:

. أعرف، حكيت لي هذا، أنت من عادتك تكرار الكلام.

مدرسة اللغة العربية تتكلم:

ـ أنا، بصراحة، لا أحبها ولا أحب حجابها، متزمتة ومتعصبة، حتى حجاب مدرسة التربية الإسلامية ما هو مثل حجابها.

وتصمت، ثم تضيف:

. وتمنيت لو كنت حاضرة معنا: مدرسة التربية الإسلامية، خديجة خانم، حدثتنا عن الاستخارة، وأسمعتنا نص الدعاء، وهو طويل وممل، وبدأت تشرح لنا وتفصل، وكأنها في جامع تعظ مجموعة من النساء الأميات، أنا زهقت روحي، ظلها ثقيل، ودمها غليظ، كان الله في عون زوجها، كيف هو عايش معها.

المديرة تعلق ساخرة:

. بالتأكيد هو مثلها.

وتصمت ثم تضيف:

. ولكن، بالنسبة إلى أم جميل، من ناحية الحجاب، الحقيقة، وللإنصاف، حجاب أم جميل معتدل، ولا تطرف عندها ولا تزمت، ولكن، أنا لا أعرف كيف صارت مدرسة لغة عربية وهي كردية؟

وتتكلم مدرسة اللغة العربية، فتقول:

ـ كان أحد الأساتذة في الجامعة يقول لنا: لا يكفي أن تكون عربياً وتتكلم العربية حتى تظن نفسك تجيد العربية، أنت تتكلم العامية، لا بد من تعلم العربية، بحفظ عيون الشعر العربي، وفهمها، ولا بد من تلاوة القرآن الكريم وتجويده وحفظه، وقد يتقن العربية غير العربي، إذا درسها، أكثر من العربي.

المديرة تتكلم بحدة ونزق:

. هناء خانم، أعرف هذا، هي كلمة عابرة قلتها أنا عن نزق وتسرع، لا تمسكيها علي، أنا أدرِّس طالباتي وطلابي معنى العروبة، وأقول لهم هي ثقافة وانتماء ووحدة اللغة والمشاعر والآلام والآمال، وهي موقف حضاري، لا تعصب فيها، وما هي نزعة عرقية، ونحن مع الأقوام والقوميات كلها، هذا ما أردده دائماً في دروسي.

مدرسة اللغة العربية تتكلم بلهجة اعتذار:

. عفواً حضرة المديرة، أنا لم أقصد أي شيء.

وتصمت المديرة ثم تتكلم بلهجة مختلفة:

. حاولي أنت من طرفك معرفة أي شيء عن ابنها، هل هو خاطب أو متزوج، ومتى سيرجع؟

. أمرك.

ـ بصراحة، وهذا سر بيني وبينك، عندي بنتي نوال فاشلة في دراستها، ثلاث سنوات وهي راسبة في السنة الأولى من كلية التربية، إذا كان ابن أم جميل غير متزوج أو غير خاطب اسعَيْ أنتِ لي حتى نرشح له بنتي، ما رأيك؟

ـ ابنها لن يكون إلا مثلها أو مثل زوجها، لا حسن ولا جمال، سمراء قصيرة، وزوجها أسمر وأقصر منها.

. أنت رأيت زوجها؟

. نعم، أعرفه حق المعرفة، رأيته معها أكثر من مرة في مديرية التربية، لا يلفت النظر ولا يستحق الاهتمام.

. أعرف، أنت عندك دائماً حب المبالغة في كل شيء، على كل حال، ادرسي أنت الموضوع، وحاولي معرفة وضع ابنها.

مدرسة اللغة العربية تغمغم:

. ممكن.

وتنهض، تهم بالمغادرة، تسألها المديرة:

. إلى أين؟ نسيتِ! ما ناديت أبو عمر.
. تذكرت عندي أوراق المذاكرة سأقعد في غرفة المدرسات وأصححها.
تخرج وهي تغمغم:
. أم جميل زميلتي، وبنتي ضحى أولى بابنها جميل، بنتي بيضاء شقراء، وبنت المديرة سوداء مثل الفحم، على كل حال الدنيا حظوظ، والشاب بعد ما وصل، ولكن والله لن أسعى لأجل ابنتها، ولو كانت مديرتي.
ولكن سرعان ما ترجع عن قصد، وهي تسأل بشيء من الغنج:
. حضرة المديرة، هل سمعت عن قرار جديد صدر أو سيصدر؟
. لم أسمع، أي قرار لا يخفى علي، حتى قبل صدوره يصلني خبره.
تتكلم مدرسة اللغة العربية بشيء من التشكيك:
. أنا لا أعرف، ولكن سمعت عن قرار يقول: لا يسمح لأي مدير بالاستمرار في منصبه أكثر من أربع سنوات، لا بد من عودته إلى التدريس.
المديرة تخبط بمسطرة في يدها على المنضدة، وتصيح:
. يا رُوحي، لا تصدقي، هذا كلام، حتى لو صدر مثل هذا القرار، لا بد له من تفسيرات، تفسير واحد قد ينسف القرار من جذوره، روحي، أنت ما عندك معرفة بهذه الأمور، ولا تنسَيْ، لا بد من وجود استثناءات.
وتخرج مدرسة اللغة العربية ممتعضة، المديرة تغمغم:
. لا يهمني إن اشترت شقة أو عمارة، أنا عندي الإدارة تساوي الدنيا كلها، وإن شاء الله لا أموت إلا وأنا مديرة، ألف قرار بخيط، لا أرجع إلى التدريس ولو قامت القيامة، بكل بساطة أنتقل إلى مدرسة جديدة، وأُعَيَّن فيها مديرة، أنتقل حتى إلى محافظة أخرى، انتهت المشكلة، أنا الله خلقني مديرة.

*

مدرسة اللغة العربية تمر بالآذن، تطلب منه فنجان قهوة، يجيبها:
ـ هناء خانم، الكهرباء مقطوعة، وما عندي غاز، للأسف، اليوم لا قهوة ولا شاي.
تسرع إلى غرفة المدرسات، تغمغم:
ـ أعرفه، هو كذاب ومخادع، المديرة أوصته، أنا أعرف، والله لن أتركها تكمل هذا الفصل، أنا أعرف كيف سأتصرف.
تمسح بيدها الغبار عن أحد الكراسي، تقعد عليه، تستند إلى منضدة خشبية قديمة، تستل من حقيبتها ورقة بيضاء، تبدأ بملء الصفحة.

وأخيراً تم التوقيع على عقد البيع والشراء، بعد مساومة ومجادلة وأخذ وعطاء، أبو سامر يأخذ بيد أبو جميل ويدخل به إلى غرفة داخلية في عمق المكتب، ويحاول أن يقنعه بأربعة ملايين وأربعمئة ألف، وأبو جميل مصر على أربعة ملايين ومئتي ألف، وأبو سامر يغريه بالشراء، ويؤكد له أن الدار لقطة لن يجد مثلها، ويكرر له وصف محاسنها، ويعيد القول في ذكر اتجاهاتها الثلاثة: شمالية وغربية وجنوبية. ثم يسحب أكرم المحمد من يده وهو شريك حكمت بك وأبو سامر، ويمضي به إلى الغرفة الداخلية، وهو يتظاهر بأنه يريد إقناعه، ثم ما يلبث أبو سامر أن يخرج، ليقول لحكمت بك، وهو يظهر الانفعال والاستياء:

ـ يا حكمت بك، صاحب الشقة السيد أكرم لا يقبل بأقل من أربعة ملايين وخمسمئة ألف، تفضل، ادخل أنت، حاول أنت إقناعه بأربعة ملايين وثلاثمئة، أنا أعطيت كلمتي للأخ أبو جميل، من البداية قلت له أربعة ملايين وثلاثمئة.

ويمضي حكمت بك إلى الغرفة الداخلية، حكمت بك وأكرم المحمد يتحاوران:

. الشقة شاهدها خلال أربعة أشهر عشرة زبائن وما رجع أحد منهم، كل زبون يتشكك في ورق الجدران، وفي السقف المستعار.

ويتكلم أكرم المحمد:

. يا حكمت بك، نحن اشتريناها بمليونين ونصف، وصرفنا عليها خمسمئة ألف، يعني كلفتنا ثلاثة ملايين، على الأقل نربح بها مليون ونصف، لا يوجد كل يوم شقة مثل هذه الشقة.

ويتكلم حكمت بك:

. ولا يوجد كل يوم زبون مثل هذا الزبون، سيدفع الثمن نقداً فور الفراغة، ومن الممكن التعجيل بالفراغة، خلال أسبوع أو أقل نسلمه الشقة ونستلم المبلغ دفعة واحدة.

. لا بأس، ولكن من الضروري إظهار تمسكي بالسعر ولا بد من المساومة، أنت تعرف وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بضرورة المساومة وقوله: "حتى يعرق الجبين".

ويتكلم حكمت بك:

ـ الجمعة الماضية قال الخطيب: هذا حديث غير صحيح، والصحيح حديث آخر، ما حفظته، أنت تعرف، ذاكرتي ضعيفة، ولكن معناه:"رحم الله عبداً سمحاً إذا باع أو اشترى".

أكرم المحمد يتكلم بنبرة تأنيبية ساخرة:

. حكمت بك، أنت الآن بدأت تعرف الحديث الصحيح والحديث غير الصحيح؟! ما شاء الله.

وأخيراً تم الاتفاق على أربعة ملايين وثلاثمئة ألف، ومن صندوق كرتوني، حمل اسم معمل زجاج "المتألق"، وصور كاسات زجاجية، من أجل التمويه، أخرج أبو جميل رزم النقود، وكلها من فئة الألف، وأخرج أبو سامر العدّادة، وعد الرزم، وأكرم المحمد وحكمت بك يتابعان العدَّ بعينين مفتوحتين، المبلغ مليون وثلاثمئة ألف ليرة سورية، بالتمام والكمال، هو دفعة أولى، وباقي المبلغ وقدره ثلاثة ملايين يدفع نقداً دفعة واحدة عند الفراغة.

. الله يعوض.

. بالهنا.

. الله يتمم بالخير.

. مبارك عليك الدار.

. بارك الله في عمرك.

وتناول أكرم المحمد رزمة، فيها مئة ألف، رماها لأبو سامر وهو يقول ساخراً:

. هذه أجرتك أنت وحكمت بك، لا بارك الله لك فيها.

أخذها أبو سامر ورماها في درج الطاولة، وهو يقول:

. هي حلال ومباركة، هي تعب جبين.

ثم سحب ألفي ليرة، وقال لابنه سامر:

. هات لنا نصف كيلو بقلاوة من محل عمك سحلول.

وأوقفه أبو جميل، وقال له:

. لا يجوز يا أبو سامر، الحلو على حسابي أنا.

وأخرج محفظته، استل منها أربعة آلاف وناولها لسامر، وهو يقول:

. هات كيلو، الله يرضى عليك.

تردد سامر، فقال له أبوه:

. خذ من عمك، هذه هي الأصول، عمك أبو جميل يعرف الواجب، الحلو على حساب المشتري، الله يرزقه.

وأخرج أكرم المحمد من جيبه كيساً بلاستيكياً أسود، ملأ به الرزم، ناول الكيس إلى سامر، ومفتاح السيارة، وهو يقول:

ـ خذ يا سامر، الله يرضى عليك، افتح باكاج السيارة وحط فيه هذا الكيس، بجوار كيس أسود مثله.

وعلق حكمت بك ساخراً:

. كم مليون في الكيس الثاني؟

ضحك أكرم المحمد وهو يرد:

. هو كيس زبالة، وضعته في الباكاج من يومين ونسيت رميه، رائحته طلعت، أنا راجع إلى البيت سأرميه في أقرب حاوية.

وضحك حكمت بك وهو يقول:

. لا تغلط، وترميَ كيس المليون.

يعلق أكرم المحمد:

. لا فرق، كله مثل بعضه، هذا زبالة، وهذا زبالة، الله يرزقنا الحلال، كله رايح.

وتناول كلٌ من في المكتب قطعة بقلاوة، وقال أبو سامر لابنه:

. حط البقلاوة في كيس حتى يأخذها عمك أبو جميل معه.

ويرد أبو جميل:

. لا والله يا أبو سامر، البقلاوة لك، خذها للبيت والأولاد.

في السجل العقاري

يوم الأحد اتصل به مسير المعاملات، قال له: "الفراغة أصبحت جاهزة، أراك غداً الإثنين الساعة التاسعة أمام باب السجل العقاري في شارع عبد المنعم رياض"، أجابه على الفور: "أرجو تأجيلها إلى يوم الثلاثاء"، رد مسيِّر المعاملات: "حاضر، لكن في التاسعة تماماً على الرصيف أمام المبنى، لا تتأخر، قبل أن يبدأ الزحام، سنكون أول من ينجز المعاملة، لن نتأخر أكثر من ربع ساعة، أحضر معك بطاقة الهوية الشخصية".

يوم الثلاثاء هو أحب الأيام إلى نفسه.

العادة أن تجري حفلات الزفاف في حلب يوم الخميس، ليمتد الحفل كالعادة إلى قبيل الفجر، وأحياناً حتى أذان الفجر، وليصبح المدعوون والعروسان في اليوم التالي في يوم عطلة، لكنه أصرّ على أن يكون حفل زفافه يوم الثلاثاء.

وطلب من زوجته أن تجعل يوم الفراغ في دوامها في المدرسة يوم الثلاثاء، كذلك كان يجعل يوم فراغه في المدرسة يوم الثلاثاء، ليكونا في البيت معاً.

في صباح يوم الثلاثاء قال لها:

. الفراغة أصبحت جاهزة، هيا، جهزي نفسك لنذهب إلى السجل العقاري.

. ولماذا أذهب معك؟

. لترافقيني، وفي الطريق ونتسلَّى، لا أكثر.

ـ لا، لن أذهب، سأبقى في البيت أرتب الحاجات من أجل الانتقال إلى الشقة الجديدة، اذهب أنت، وارجع بسرعة، سأطبخ لك مأمونية.

. لا تطبخي، ولا ترتبي حاجات البيت، النقلة بعيدة، لن ننتقل إلى الشقة الجديدة حتى نيسان، حتى يدخل الربيع، ويدفأ الجو، نحن اليوم في ١٤ آذار، لن ننتقل إلا بعد شهر.

ـ بل سننتقل فوراً بعد الفراغة واستلام المفتاح، الدار نظيفة، ولا تحتاج إلى شيء، حتى ولا إلى مسمار، سننام فيها أول الشهر، بعد ذلك سمعت عن نزول بعض القذائف في منطقة سبع البحرات.

أبو جميل يتكلم مؤكداً:

ـ لا بد من ذهابك معي، إذا سقطت قذيفة فسوف تسقط علينا معاً، ما روحك أغلى من روحي.

أمام باب المبنى يجدان مسيّر المعاملات في الانتظار، يصعدان وراءه إلى الدور الثالث، الدرج ضيق، والمراجعون كُثُر، بين صاعد ونازل، أمام أحد الموظفين يضع مسير المعاملات ملف المعاملة، يقلِّب الأوراق، مسيِّر المعاملات يلتفت إلى أبو جميل ويقول له:

. هات بطاقة الهوية.

أبو جميل يلتفت إلى زوجته ويقول لها:

. افتحي بسرعة حقيبة يدك، وهاتي بطاقة الهوية.

. ولماذا أنا؟

. الدار أصبحت مسجلة باسمك، والفراغة لك.

الدموع تهطل من عينيها.

. ولماذا باسمي أنا؟

. أنا في الثانية والستين والأجل قريب، أنت، ما شاء الله، مازلت صبية.

أصابعها ترتعش، الدموع تملأ عينيها.

. ما عدت أرى، لا أعرف، هل البطاقة معي؟ أنت ما قلت لي احمليها معك.

. أنا متأكد هي معك، على مهلك.

*

خارج مبنى السجل العقاري أم جميل تمسح إبهام يدها اليسرى بمنديل ورقي من أثر الحبر الأزرق.

أبو جميل يقول لها:

. سنتناول المأمونية والشعيبيات مع الجبنة المشلَّلة في محل الطرابيشي.

. أخجل من القعود في المحل مع الرجال.

. ولماذا الخجل؟ كل من سيرانا سيقول هذه أمُّه وهذا ابنها.

ضحكت، وهو يتأبط ذراعها ليدخلا معاً إلى محل الطرابيشي للحلويات، قعدا متقابلين إلى المائدة.

نفحتهما رائحة السمن العربي.

المحل صغير، فيه ست موائد فقط، واجهته الزجاجية العريضة تطل على شارع عبد المنعم رياض.

يقعدان إلى المائدة القريبة من الباب، هي المائدة الوحيدة الشاغرة.

الشعيبيات قبب من ذهب تتألق، وإلى جانبها المأمونية وعلى وجهها يموج السمن، وإلى جوارها وعاء من زجاج كريستال فاخر، فيه عسل مصفى، وإلى جواره وعاء يشبهه، هو توأمه، فيه اللبأ كأنه هرم من فضة.

. مأمونية بالعسل مع شعيبيات بالفستق، وصحن جبنة شلل مغسولة من الملح.

هكذا يقول أبو جميل للعامل في المحل.

أبو منير يقف على منصة عالية وراء المأمونية وبيده مغرفة فضية، وهو يملأ الصحون ويقتطع من اللبأ هرماً صغيراً ويضعه في وسط الصحن بأناقة ويرش فوقه الفستق الحلبي المجروش، ويضع الشعيبية في صحن آخر، ويقسمها بالقطاعة بسرعة وأناقة، ثم يرش فوقها القرفة المطحونة.

عبق القرفة والسمن يملأ الفضاء، وقعقعة الملاعق الصغيرة موسيقى هادئة في الضحى الجميل، والشمس تغطي الشارع بغلالة متألقة في يوم ربيعي زاهر، ومن وراء الزجاج المتألق تنهض مديرية الثقافة بطراز بنائها الحلبي المتجدِّد.

أبو جميل يحدث أم جميل:

ـ كم حلمت بإنجاز دراسة عن سليمان الحلبي لألقي محاضرة هنا في هذه المديرية، راح العمر، خسارة.

أم جميل تتكلم:

. ما راح العمر، الحياة كما يقال تبدأ بعد الستين، أنت الآن متقاعد، وما عندك أي التزام أو عمل، وغداً تقعد في الشقة الواسعة، وتكتب عن سليمان الحلبي وصلاح الدين وسيف الدولة وإبراهيم هنانو، الشرفة وحدها ستلهمك ألف موضوع.

العامل يضع الصحون أمام أبو جميل وأم جميل وهو يقول لأبو جميل:

. الجبنة مغسولة بشكل جيد، ما فيها ملح، كُلْ واطمئن.

يعلق أبو جميل موجهاً كلامه إلى أم جميل:

ـ هذه خاصة لمرضى الضغط مثلي، وعندهم مأمونية بالسكرين خاصة لأصحاب السكر.

أم جميل تعلق مشجعة:

. أنت ما عندك ضغط، مجرد حالة نفسية لا أكثر، ولا عندك سكر، ولله الحمد.

تلحظ عينيه الثابتتين على شيء ما في الخارج، تسأله:

. على الرصيف صبية حلوة، وأنت عينك عليها؟

وتلتفت إلى وراء، لترى عبر زجاج الباب.

ـ لا صبية ولا عجوز، أنا أتأمل الأحواض البلاستيكية، المخصَّصة للزرع، الموضوعة على الإسفلت مقابل الرصيف، وأسأل نفسي لماذا لم يضعها على الرصيف؟.

تلتفت مرة ثانية، تتأملها، تعلق:
. لا يريد صاحب المحل وقوف السيارات أمام المحل.
تصمت ثم تضيف:
. أحواض جميلة، وفيها رسوم زهور نافرة، وملونة، ما تزال جديدة، ليس فيها أي نوع من الزهور، ليس فيها غير التراب.
. أفكر بشراء ثلاثة أحواض مثلها ووضعها في الشرفة، عندنا في الشقة الجديدة.
ـ لا بأس، ولكنها كبيرة، طول الحوض الواحد أكثر من متر، وعرضه نصف متر تقريباً، ستملأ الشرفة.
. لا، لا، طبعاً ساشتري أصغر منها، لا بد من وجود أحواض أصغر، وسأكتفي بحوضين.
. ما رأيك بوضع الأحواض على سور الشرفة، لا على الأرض، حتى لا تضيق الشرفة.
. فكرة مقبولة، ولكنها في هذه الحالة ستحجب عنّا الرؤية، لن نرى حديقة السبيل ولا شارع النيل.
تغرز الشوكة في قطعة من الشعيبية وتضعها في صحنه، وهي تقول:
. اشتهيت لك هذه القطعة، أنا والله شبعت، لا أستطيع إكمال الشعيبية، الفستق الذي فيها وحده مشبع، الله يرزقك.
. أنا أعطيتك الدار كلها وثمنها أربعة ملايين، وأنت تعطيني قطعة صغيرة من الشعيبية؟
. أنا روحي كلها لك، وخذ فوقها ربع شلة الجبنة، أنت تحب الجبنة.
صوت صفير حاد، وثمة شيء ما ينغرس في حوض الزرع أمام المحل.
الناس يتراجعون، وتعلو الأصوات:
. قذيفة.
. ابتعدوا عنها ستنفجر.
. تراجعوا إلى الوراء.
وتعلو الأصوات من داخل المحل:
. يا لطيف!
ويضع أبو منير المغرفة من يده وهو يقول للزبائن:
. اطمئنوا، سليمة، إن شاء الله، قذيفة صغيرة، لم تنفجر.
ويخرج من وراء منصته، يقول للزبائن، وهو يتجه نحو الباب:
. ابقوا في أماكنكم، لا تزعجوا أنفسكم.
يخرج من المحل، يصيح بالناس:

. ابتعدوا عنها، لا أحد يلمسها، أنا خدمت في الجيش، هذه قذيفة هاون صغيرة، لم تنفجر، التراب امتص الصدمة، وانبعج البلاستيك.

أبو منير يرجع إلى المحل، يلتفت إلى الزبائن يقول لهم:

. أنتم اليوم ضيوفي، والله لا أسمح لأحد بدفع ثمن ما تناول، الحمد لله القذيفة ما انفجرت، والمحل ما تضرر بشيء، وما أحد من المارين أوذي، الحمد لله.

*

أبو جميل يقول لزوجته خارج المحل وهما يتأملان الحوض البلاستيكي المبعوج والقذيفة المنغرسة في التراب:

. أنا اليوم تشاءمت، هذه الدار لن تأتي لنا بالخير.

. لا يجوز هذا يا رجل، الحمد لله لم يحصل أي شيء.

وتضع يدها على يده وهي تمازحه:

ـ مثلما قلت، سنشتري مثل هذه الأحواض، وسنشتريها كبيرة، ولن نضعها في أرض الشرفة، سنضعها على سور الشرفة.

. حتى تتغرس فيها قذيفة طائشة؟

تعلق وهي تضحك:

. قد تصد طائرة مثل طائرات ١١ أيلول.

. وهل نحن في البرج التجاري؟

. لا تعرف، كل شيء متوقع.

غداء بالسمك

يدخل إلى ساحة الأحرار في حي الكلاسة قادماً من طرف جامع جمال عبد الناصر، بعد أن تجاوز المعبر، غير مصدق أنه قد تجاوزه.

*

أمس الأربعاء دعته أخته إلى تناول الغداء، قالت له:"سأعد لك وجبة غداء سمك، يشتهيها قلبك". كان صوتها حنوناً دافئاً، منذ شهرين تقريباً لم يزرها، بل من ثلاثة أشهر، الأيام والأشهر تمر بسرعة، آخر زيارة كانت مع ابنه الدكتور جميل، في زيارته القصيرة لحلب في أواخر كانون الأول من العام الماضي ٢٠١٢، كلما زارها فتحت له موضوعاً يجرحه في العمق، لذلك لا يحب زيارتها.

ولكن لا معنى للدعوة في هذه الظروف، القلب لا يشتهي، وعليه أن يمر بالمعبر، بين حي المشارقة وبستان القصر، الجسر فوق النهر قرب سوق الهال أصبح هو المعبر، وعلى الطرفين تفتيش وأسئلة وأجوبة، ولا بد من أن تجتاز الجسر بأسرع مما تجتاز الصراط المستقيم، وإلا فقد تكويك رصاصة قناص، وقد يمر أسبوع ولا يسقط أحد أو يصاب، وقد يصاب في يوم واحد اثنان أو ثلاثة.

ولكنها أخته، وقد دَعَتْه، لهجتها هذه المرة وهي تدعوه تنم عن لطف وحنان، إما أن يزورها بعد هذه الزيارة أو لا يزورها أبداً.

الحقيقة كان الله في عون أختي، لا بد من أن تمر كل يوم بهذا المعبر، لتذهب إلى عملها في البريد.

ويصل إلى ساحة الأحرار في وسط حي الكلاسة، فينسى كل شيء.

يحب ساحة الأحرار، تضج بالصخب والأصوات والحياة، عشرات العربات والبسطات لبيع الخضروات والفواكه، نداءات الباعة تتناغم مع أبواق السيارات وضجيج محركاتها تشكل في تناغم موسيقى الحياة، والموز الأصفر مع التفاح الأحمر، يشكلان مع السبانخ الأخضر والقنبيط بزهره الأبيض ألوان العيش والبهجة، تلك هي الحياة، ويعلو في طرف الساحة نداء المؤذن يدعو لصلاة العصر، تسري في نفسه روح الإيمان، ويطمئن قلبه، لكنه لا يفكر في الدخول إلى الجامع، يحس بالصلاة ثقيلة، ومن الطرف الغربي تطل على الساحة من فوق هضبةٌ غير عالية، تعلو فيها الشواهد الحجرية البيضاء لقبور الآباء والأجداد، وهم يرقدون في صمت

مقدس، لا يزعجهم شيء، لا صخب الباعة والمشترين، حتى ولا أصواتهم العالية حين يختصمون.

يلوب بين العربات والبسطات، يبحث عن تفاح مناسب، بسعر مناسب، ثم يشتري أربعة كيلوات من التفاح الأحمر، يضعها البائع في كيس ورقي، جميل أن يوضع التفاح في كيس ورقي، لا كيس من بلاستيك، يضم الكيس إلى صدره، يتنسَّم عبقه الفواح، ويصعد الدرج الضيق المعتم إلى الدور الخامس، يصل متعباً وهو يلهث.

*

إذا كانت الساحة بما فيها من صخب الحياة وضجيجها وزحامها وحركتها هي الحاضر، فهل القبور الراقدة بصمت هي الماضي؟ ما أقسى أن يُخْتَصَر تاريخ الإنسان بتدوين اسمه وتاريخ وفاته على حجر أبيض، تمحوه الأيام، وتحطمه الزلازل أو الصواعق، كم من شاهدة رآها في المقبرة مكسورة، حطمتها صاعقة، ولكن أين القبور من عهد آدم. الأموات هم المستقبل، هم الذين سيُبعَثون، ويُحاسَبون، وإما إلى الجنة وإما إلى النار، إذن هم المستقبل، والمستقبل لهم. أنت مؤمن حقيقة، ولكن لا تعرف لماذا لا تحب الالتزام بالصلاة.

البائع أعاد إليك مئتي ليرة، قطع واحدة، ولكن سرعان ما تنبَّهت إليها، قبل وضْعِها في جيبك، قلت له:"يا أخي، أنت أخطأت معي في الحساب"، صاح بك:"أنا لا أخطئ مع أحد، أنا عقلي معي، أنت مضيِّع عقلك، راجع حسابك"، تضحك، وتقول له:" يا أخي الخطأ لصالحك، أنا أخذت أربعة كيلوات، وأعطيتك خمسمئة، والكيلو بمئة، ثمنها أربعمئة، أنت رجّعت لي مئتين، لك عندي مئة زيادة، تفضل خذها"، وتعطيه المئة، يتناولها، يضعها في جيبه، ولا يشكرك.

*

يلتقط أنفاسه، ثم ينظر إلى ساعة يده، الرابعة والنصف تماماً، يقرع الباب، فينفتح عن وجه صبية شقراء، في الثلاثين من العمر، وجه مدوّر، عينان خضراوان، هل قرع الباب الخطأ، لا يُعقل؟ هو بيت أخته من غير شك.

ترحب به، وهي تمدُّ له يدها:

. تفضل، أهلاً وسهلاً، أنا عُلا صديقة أختك.

يصافحها بلطف، وجه بشوش كأنها تعرفه منذ سنة، وهو بين الدهشة والانبهار.

ويأتيه صوت أخته من الداخل:

. تفضل أبو جميل، تفضل، هذه عُلا أعز صديقاتي، تفضل.

وتظهر أخته، يدخل، يناولها كيس التفاح، تناوله لصديقتها، وهي تقول:

. عُلا، أنت تولَّيْ باقي المهمة، ننتظر دعوتك لنا إلى المائدة عندما تجهز.

ثم تلتفت إلى أخيها لتقول:

. تفضل إلى غرفة الجلوس، الطعام جاهز، فقط عشر دقائق.

ولكن أين السمك؟ لم يشم رائحة السمك؟ ولا أثر له.

. أين الأولاد؟

ـ صالح لا يرجع حتى التاسعة، صالح غير فالح يا أبو جميل، مثل والده، مرتين تقدم إلى امتحان الشهادة الثانوية، وما أفلح، وهو يفكر في التقدم إلى الامتحان مرة ثالثة، وعمر عنده هذه السنة امتحان الشهادة الإعدادية، وهو في دورة تقوية من أجل الامتحان، ومحمد في الشارع يلعب مع أصحابه، وسناء مع هناء عند الجيران، الله يقصف عمر الاثنتين، وهناك شيطان على الطريق مخبأ هنا في بطني.

وتشير إلى بطنها، ثم تقول:

. أنا حامل في أواخر الشهر السابع، وحاولت أكثر من مرة إسقاطه، ما نجحت.

لن يسألها عن الزوج، فهو دائماً مسافر، بين الحسكة وحلب، ولكنها من تلقاء نفسها تتكلم:

. شفيق وصل أمس العصر من الحسكة، جلب لي معه ثلاثة أفراخ من السمك الشبوط كل فرخ وزنه خمس كيلوات، وسافر فجر هذا اليوم، أنا أعرف زوجتك لا تحب رائحة السمك، قلت لنفسي: قلبي محروق على أخي، محروم من السمك، ولهذا دعوتك اليوم إلى الغداء.

ـ أنا غير محروم من السمك، وزوجتي تحب السمك، ولكن لا يمكن قليه في الشقة، مطبخنا صغير، وما فيه غير نافذة طولها أقل من نصف متر، وكذلك عرضها، وهي على المهواة، ولا تطل على الشارع، أين يمكننا قلي السمك؟ على كل حال، عندنا في منطقة الملعب البلدي مطعم عنده يومياً سمك طازج، يعدُّه على الطريقة العراقية، المسقوف، وكلَّما اشتهينا أكل سمك اشترينا السمك المشوي الجاهز.

ـ أنت اليوم ستأكل السمك على طريقة جديدة، صديقتي عُلا، من أعز صديقاتي، موظفة مثلي في مكتب البريد بإدلب، انتقلت من حوالي ثلاثة أشهر إلى حلب، انتقلت في الأسبوع الأول من كانون الثاني من هذا العام، وهي معي في نفس المكتب، تمضي عندي دائماً الخميس والجمعة والسبت، وهذا اليوم خميس، هي تعيش وحدها، تتسلى معي، وأنت تعرف زوجي دائماً على سفر، وأنا أتسلى معها، مرحة، ودمها خفيف، وليس عندها عُقَد، صبية، حلوة، قوام، وطول، وعيون خضر، المهم، حدثتُها عن السمك، قالت أنا سأعده لك بطريقة تعجبك، وسيُعْجَب بها أخوك، والآن سترى.

ويسألها للاطمئنان:

. كيف هو مرورك كل يوم بالمعبر؟ أريد الاطمئنان عليك.

ـ اعتدت على الأمر، هو عادي، ويسهل الأمر عندما تكون عُلا معي، كما يقال: الرفيق قبل الطريق.

ـ لكن الأمر غير سهل، زحام، وتفتيش من الطرفين، ما أحد كان يتوقع تحوُّل النهر إلى حد فاصل بين طرفين، والأصعب تحول الجسر إلى معبر حدودي، لا بد من الركض فوقه قبل سقوط قذيفة أو انطلاق رصاصة من قناص.

ـ نحن اعتدنا على هذا، كل يوم أعبره في الصباح والمساء، حتى عُلا، تعبره معي وهي غير مضطرة، قلت لك، دائماً تمضي الخميس والجمعة والسبت عندي، تترك بيتها، وهو قصر، وتنام عندي، الوحدة صعبة.

ـ وماذا لو جاء يوم أغلق فيه هذا المعبر؟ ودوامك اليومي في مكتب البريد كيف سيكون؟

ويأتي صوت عُلا من المطبخ:

ـ كل شيء جاهز، تفضلوا.

تقعد إلى جوار صديقتها، يقعد أبو جميل قبالتهما.

أخته تتكلم:

ـ أنا لن أتكلم تفضلي، عُلا، اشرحي لي ولأخي طريقتك في إعداد السمك.

تتكلم بشيء من الهدوء:

ـ طبعاً أولاً أنا تعلمت هذه الطريقة من والدتي الله يرحمها، هي أصلها من اللاذقية، نأخذ فرخ السمك، ونفتحه إلى شقين، ونزيل الزعانف والأحشاء، وبعد سلقه بالماء الساخن لربع ساعة، نزيل الحسك، ثم نضعه في وعاء مفتوح، ونضع تحته وفوقه وحوله شرائح البندورة والفليفلة والبطاطا، ونضعه في الفرن ساعة، وتفضل، بالهناء والشفاء.

وتحمل السكين وتقطع له قطعة كبيرة من السمك، وتضعها في الصحن.

سمك شهي حقيقة.

المائدة صغيرة، يعرفها، ويعرف مطبخ أخته، هو صغير أيضاً، ولكن له شرفة تطل على ساحة الأحرار، من باب الشرفة يرى المقبرة والقبور في صمتها الهادئ، المنضدة صغيرة، يعرفها، ولكنها هذه المرة مختلفة، مرتبة بشكل أنيق جداً، صحن كبير، في وسطه صحن صغير، تحتهما منديل ورقي، إلى يمين الصحن سكين، إلى يساره شوكة وملعقة، في الصحن الصغير عصير الرمان فوقه ذرات من النعنع اليابس وقليل من الثوم المقطع ناعماً، وتلتمع قطرات من الزيت، كأس زجاجية متألقة إلى جانب كل صحن، فرخ السمك في وعاء بيضوي متطاول كأنه الزورق من كريستال رقيق شفاف، فرخ السمك مزين بأوراق النعنع الخضراء، حبة بندورة حمراء في فم

السمكة، مزهريتان صغيرتان على المائدة، في كل مزهرية زهرتا قرنفل، واحدة حمراء والثانية بيضاء.

أنَّى لأخته هذا كله؟ لم يشهد عندها من قبل مائدة كهذه، هي من غير شك من لمسات صديقتها، حتى زورق الكريستال والمزهريات مستعارة من بيت صديقتها من غير شك، جلسة هادئة، مريحة، أحاديث طريفة عن السمك والبحر واللاذقية، وجه هادئ، فيه سماحة وعفوية، تتكلم بلطف، لا تكلُّفَ على الإطلاق، بيضاء، رشيقة، أناملها لطيفة جداً وهي تقسم من السمك وتضع في صحنه، ثم تأبى إلا أن تنهض وتحمل الصحون بنفسها، وتقف إلى المجلى تغسل الصحون.

*

أخته إلى جانبه في غرفة الجلوس تسأله هامسة، وهي تميل عليه، وتغمز له بعينها:

. ما رأيك؟

. سلمت أياديك وأياديها، طعام شهي، ولكن ما كنت أريد تعبك، ولا ضرورة لهذا التعب كله، الظروف كلها لا تساعد.

ـ ماذا نفعل؟ سنأكل ونعيش ونتسلى، الحياة ماشية، على كل حال، لا تهرب من الموضوع، ولا تتظاهر بالغباء، أنا أسألك عن صديقتي عُلا، لا عن الطعام.

. ذكية وصاحبة ذوق.

. وعندها شقة في الجميلية، في وسط شارع إسكندرون، في الطابق الثالث، أمام المصور ديكران، شرقية قبلية غربية، تطل من الجهة الشرقية على البريد وساحة سعد الله الجابري، ومن الجهة القبلية على المجمع الحكومي وساحة الكتَّاب وسوق الهال، ومن الجهة الغربية على الملعب البلدي والفيض، الدنيا كلها أمامك.

. الله يسعدها.

. شقة من أربع غرف، أحلى فرش وأحلى هندسة وأجمل ديكور، وعندها راتبها وسيارتها على الباب، طبعاً هي تركتها أمام البيت في الجميلية، لا يمكنها الدخول بها إلى المعبر.

. الله يسعدها ويسعد زوجها.

. تزوجت عن حب أحد زملائها في مكتب البريد بإدلب، قبل سنة، عاشت معه سبعة أشهر، ثم حصل الطلاق، الحمد لله لم تنجب منه، ما هي مثلي، أنا في سبع سنين أنجبت خمسة أولاد، وعندي الآن ولد في بطني، الله يقصف عمره وعمري، على كل حال، هي تزوجته عن حب، هو فقير، من أسرة ميتة معدمة، أبوها لواء متقاعد، من آل الأسعد، وأمها ربة بيت، من بيت الخياطة، أسرة أدب وذوق وعلم، أخوها

الكبير طبيب، وأخوها الصغير صيدلي، وأختها محامية، وهي موظفة معي في البريد، مثلما قلت لك، ما رأيك؟

. هذا ترشيح للزواج؟

. نعم، وهي صبية، عمرها حوالي ثلاثين سنة.

. عندما يصل ابني جميل سيخطب هو بنفسه، وأظنه يفضل دكتورة مثله.

تضحك مستاءة، تلكزه بكوعها:

. أنا أرشحها لك، لا لابنك، أنت اليوم رأسك مسكَّر.

. رجاء، لا تسخري مني، صبية في الثلاثين تقبل بالزواج من رجل في الستين في عمر أبيها؟

ـ هي معقَّدة من الشباب، ترغب في زوج بعمر أبيها، ناضج مكتمل، يقدِّرها ويحترمها.

. على كل حال هذا أمر يتعلق بها، وأنا عندي زوجة لا أبدِّلها بنساء الأرض.

ـ أنا ما قلت لك بدِّلها، أنا قلت تزوجها عليها، تعيش معها أحلى عمر، شقة وسيارة وراتب، وشباب وجمال، روحك ماتت مع أم جميل، أكثر من ثلاثين سنة، بالله عليك، أنت ما مللت منها، ما اشتقت إلى وجه جديد؟

. رجاء، من قبل قلت لك، لا تحكي مرة ثانية في هذا الموضوع.

ـ أخي أبو جميل، والله يصعب عليَّ، بيتك ما فيه ولد تتسلى معه، حياتكم مملة.

. أنا عندي الدكتور جميل، ملأ حياتي كلها، وعندي هيفين.

ـ إيه، والحمد لله جميل، الله يخليه لك، ولكن هو في السعودية، ومن قبل في أمريكا، جميل موجود وغير موجود، من عشر سنين ما رأيته، حقيقة جاء العام الماضي، وفرحت به، بقي أقل من شهر وراح، وبنتك هيفين مع زوجها في قطر، أنت بحاجة إلى ولد يملأ حياتك، تراه، تحمله، تلاعبه.

. قلت لك عندي الدكتور جميل، وهيفين.

ـ وحتى بنتك سمَّيتَها بالاسم الكردي هيفين، ما شاء الله، شيرين سلبت عقلك، ما معنى هيفين؟

ـ اسم حلو، ولا أجمل منه، معناه باللغة الكردية، عشق محبة، أو هالة القمر، بحسب اللفظ، وباللغة الإنكليزية إذا أردت السماء.

. وشيرين؟ ما معناه؟

. قلت لك من زمان، وسألتني من قبل عشر مرات، شيرين: قطر، حلو، سكر، ونحن بالعامية نقول شيرة، وأصلها كردي.

تدخل عُلا تحمل كؤوس الشاي.

أبو جميل يشرب الشاي بسرعة، ثم ينهض:

. سامحوني، أنا من عادتي شرب الشاي بسرعة، أحبه وهو ساخن.

يلتفت إلى عُلا:

ـ سلمت يداك ست عُلا، سمك شهي، ما ذقت مثله من قبل، أنا شاكر لك لطفك وكرمك.

أخته تعلق:

. عند عُلا طريقة أو قل طرق لإعداد السمك، والآن موسمه، قبل قدوم الصيف، كل أسبوع سيكون لك عندي وجبة سمك.

تنهض أخته لتودعه، يقول لها:

. أرجوك، ابقي مع صديقتك.

تأبى إلا أن تسير معه، عبر البهو، تهمس له:

. اسمع مني، جميل لن يرجع، جميل سيتزوج واحدة من أوربة، ولن ترى وجهه، أنت بحاجة إلى ولد يساعدك في كبرك.

. رجاء، اقفلي الوضوع، جميل سيرجع نهائياً الشهر القادم.

تضع يدها في الباب كأنها تريد تأخيره، وهي تقول:

ـ أخي أبو جميل، أنت لن تعيش ألف عمر، جدد حياتك، انظر إلى المقبرة وأنت طالع من العمارة، الموت أمامنا، ماذا في هذه الدنيا؟ راجع نفسك وقرِّر.

بهدوء يرفع يدها من الباب وهي تحاول سده، يقول لها:

. شكراً لك يا أختي الصغيرة، أنا فكرت من أكثر من ثلاثين سنة وقررت، حتى قبل ما يولد جميل، قلت يكفينا ولد، والله رزقني جميل وهيفين، والحمد لله.

. ولكن أنت وحدك، إذا مرضت أو وقعت من سيعتني بك؟

. لي الله.

ـ لا إله لا الله، اسمع مني، ولد واحد لا يكفي، تخيل لو، لا سمح الله، وأقول ألف مرة لا سمح الله، لو مات؟ إذا كان عندك أربعة أولاد أو خمسة ومات واحد منهم؟ ستكون المصيبة أهون.

. الأعمار بيد الله، لا أحد يعرف، وهذه المقبرة أمامنا مثلما قلت، وأنا اعتمادي على الله وحده، لا على ابني ولا على زوجتي، اطمئني، وفي كل الأحوال، لي رب لن ينساني.

ـ اسمع مني، لا يجوز أن تمضي بقية عمرك في شقتك الصغيرة في منطقة الملعب البلدي، أنا والله كلما زرتك تألمت، أستاذ، وزوجتك أستاذة، وراتبك وراتبها، وبعد عشرين سنة خدمة، ما قدرت لا أنت ولا زوجتك على شراء شقة مناسبة لأستاذ قدّ الدنيا، ولولا ابنك جميل، الله يحميه، وهو الذي أعطاك مليون ليرة قبل خمس

سنين، في زيارته قبل الأخيرة، ما كنت اشتريت حتى هذه الشقة الصغيرة في منطقة الملعب البلدي، أنت بنفسك حكيت لنا هذا الكلام من قبل.

. هي أرزاق من الله، ولا فرق بيني وبين ابني، المال هو مال الله.

يصمت، يطرق، يفكر قليلاً، ثم يقول لها:

ـ ولعلمك، قبل أسبوع واحد اشتريت شقة من خمس غرف، بأربعة ملايين وثلاثمئة ألف، واستلمت المفتاح، وقريباً ننتقل إليها.

. لم تخبرني!

. الآن أخبرتك.

. خسارة، أختك آخر من تعلم، وكتبتها باسم شيرين خانم؟

. نعم.

. أعرف هذا، إيه، الله يهنيكم.

يهبط على الدرج تاركاً أخته مع صديقتها.

*

ينزل مسرعاً وسط عتمة الدرج، كأنه يهوي في قاع بئر، وهو لا يسمع ولا يرى، صوتها سدَّ أذنيه وعينيه، أهكذا تقول الأخت لأخيها؟ وهو ليس عنده سوى الولد الوحيد جميل؟

يبلغ باب البناء، يخرج إلى الساحة الصاخبة بالباعة والعربات والناس، يعلو أصوات الباعة، في طرف الساحة تنهض مئذنة جامع النور، وراء الساحة ينهض سوق المقبرة العالية، المقابر بشواهدها البيض تطل من فوق الهضبة على الساحة.

أختي تظنني ميتاً مثل أصحاب القبور هناك، هي الميتة لا أنا، أنا قلبي حي، ينبض، يتحرك، مثل هؤلاء الباعة، مثل أصواتهم، بل أكثر.

بعد بضع خطوات يلتقي ابن أخته:

. أهلاً عمر، أين كنت؟ كيف دورة الشهادة الإعدادية؟

. بصراحة، خالي، لا دورة ولا أي شيء، أنا لا أحب الدراسة، أنا كنت في مقهى النت، كيف فرخ السمك؟ أعجبك؟

. نعم، أشهى سمك.

. أنا أمس اشتريته لأمي من الساحة، هي قالت لي: سأعزم خالك.

. والوالد؟

. من ثلاثة أشهر ما زارنا، ومن سنة وهو لا يسأل عن البيت، سمعت أنه تزوج امرأة من عشيرة كبيرة في الحسكة، أمي لا تعرف، لا تخبرها، أو أظنها تعرف، أنا نفسي غير متأكد، بصراحة، أنا أعمل في محل لبيع الألبسة الجاهزة، وأنا أصرف على البيت، راتب أمي وحده لا يكفينا، وأخي صالح كسول أكثر مني.

يودعه ويمضي.

قبل أن يغادر، يلقي نظرة أخيرة على سور المقبرة، يرى جنازة تخرج من الجامع، أربعة فقط يحملون النعش يسيرون به نحو المقبرة وسط زحام الباعة ولغطهم ونداءاتهم، النعش يترنح على أكتاف الرجال الأربعة، ولا أحد سواهم، ولا أحد وراء النعش ولا أحد أمامه.

من الصعب أن يموت الرجل وحده، وألا يشارك في تشييعه أحد، ترى أليس له أولاد؟ أليس له أصدقاء؟ هكذا لا يحمله غير أربعة؟ ولا يسير وراءه أحد؟ يا للمسكين، يرحمه الله.

يمضي في الطريق، كأنه لا يرى أمامه، كلماتها الأخيرة ما تزال ترن في أذنه، وهو يريد ألا يفهمها أو يسمعها.

....اسمع مني، ولد واحد لا يكفي، تخيل لو أنه لا سمح الله، وأقول ألف مرة لا سمح الله، لو مات؟ أما إذا كان عندك أربعة أولاد أو خمسة ومات واحد منهم؟ ستكون المصيبة أهون.

لسعة حشرة

بُعَيْدَ أذان المغرب يدخل أبو جميل إلى البيت، يحمل كيلو من الحلاوة بالجبن المحشوة باللبأ، زوجته تحبها جداً، اشتراها من الجميلية، من محل سلورة بجوار جامع الصديق، أشهر بائع للحلاوة بالجبن في حلب.

تستقبله أم جميل صامتة، تحمل عنه الحلاوة بالجبن إلى المطبخ.

. تأخرت؟ كل هذا الوقت عند أختك؟ محظوظة.

. والله من المائدة إلى الباب، ولكن مشيت من الكلاسة إلى الجميلية، إلى محل سلورة حتى اشتريت لك هذ الحلاوة، وبعدها مشيت من الجميلية إلى الملعب، ما قعدت عند أختي بقدر ما مشيت، حتى الشاي شربته بسرعة، ولا غسلت يديَّ.

ـ طبعاً أكلت وتسليت، ومن الضروري أن تتمشى وتسلي نفسك حتى يكتمل سرورك، وأنا في البيت وحدي.

. أنا طول عمري معك، وأختي من ثلاثة أشهر ما زرتها.

. أمس كنت في زيارتها أنت وابنك جميل.

يضحك، يعلق:

ـ أمس؟ ماذا تعني عندك كلمة أمس؟ ابني جميل سافر في ٥ كانون الثاني، ونحن اليوم في ٢٤ آذار؟ أي أمس هذا؟ وليتني ما زرتها، ولا قبلت الدعوة.

. أراك تحفظ التواريخ كلها بدقة.

ـ طبعاً، أنا أستاذ التاريخ، ومهمتي حفظ التواريخ والأرقام، وأنت مدرسة اللغة العربية، استعمالك لكلمة أمس للماضي كله غير صحيح، أمس تعني يوم أمس بالتحديد، ولكن الأمس، بالتعريف، تعني مطلق الماضي، وأنت أدرى منِّي، يا أستاذة.

ـ لا تغير موضوع أختك، أنا ما عندي أي مشكلة، اذهب لزيارتها كل يوم، ولكن اغسل يديك بالصابون قبل ما ترجع للبيت، لا أعرف، كيف تأكل سمك، ولا تغسل بعدها يديك، أختك ما عندها ماء أو صابون؟.

. اطمئني، ما أكلت بأصابعي.

. وكيف أكلت السمك؟ بالشوكة والسكين؟ أم أختك أطعمتك بيدها؟

. عندها صديقة.

ـ مـا شـاء الله! والصـديقة أطعمتـك بيـدها، عزلـت الحسـك بأناملهـا الناعمـة، وأطعمتك بيدها، ولهذا اشتريت لي الحلاوة بالجبن حتى تصالحني.

ـ انتظري حتى أكمل كلامي: صديقتها أعدت السمك بطريقة فنية، أنا صادق معك دائماً، أنا صريح.

. أعرف، لا تحكِ لي أرجوك.

ـ حاضر، لن أحكي، حضري لنا الشاي، وتعالي نأكل الحلاوة، شربت الشاي عند أختي بسرعة وحرقت لساني.

. طبعاً أنت تغديت، وسررت مع أختك وصديقتها، وجئت تكمل سرورك عندي، وتريد الشاي والحلاوة.

. والله ما سررت.

. قل لي ما قصة هذه الصديقة؟ ولماذا دعتها معك إلى الغداء؟ متزوجة؟ أرملة؟ مطلقة؟ جارتها؟ زميلتها في العمل؟

ـ أم جميل، أرجوك، انسي قصة أختي وصديقتها وجارتها، وهاتي الحلاوة والشاي.

ـ أعرف، دعتك إلى فرخ سمك، تعرفني لا أستطيع قلي السمك، مطبخي صغير، أين أقليه؟ هل أصعد إلى السطح؟ مطبخي اسمه فقط مطبخ، الثلاجة لا يكاد بابها يُفتح، ونافذته تحت السقف، تطل على المهواة، والله كرهت الأكل والطبخ.

ـ انسي شقتنا القديمة، أم جميل، أرجوك انسي، غداً ننتقل إلى الشقة الجديدة، مطبخك طوله خمسة أمتار، احمدي الله واشكريه، أعرفك تقية وورعة.

يتناول قطعة من الحلاوة بالجبن محشوة باللبأ، يقدمها لها بإصبعيه، ويقول لها:

ـ تفضلي أم جميل، والله أنت الكل في الكل، لا أختي ولا أمي ولا الدنيا كلها، أنت وحدك، وما في أحد غيرك، تفضلي، أطعمك بيدي، لا بالشوكة ولا بالسكين.

. مثل ما أطعمتك أختك وصديقتها، قل من هي هذه الصديقة؟

. زميلتها، موظفة معها في البريد.

. ولماذا دعتها معك؟

. حتى تعد طبق السمك بالبطاطا والبندورة والبصل.

. أرجوك، لا تضحك علي.

. هل سنعود إلى الموضوع مرة ثانية؟ قلت لك انسي.

يعم صمت ثقيل.

. أنت تناول الحلاوة والشاي، أنا سأنام.

. لا أقبل، خذي ولو قطعة واحدة.

. أنا لا أحب الحلاوة المحشوة باللبأ، أحبها من غير حشوة ومن غير قطر.

. لا بأس، أنا سأتناول اللبأ، خذي من يدي هذه القطعة، من غير حشوة.
تمسك بالشوكة، وهي تقول:
. ضعها هنا في الصحن، سأتناولها بالشوكة.
. لا، سأطعمك بيدي.
. رائحتها سمك.
ينهض، وهو يقول:
. سأغسل يدي بالصابون المعطر.
تقول له:
. اقعد، لن أتناول غير هذه القطعة.
بعد كثير من التردد تتناول قطعة ثانية، ثم تنهض، وهي تقول:
. اشرب الشاي وحدك، وكُلْ ما تشاء، أنا سأذهب إلى زيارة جارتنا أم قاسم.
يسألها مستنكراً:
. قبل دقيقة قلت أنا سأنام.
ترد ببرود:
. غيرت رأيي، أنا حرة، أفعل ما أريد.
يحمل صحن الحلاوة وإبريق الشاي إلى المطبخ.
يتناول قطعتين من الحلاوة بالجبن، يفرغ ثلاث قطع أخرى من الحشوة، يتناول اللبأ، وهو يقول لها:
. سأتناول أنا كل اللبأ.
. تناول الحلاوة كلها، لم تعجبني الحلاوة هذه المرة، من أين اشتريتها؟
. من محل سلورة، كل مرة أشتريها لك من المحل نفسه، والنوع نفسه، وكل مرة أشتريها باللبأ، أنت اليوم مزاجك متعكر.
ـ لا، أنا اليوم رائقة، ومزاجي مثل العسل، وذاهبة الآن إلى جارتي، أكمل سروري.
. خذي لها معك الحلاوة بالجبن.
. أختك علمتك الكرم.
يصمت، يشرب كأس الشاي وهو ينتقل من محطة فضائية إلى محطة، من غير أن يستقر على أي محطة، يغلق التلفاز، يستلقي على الأريكة، يغمض عينيه.
السيارة تحط به ليلاً في قرية صديقه عليّ، يعرف البيت، يسير نحوه، الأزقة ضيقة متعرجة، حذاؤه يغوص في الطين اللزج، جدران البيوت طينية حمراء، لا أضواء، ثمة شعاع أحمر لا يعرف من أين ينصب على البيوت، ليس شعاعاً، هو وهج حريق بعيد، البيوت تبدو صغيرة قميئة، بل واطئة جداً، من هذا المنعطف بيت

صديقه، بل من هناك، البيوت هنا مبعثرة، لم تكن كذلك، أضاع الطريق إلى بيت صديقه، يلتقي رجلين، يسألهما، يتبعهما ليدلاه على البيت، فوانيس معلقة في الأفق البعيد، كل شيء أحمر مشتعل، يصعد الثلاثة في طريق، يبلغ الثلاثة سوراً من طين لزج، الرجلان يطلان على هوة عميقة، لا بد من القفز إلى الطرف الآخر، وهو بعيد، السور يترجرج، يسقط أحد الرجلين في الهوة، يرجع هو إلى وراء، يسير وحده، البيوت أصبحت مجرد حاويات حديدية كبيرة، مزودة بمولدات كهربائية ومكيفات، يتعلق بأحد المكيفات، يقفز إلى آخر، يتمسك بحافة الحاوية، يسقط بكل ثقله إلى سطح حاوية أخرى، طريق العودة بعيد، يداه ملطختان بالزيت والشحوم، يحس بوجهه ملطخاً، يحس بثيابه ملطخة، الزيت ساخن، الزيت يتغلغل تحت ثيابه، يحس باللزوجة والاشتعال، أسفل منه رجلان، يقولان له: أنت ملوث بالزيت، اقفز، سنستدعي سيارة إسعاف، سنغسل الزيت كله عن جسمك، يحس ببقع الزيت تغطي جسمه، ساخنة، يحك ساعده.

يستيقظ، هو ما يزال على الأريكة، يده تحكه، صدره يحكه، ظهره يحكه، ينهض، يذهب إلى المرآة، يكشف عن صدره، بقع حمراء تملأ صدره.

يتصل بهاتف الجارة أم قاسم، يعتذر إليها، يخبرها أنه يريد الكلام مع زوجته.

تدخل زوجته، ترى صدره وظهره.

. أبو جميل، ما هذا؟ هذه حساسية، بسرعة، الساعة الآن الثامنة، لم يغلق جارنا الدكتور عادل عيادته، لا يغلقها حتى التاسعة، بسرعة.

ينزل مع زوجته إلى عيادة الدكتور عادل، عيادته في الشارع الرئيسي، الموازي للشارع الفرعي الذي تقع فيه شقته، يعطيه حقنة لارفين.

ـ لا تشرب القهوة ولا الشاي، تناول مغلي اليانسون من غير سكر، لا تعرض نفسك للانفعال، ماذا تناولت اليوم؟

. سمك، وحلاوة بالجبن باللبأ.

. هذه أول مرة تصاب فيها بالحساسية؟

. نعم.

ـ الدسم مع السمك، وشيء من الانزعاج والتوتر، مع وجود الاستعداد للحساسية، قد يكون ذلك كله هو السبب، ولكن هل قرصتك حشرة؟

أبو جميل يتذكر، ثم يشير إلى جبينه وهو يقول:

ـ نعم، هنا في جبيني، وأنا خارج من بيت أختي في الكلاسة، مررت بكومة قمامة، ما انتبهت، هاجمتني ذبابات أو نحلات سود، لا أعرف، حشرات غريبة، واحدة علقت هنا في جبيني ولسعتني.

. لا تقلق، هذه بسبب اللسعة، خذ هذه علبة حب سيترين من عندي، تناول الآن حبة، وفي الصباح حبة، لن تحتاج إلى أكثر، بعد نصف ساعة تزول الحكة، وفي الصباح لن يبقى من البقع الحمراء إلا لون وردي خفيف.

الدكتور عادل يرفض أخذ أجر المعاينة، ويرحب به قائلاً:

ـ أنت جاري، أهلاً بك، أنا لا آخذ أجر المعاينة من أي مريض في مثل هذه الحالات العلاجية الطارئة، وعيادتي مفتوحة يوم الجمعة للجميع بالمجان.

يتمدد على الأريكة، مقابل التلفاز، تختار له فضائية فيها أغنيات، تغطيه باللحاف، تلمس قدميه، تجدهما باردتين، كالثلج، تملأ عينيها الدموع، تلمس يديه، هما أيضاً باردتان.

. سامحني أبو جميل، أنا أزعجتك، أنا السبب، لأجلك سأتناول الحلاوة بالجبن كلها، مع اللبأ.

. لا تأكليها، لعل اللبأ قديم، أو فيه جرثومة.

. الطبيب رأى السبب في لسعة الحشرة.

أبو جميل يغمغم:

. صدقت، هذه لسعة أختي، هي الحشرة.

أم جميل تمسح جبينه وهي تقول:

ـ لا يا أبو جميل، أختك هي أختك، ولا يجوز تشبيهها بالحشرة، وما هي السبب، أنا السبب، عاتبتك لتأخرك، سامحني يا أبو جميل.

يرسل زفرة، ثم يتكلم:

. وهناك سبب آخر، سأحكي لك، هو مشهد مؤلم، وأنا طالع من البناية شاهدت جنازة تخرج من جامع النور، تخترق ساحة الأحرار وسط الباعة والعربات والبسطات وتدخل إلى المقبرة العالية المطلة على الساحة، لا يحمل النعش غير أربعة رجال، ولا أحد يمشي وراء الجنازة، قلت لنفسي: إذا أنا مت، فلا أحد سيمشي بجنازتي، ابني مسافر، وبنتي في قطر، وإخوتي كلهم قاطعوني، حتماً، لن يحضروا جنازتي، لا أعرف، بصراحة ياشيرين، أحسست باكتئاب عندما رأيت الجنازة، وقلت في نفسي: سوف أموت ولن يمشي في جنازتي أحد، وسيطر عليَّ هذا الهاجس.

أم جميل تعلق:

ـ لا فرق، إذا مشى في الجنازة ألف، أو ما مشى أحد، الإنسان لا ينفعه غير عمله الصالح، اسمع، حتى أسليك، أنا قرأت مرة قصة للكاتب الإيطالي بيرندلو عنوانها: "جنازة"، وفيها يحكي عن ضابط كبير تُوُفِّيَ ووضع جثمانه في ثلاجة الموتى حتى يتم نقله إلى بلدته ليدفن فيها، وتُوُفِّي مواطن عادي ووضع جثمانه إلى جواره في الثلاجة، وجرت الاستعدادات الكبيرة لنقل جثمان الضابط، وجاء المحافظ وكبار

المسؤولين لاستقبال القطار الذي يحمل جثمان الضابط، وجرى دفنه في احتفال مهيب، ولكن العامل في ثلاجة الموتى كان قد سلمهم جثمان المواطن العادي، في حين جرى دفن جثمان الضابط في مقبرة متواضعة من غير مراسم ولا استقبال.

. قصة ساخرة، وكلامك حلو، ولكن أحسست باكتئاب من رؤية الجنازة.

ـ الله يرحمنا، الموت حق، كلنا سوف نموت، رؤية الجنازة عظة للمؤمن، ما أحلى الموت، هو لقاء الله.

ـ أنت ما شاء الله مؤمنة، إيمانك قوي، أنا أصوم، لكن لا أصلي، لا أنكر الصلاة، هي فرض، لكن أنا لا أصلي.

. ستصلي إن شاء الله، حاول الآن النوم، لا تتعب نفسك.

. شيرين، أنا طوال عمري لن أزور أختي، وإذا مت، أرجوك، لا تخبريها.

ـ لا يا أبو جميل، لا يجوز، هذه أختك، وإذا كان من أجلي، فأنا أقول لك: زيارتها واجب عليك، هي أختك، ويجب زيارتها ومساعدتها، الآن انس كل شيء، حاول النوم، أنا سأغلق التلفزيون، راحتك ضرورية.

هل أحكي لها بالتفصيل عن صديقة أختي السيدة عُلا، هل أحكي لها عن أختي، لا أنسى قولها لي عند الباب: "اسمع مني، ولد واحد لا يكفي، تخيل لو أنه لا سمح الله، وأقول ألف مرة لا سمح الله، لو مات؟ أما إذا كان عندك أربعة أولاد أو خمسة ومات واحد منهم؟ ستكون المصيبة أهون".

يستلقي على الأريكة، أم جميل تمضي إلى المطبخ.

بعد ربع ساعة يصيح:

. أم جميل، كأس ماء، زجاجة في حلقي.

تسرع إليه، تناوله كأس ماء، ينهض، يشرب الكأس كلها، يضحك، يتكلم:

. حلم مزعج .... رأيت نفسي على شاطئ البحر، هناك أسرة وأولاد، على الرمل بجانب موج البحر، صندوق مستطيل، كأنه قبر، كأنه صندوق دفن الموتى، من زجاج، الزجاج مدعوم بأسلاك معدنية، الزجاج سميك، أنا في يدي مطرقة، بدأت أهوي بها على جانبه، أضربه بشدة، الزجاج يتشقق، ولكنه لا ينكسر، الأسلاك فيه متينة، أضربه بالمطرقة أقوى فأقوى، تتطاير شظايا منه أحس بشظية صغيرة في حنجرتي، هل قلت لك: أعطني كأس ماء، زجاجة في حلقي.

ينظر إلى يديه إلى صدره:

. الحمد لله راحت الحكة.

. والبقع ستزول، وغداً تنهض معافى إن شاء الله، وستزور أختك، ما من أجلها، ولكن من أجل جارتها، أو صديقتها، ما رأيك؟ أخطبها لك؟ أو ما رأيك في خطبة جارة

لنا هنا في الحارة؟ غنية أرملة وعندها خمسة أولاد، وعمرها فوق السبعين ووزنها مئة، وكل يوم أراها أمام مطعم السمك؟

ـ يا أم جميل، أنت الكل في الكل، بعدك لن أنظر إلى أي امرأة، ولو كانت ملكة جمال العالم.

المغفرة يارب

قبيل الظهر من اليوم التالي يخرج أبو جميل قاصداً جامع أحمد بن حنبل، بعد شارعين من الشارع الذي تقع فيه شقته، يسير نحوه على مهل، يتوقع مقابلة إمام الجامع وهو ذاهب إليه للصلاة فيه.

يلمح الإمام قادماً نحو الجامع، فيسرع إليه يستوقفه، يلقي عليه السلام، ثم يسأله:

. شيخي، أنا ارتكبت أمس أحد الذنوب، وأسأل الله المغفرة.

ويجيبه الشيخ:

. إحساسك بالذنب دليل إيمانك، استغفر ربك، ولا تفعل ذلك الذنب مرة ثانية.

. ولكنني مرضت.

. هذا تكفير عن ذنبك.

. بصراحة، أنا شككت في امرأة، واتهمتها بفعل قبيح.

. حسبي الله ونعم الوكيل، هل تكلمت عليها، هل حدثت الناس عنها؟

. لأ، اتهمتها بيني وبيني نفسي، فقط.

ـ استغفر الله، ولا تعد إلى إساءة الظن فيها ولا في غيرها لا من الرجال ولا النساء، سيغفر الله لك.

. ماذا أفعل؟

. لا تعد إلى مثلها.

. هل أتصدق ببعض المال؟

. لا بأس.

. هل أصوم ثلاثة أيام؟

. هذا زيادة في الخير.

. هل سيغفر الله لي؟

. إذا أحسنت النية، وصدقت، ولم تعد إلى مثلها، فسوف يغفر الله لك.

. جزاك الله خيراً.

يتركه ويمضي هائماً على وجهه.

ما أزال أحس بعذاب الضمير، هل أحدث زوجتي؟ لمن سوف أبوح؟ هل أزور أختي وأعتذر إليها؟ وهذا الشيخ إمام جامع أحمد بن حنبل قال لي يكفي الاستغفار والإقلاع عن الذنب وعدم العودة إليه.

الحقيقة أنا المذنب، وهذا عقاب من الله، الأمر لا يتعلق بلسعة حشرة ولا بسمك ولا دسم، أنا أعرف، أو بالأحرى الآن عرفت، بل تذكرت.

لدى خروجي من بيت أختي راودتني ظنون وشكوك وأوهام، ولاسيما بعد رؤيتي ابن أختي وقوله عن والده إنه منذ سنة يطيل التغيب عن البيت، وإنه منذ ثلاثة أشهر لم يزرهم، ويرجح ما سمعه عن زواجه، وآلمني كذبها علي، وقولها إن زوجها جاء وأحضر لها ثلاثة أفراخ من السمك، وزن كل فرخ خمسة كيلوات، لماذا الكذب؟ لا أعرف.

ولا شك في أن أختي علمت بزواج زوجها، أو أحست به، فللمرأة في هذا المجال حاسة تاسعة صادقة لا تخيب. هذه أختي إذن تريد أن أضر أنا زوجتي، بأن أتزوج عليها، مثلما أضرها زوجها، بأن تزوج عليها، تريد الشقاء والضرر لكل نساء الأرض، مثلها مثل المجرم يريد لكل الناس أن يكونوا مجرمين مثله، حتى لا يكون شاذاً أو نشازاً، وإذا كان كل الناس مجرمين مثله ارتاح واطمأن، حتى المريض، يرتاح عندما يعلم أن معظم الناس مرضى مثله، ونحن عندما نزور مريضاً بالأنفلونزا أو التهاب المفاصل سرعان ما نحدثه عن كثرة المصابين مثله بالأنفلونزا أو التهاب المفاصل، حتى الطالب الذي يفشل في الامتحان يخبر والديه أن نسبة النجاح كانت ضئيلة جداً وأن أكثر الطلاب فشلوا.

هذا أمر أول.

وأمر آخر: شككت في أختي وشككت في صديقتها عُلا، أستغفر الله العظيم، هي أختي، وشككت فيها. سألت نفسي لماذا هذا الاحتفال الكبير بصديقتها، والسرور بملازمتها لها، بل لماذا هي سعيدة بأن عُلا تمضي عندها يوم الخميس والجمعة والسبت؟! وحدثتني نفسي بأن بينهما علاقة، هي أختي، ولكن شككت فيها، قلت بيني وبين نفسي: أختي أكبر منها بعشر سنين، وهي أكثر نضجاً ووعياً، تمارس عليها التسلط والفوقية، وعُلا لطيفة وناعمة وصغيرة ومهذبة جداً وخجولة.

حتى إنني شككت في علم عُلا بترشيح أختي لها للزواج مني، أو ترشيحي أنا للزواج منها، أنا متأكد أنها لم تصارحها بذلك، ولم تخبرها، علا استقبلتني ببساطة وعفوية ولباقة، من غير تكلف ولا خجل، ومن غير تصَنُّع ولا تردد، لطيفة، بريئة، تتكلم بعفوية، لا شك أنها أخبرتها بأنني مدعو إلى الغداء عندها، ولكن أنا على شبه يقين من أنها لم تحدثها عن موضوع الزواج. وهل يعقل أن تتزوج صبية في الثلاثين من رجل مثلي في الثانية والستين؟ وعنده زوجة؟.

وعدت إلى عُلا، وقلت في نفسي، إذا لم يكن بين علا وأختي علاقة غير الصداقة البريئة، فهل يعقل أن تجازف كل أسبوع بالمرور بالمعبر في عصر الخميس دخولاً وفي صباح الأحد خروجاً وما في الدخول والخروج من تفتيش وتدقيق في بطاقات الهوية، وما قد يكون من سقوط القذائف أو انهمار الرصاص أو القنص؟ وفي كل يوم لا بد من تسجيل إصابة؟ هل يعقل أن تجازف علا بمثل هذه المجازفة لمجرد الصداقة البريئة؟ ولماذا تترك شقتها في شارع إسكندرون وهي شقة كالقصر، كما قالت أختي؟ إذن، هناك علاقة ما بين عُلا وابن أختي صالح، هو شاب طائش.

أستغفر الله العظيم.

لهذا مرضت، اشتعل جسمي بالحساسية.

شفيت من الحساسية الجسدية، وأرجو أن أُشفى من الحساسية النفسية.

والآن أنا أبرِّئ عُلا من كل ظنوني، وأرجو من الله البرء لي والشفاء.

وأسأل الله تعالى أن يهيئ لها زوجاً يفهمها ويقدرها ويحترمها.

المغفرة، يارب.

يقفل راجعاً إلى البيت مطمئن النفس.

على الرصيف، قبل أن يصل إلى البيت، يستوقفه جاره أبو سليم، يقول له:

. الحمد لله على سلامتك يا أبو جميل، لا تكثر من الذهاب إلى المعبر، عندك أحد من الأقارب في الطرف الثاني من حلب؟

أبو جميل يرد مدهوشاً:

. نعم، أختي تسكن في الكلاسة، أمس كنت في زيارتها، لكن من ثلاثة أشهر ما زرتها.

. أنا كنت وراءك في المعبر، بيني وبينك عشرة أمتار، بعد ما عبرت أنت استوقفني الحاجز، وأنا واقف أنتظر التدقيق في الهوية، سمعنا صوت رصاصة قناص، سقط شيخ عجوز، عمره فوق السبعين، لحيته بيضاء طويلة، كان يتوكأ على عصا، ويمشي على مهل.

. وهل أسعفه أحد؟

. أسرع إليه ثلاثة شبان، سحبوه إلى الطرف الآخر، فارق الحياة مع وصول سيارة الإسعاف، الإصابة في القلب مباشرة.

. حسبي الله ونعم الوكيل، يرحمه الله، والحمد على سلامتك.

أبو سليم يضيف:

. نصيحتي لك، لا تذهب إلى المعبر بعد اليوم.

ليلة ماطرة

ليلة مختلفة من ليالي العمر.

أول ليلة ينامان فيها في الدار الجديدة، الرابع من نيسان ٢٠١٣.

للفراش نعومة زغب فرخ عمره أيام، وللغطاء دفء حمامة، تحنو عليه بجناحها وصدرها، تزقه كي يعيش، كي يدفأ، كي يطمئن، كي ينام.

جدران الغرفة وردة متفتحة، والستائر موسيقى هادئة، والزجاج صامت كتوم، لا يذيع الأسرار، ومن ورائه "الأباجورات" المعدنية، تمنحهما عتمة ناعمة، أو نوراً شفيفاً، هي مفاتيح للحرية، كم يمتع أم جميل أن ترفعها، أو تسدلها كما تشاء، كطفلة تتسلى بها.

فنِيَ كليبر وبُعِثَ سليمان واخضوضرت مصر وازدهرت وغمر النيل الصحراء واقتربت عفرين من حلب وصب نهرها في نهرها وخلعت زيتونة أوراقها كلها دفعة واحدة على غير عادتها وتجلببت بأوراق خضر جديدة زاهية وأضاء زيتها ولم تمسسه نار وانتصبت أعناق الزنابق وجرى النسغ من الجذور إلى الجذوع إلى الأغصان فالفروع وانسكب العبير وانتشر الشذى وملأ الأمداء بعطر الحياة، وقرأ أبو جميل في جملة واحدة قصة الحضارة كلها وتاريخ العالم ثم رمى بالأوراق كلها إلى موقد من ماء.

وثار بركان في الكون جديد وتدفقت حممه وصهاراته وانصبت في محيط آخر جديد ما عرفته من قبل خرائط العالم وولدت جزيرة جديدة، ومن غير تردد أسميا البحر جميل وكان شيرين اسم الجزيرة.

وفي الخارج تراكمت الغيوم والسحابات، سحابات بيض رقيقة شفافة وغيوم سود داكنة، دخل في خلالها البدر الأبيض يرسل أنواره فتمتصها غيوم وتشف عنها سحب، وتداخل الغيم في خلال السحب واختلطت الغمامات بالسحب وامتزج الكل في الكل وقدح البرق فأومض في الكون شعاع وتدفق المطر الغزير دفعات دفعات فاهتزت الأرض ومادت وارتوت وكأنها قط لم تذق طعم المطر، ثم أطل البدر من خلال السحب على الأرض المرتوية فتألق نوره وازداد بهاء.

مع إشعاعات الفجر الأولى فتح أبو جميل النوافذ وتنسم الهواء البارد، أسرعت إليه شيرين لفت كتفيه بشالها الصوفي الدافئ العاطر، وقد أبى إلا أن يخرج إلى الشرفة ليرى حديقة السبيل مغسولة بالمطر، ويصغي إلى زقزقات العصافير مع شمس الصباح.

وما إن وضع قدمه في الشرفة حتى ملأ الآفاق صوت صارخ يصيح:

. ارجع إلى الداخل، لا أحد يخرج إلى البلكون في هذا الوقت، لا تمدوا رؤوسكم من النوافذ.

أبو جميل يذعر، يرجع إلى الوراء، يسترق البصر، يرى جنوداً منتشرين بأسلحتهم عند تقاطع شارع النيل مع شارع تشرين، عند كل زاوية ثلاثة جنود، يفتشون السيارات، وقد نصبت حواجز حجرية.

أم جميل تشده إلى الداخل، تلومه، تقول له:

. قلت لك لا تخرج إلى الشرفة.

يعلق:

. والله انقطعت أنفاسي.

. لا ضرورة للخوف.

. ما خفت، ولكن فوجئت، راح كل السرور الذي عشناه.

. لأ، ما راح أي شيء، وإذا راح يمكن تجديده.

كانت أم جميل قد هيأت حمام الصباح ورشت العطر حتى على الجدران وملأت الحوض، لا بد من الماء الحار أولاً ثم الساخن ثم الدافئ، وخرج يرتدي البرنس الأبيض يلف به جسمه.

وفي غرفة الجلوس كان فنجان الزهورات المحلى بالعسل والزعتر يفوح بشذى الحياة.

أخذ منه رشفة، ثم همس:

. الحمد لله، هذا من فضل الله، ومن تعب ولدنا جميل، ومن جميل صبرك يا أم جميل، يازوجتي الحنون، يا شيرين.

ولم تلبث أن سألته:

. ماذا تشم الآن؟

أجابها على الفور:

. رائحة السمن العربي.

وتوجها إلى غرفة الطعام ويداهما معتنقتان، ففوجئ بمائدة فيها طبق المأمونية وعلى وجهه السمن العربي والعسل وإلى جانب المأمونية صحن الجبنة المشلّلة.

ـ تفضل تذوق، واحكم، أهذه أشهى أم المأمونية التي تناولناها في محل الطرابيشي؟

وعلى الفور أجابها وهو يطوق خصرها:

. بالتأكيد، مأمونية شيرين هي المأمونية الحق.

وهما يتناولان المأمونية مع الجبن المشلل قال لها:

. ما رأيك في دعوة إخوتي وإخوتك بمناسبة شرائنا الشقة؟ لن أتعبك في صنع الطعام، أُوصِي على اللحم بالعجين أو على الرز والفريكة وفوقها خروف محشي.

. الحقيقة، لا أحد من إخوتي أو إخوتك يستحق مثل هذه الدعوة.

. لا يجوز ياشيرين، المسامح كريم، والدم لا يصير ماء، وفي النهاية هم إخوتك وإخوتي.

شيرين تصمت، تتردد، ثم تتكلم:

. أقترح تأجيل الدعوة إلى وصول ابننا الدكتور جميل، وأنا اشتقت إلى هيفين، ما رأيك في دعوتها لزيارتنا؟.

. اتركيها مع زوجها وأولادها في قطر، الله يسعدها ويبعدها.

. والله أنا اشتقت إليها.

. ما عاد للشوق معنى في هذا العصر، عندك الهاتف الجوال، والشبكة، كلميها كل يوم على الشبكة بالمسنجير وشاهديها على السكايبي.

. وهي اشتاقت إلى والدها ووالدتها، اشتاقت إلى حلب وإلى عفرين.

. هذا كله حكي، ما فائدة الشوق، هناك هي مع زوجها وولديها الاثنين، سعيدة ومرتاحة، لا تعكري عليها حياتها، راتبها في الشهر بقدر راتبها هنا في سنة، انظري، أنت وأنا طول ثلاثين سنة من الوظيفة ما قدرنا على شراء شقة، أرجوك، وضحي لي ما معنى الوطن؟ ما معنى الشوق؟ ما معنى الحنين؟.

. لأ، هذا الكلام غير صحيح، أنت اليوم مزاجك معكر.

ـ لا، والله، مزاجي رائق، وسأقول لك: الشوق هو تذكر شيء في الماضي، وعملية التذكر عملية سهلة، ومريحة، ولذلك يحن الإنسان إلى الماضي، وهذا هرب.

أم جميل تضحك، تعلق ساخرة:

. أنتم الرجال قلوبكم قاسية.

يعلق ساخراً وهو ينهض عن المائدة:

. كلامك صحيح، لولا قلبي القاسي ما تزوجتك.

بعد تناول المأمونية أصر أبو جميل على احتساء القهوة في الشرفة على الرغم من البرد، وعلى الرغم من تحذير الجند.

قال لها:

ـ انظري، هناك أناس في الحديقة، لا برد، وهذه الشمس تطل علينا من بين الغيوم.

. والتحذير من الخروج أو مد الرأس من النوافذ.

رد وهو يضحك، مطمئنا، ومصمماً على الخروج إلى الشرفة:

. هذا التحذير خاص بالليل، لا بالنهار.

وهما في الشرفة، يحتسيان القهوة، قُرِعَ الباب.

ذعر أبو جميل، حمل فنجان القهوة، ومضى إلى الداخل.

قالت له أم جميل:

. حذرتك، ما أخذت بكلامي، من غير المناسب مخالفة الأوامر، ونضطر بعد ذلك إلى تلقي اللوم.

علق:

. أنا سأفتح الباب، سأواجههم، أنا لم أفعل أي شيء، وهم حذروا من الإطلالة على الشارع في الليل، لا في النهار، وحديقة السبيل ملآنة بالناس، ابتعدي أنت، أنا سأكلمهم.

يفتح الباب، وإذا هو أمام رجل نحيل طويل، وإلى جانبه زوجته، قصيرة قليلاً موفورة الصحة، تحمل باقة زهر.

الرجل يحمل ما يبدو لوحة جدارية كبيرة ملفوفة بورق الجرائد.

الرجل يتكلم:

. أنا جارك أبو وائل، وهذه زوجتي، نودُّ زيارتكم، لنبارك لكم بالسكن في الشقة، ونعتذر لحضورنا من غير موعد، ولكن فرحنا بكم يشفع لنا.

تحتويهم غرفة الضيوف، أم جميل تقدم لهم القهوة.

أم جميل تشكر لجارتها أم وائل باقة الزهر.

أبو جميل يفض ورق الجرائد عن اللوحة، يحملها بين يديه، يعلق:

. أوه لوحة جميلة، لوحة كانافاه رائعة، أنا أحب المناظر الطبيعية، بيت ريفي، أمامه نهر صغير، فوقه جسر، وثمة غنمات ترعى.

ويلتفت إلى زوجته، ويعلق:

. هذا نهر عفرين.

الزوجة تشكر للزوجين اللوحة وتضيف:

. لوحة جميلة، مشغولة بالكانافاه، باليد، وراءها جهد كبير، وتدل على ذوق، هل هي من شغلك أختي أم وائل؟

أم وائل تعلق:

. لا، ليتني أستطيع شغل الكانافاه، تحتاج إلى صبر.

أبو جميل يضيف:
. شكراً أخي أبو وائل، سنعلقها في غرفة الضيوف، ولكن ليس عندي مثقب.
أبو وائل يتكلم:
. أنا عندي مثقب، سأعيرك إياه، وسوف أساعدك على تعليقها.
أم وائل تتدخل:
. لا تستعجلوا بتعليقها، انتظروا، قريباً ستصلكم لوحة ثانية.
أم جميل تسأل مدهوشة:
. ممن؟
أم وائل تتكلم:
ـ بصراحة، جارتنا، أم صلاح، في الدور الأرضي، تشتغل في صنع هذه اللوحات، وتبيعها، وبعد يومين أو ثلاثة ستزوركم، لتهديكم لوحة، أنا اشتريت هذه اللوحة منها.

أبو وائل يدعو جاره أبو جميل وزوجته إلى تناول الغداء في اليوم التالي، أبو جميل وزوجته يقبلان الدعوة، ويشكران لهما زيارتهما.

طاب له العيش في الشقة الجديدة.

خمس غرف واسعة، وبهو واسع، وحمام.

الفرش كله جديد، في داخل غرفة نومه حمام خاصة، كأنها غرفة في فندق ذي نجوم لا عدّ لها، الجلوس في الشرفة مع الفجر ينعش الفؤاد، وعند المغيب يسلي، شارع النيل يمتد أمامه مثل حوض ماء رقيق شفاف تتهادى فيه الأسماك الملونة.

كل الأثاث اشتراه جديداً، لم ينقل أي شيء من الدار القديمة، سوى الألبسة وبعض الأشياء الشخصية، اشترى غرفة نوم وغرفة جلوس وغرفة ضيوف وغرفة طعام، اشترى أدوات مطبخ كلها جديدة، اشترى غسالة وثلاجة ومجمدة وجلاية صحون وموقد غاز وفرناً كهربائياً، اشترى ثلاثة مكيفات، لغرفة الجلوس ولغرفة النوم ولغرفة الضيوف، ومدفأتين كهربائيتين.

في أقل من عشرين يوماً أتمّ وزوجته تأثيث الشقة، من يوم الفراغة واستلام مفتاح الشقة في ١٤ آذار حتى نومهما أول ليلة في ٤ نيسان، اشتريا كل شيء، في كل يوم يشتريان أشياء جديدة، يستمتعان بالنزول إلى السوق والشراء.

حقيقة، إذا وجد المال استطعت فعل كل شيء، بل أنساك كل شيء. حتى في يوم ٢١ آذار عيد النيروز لم تسافر شيرين إلى عفرين، من عادتها أن تسافر كل عام إلى عفرين، لا بد من تمضية أيام العيد في عفرين مع أخيها وأقاربها، وإن كانت في الحقيقة تشعر بالمضض من أخيها، ولكنه العيد، لا بد من لقاء الجيران القدامى والأقارب ولو البعيدين ولا بد من إحياء هذا العيد القومي والشعبي.

تأثيث الشقة الجديدة ملأ حياتهما.

أم جميل تلح على زوجها كي يشتري غرفة نوم لابنها جميل كغرف نوم الزوجين، ولكنه يصر على شراء سرير وخزانة وسجادة للأرض وشاشة تلفزيون ومنضدة وثلاثة كراسي.

يقول لها:

. هي غرفة مكتب لجميل، في المستقبل، سيختار هو وخطيبته غرفة النوم.

ويصمت ثم يهمس:

. والأفضل رجوعنا أنا وأنت إلى دارنا الصغيرة في منطقة الملعب البلدي، من الصعب عيش الكنة مع حماتها.

ـ لكن أنا لست مثل باقي الحموات، كيف عشت أنا مع أمك، يرحمها الله.

ـ من حيث المبدأ، كلّ كنة تريد عيش حياتها مستقلة، بيت المرأة هو قصرها وهي ملكته، ولا تريد لأي امرأة أخرى منافستها فيه.

. ولكن أنا...

يقاطعها:

ـ أرجو تأجيل الكلام على هذا الموضوع، حين يرجع ابننا سيكون لنا حديث مختلف، ما بقي على رجوعه غير ثلاثة أسابيع أو أقل، عند وصوله نقرر، وسيكون له رأيه.

جاره أبو وائل يسليه، ينزلان معاً إلى السوق، يقصدان سوق الخالدية مشياً على الأقدام، وهو منهما قريب، يقع في منتصف شارع النيل، هو معرض للخضروات والفاكهة، الخضروات فيه من خيار وسلق وسبانخ وبقدونس مغسولة ومفرومة، وجاهزة للطبخ مباشرة، الكوسا والباذنجان والقرع كلها محفورة، والبطاطا مقشرة ومقطَّعة، حتى الثوم، فصوصه مقشرة، هو السوق الذي يرتاده الأغنياء من سكان حي الشهباء، الحي الحديث في حلب، والحي الأرقى، يقصدون السوق بسياراتهم، ولا تكاد السيدة تنزل من سيارتها، بل إنها لتشير بيدها إلى البائع، تطلب منه حاجاتها، وهو ينتقي لها أفضل الأنواع، ويضعه في صندوق السيارة، وتدفع له حتى من غير أن تنزل من السيارة في كثير من الحالات.

مع ذلك، في أعلى السوق محلات أخرى تبيع السلع نفسها بأسعار أرخص، فهي تبيع الخضار غير معدة للطبخ، وربما تبيع اصنافاً من نوع أقل قيمة، وبسعر أرخص.

أبو جميل وأبو وائل يسيران على طول شارع النيل، يتسليان بالفرجة على ما تعرضه المحلات على جانبي الطريق، وفي سوق الخالدية الصاعد يتفرجان على الخضروات الجاهزة والفواكه، ويستعرضان الأسعار، يستمتعان بمرأى الموز والتفاح والبرتقال، وقد صُفَّ كل نوع على حدة على شكل أهرامات صغيرة، أو عرضت في صناديق عرضاً أنيقاً، أبو جميل يقول لأبو وائل: "هذه للفرجة لا للشراء"، أبو وائل يقول: "أفكر في الوقوف إلى جوارها والتقاط صورة، ما رأيك؟". ثم يرجعان وقد اشتريا حاجاتهما من المحلات ذات الأسعار المقبولة في أعلى السوق، يرجعان بالحافلة، أبو وائل يبادر ليدفع عن أبو جميل ثمن التذكرة، وأحياناً يسبقه أبو جميل، ثمن التذكرة سخيف لا يكاد يذكر، عشر ليرات، وأحياناً يرجعان في سيارة أجرة، تكون الأجرة

سبعين ليرة، أو ستين، ولكن لم تلبث أن قفزت إلى المئة، أحياناً يدفعها هذا، وأحياناً ذاك.

في بعض الأحيان ينزلان معاً بالحافلة إلى وسط المدينة، يتجهان إلى جوار مشفى الرازي، أو إلى الجميلية، هناك باعة أكثر، والأسعار أرخص، أصبحت المنطقة لبيع الخضار والفواكه وللبسطات بدلاً من باب جنين، كل شيء يتغير، ويرجعان بسيارة الأجرة، تكون الأجرة مئة ليرة أو خمسين ليرة أو أكثر.

بسرعة نمت الصداقة بين أبو جميل وأبو وائل، كل منهما كأنه يعرف صاحبه منذ عشرين عاماً.

أم جميل تقول لأبو جميل:

. لاحظت يا أبو جميل نمو العلاقة بينك وبين أبو وائل بسرعة، في يومين أو ثلاثة صرت أنت وهو من أعز الأصدقاء.

أبو جميل يقول لزوجته:

ـ الحقيقة، أبو وائل نعم الصديق، منذ عشر سنين لم يبق لي أي صديق، لا أعرف السبب، هم انفضُّوا عني، أو أنا انفضضت عنهم، كم كنا نسهر ونلتقي، ولكن منذ عشر سنين أو أكثر ما عاد أحدنا يسأل عن الآخر، حتى ولا بالهاتف.

ويصمت ثم يضيف:

ـ وتذكَّري معي، خمس سنين سكنا في منطقة الملعب البلدي ما استطعت التعرف فيها على جار، غير جارنا أبو سليم، هو الذي تعرف علي، زارني عدة مرات، وأنا طول خمس سنين ما زرته ولا مرة، والحقيقة، عندما يتقدم الرجل في العمر، يصبح مثل الطفل الصغير، بسرعة يستطيع تكوين صداقات مع المتقدمين في العمر مثله.

وتعلق أم جميل:

. وأنا مثلك يا أبو جميل، ولكن الأمر لا علاقة له بالعمر، بسرعة أصبحت أم وائل مثل أختي.

وتصمت ثم تضيف:

. لا أعرف لماذا الحياة تغيرت، حتى نحن الزميلات في المدرسة ما بين الواحدة والأخرى غير تحية الصباح، حتى إخوتي ما عاد أحدهم يسأل عني، كان أخي رودي يرسل لي كل سنة تنكتين من الزيت، من خمس سنين ما أرسل لي ولا تنكة، حقيقة هو أعطاني ثمن حصتي من شجرات الزيتون، ولكن هو حدد السعر الذي يريد.

ويضيف أبو جميل:

. أنا عاداني إخوتي كلهم، ولا أحد يزورني ولا أحد يسأل، نهائياً، ما عدا أختي رجاء، وياليتها لا تسأل ولا تزور.

وتضيف أم جميل:

. والحقيقة، كما قلت، أم وائل هي أخت لي، بل أفضل من أخت، وما توقعت نشوء صداقة بيننا ونحن في هذا العمر، وبهذه السرعة.

. رجعت إلى موضوع العمر، أنت وأنا وأبو وائل وأم وائل كلنا في عمر واحد، أو على الأقل من جيل واحد، ونحن وهم، لا ولد عندنا، ولا مشكلة، ولذلك، من الطبيعي سرعة التفاهم والتآلف.

أم جميل ترد:

. لأ يا أبو جميل، أنا من جيل آخر، أنا أصغر منك بخمس سنين، وأنا لا تنس طالبتك.

يضحك، يعلق:

ـ ولكن أعطيتك من عمري عشر سنين، فصرتِ أنت أكبر مني، وصرت أنا أصغر منك.

وذات يوم قال أبو جميل لجاره:

. ما رأيك في التعرف على جارنا الذي يسكن فوق شقتي؟

رد أبو وائل:

ـ هو رجل يعيش وحده، ولا يحب مخالطة الجيران، وعنيد، ومن الصعب معاشرته، له حياته الخاصة، والأفضل ألا تتعرف عليه.

ويسأل أبو جميل:

. وماذا يعمل؟

ـ والله لا أعرف، على الأغلب هو متقاعد، عمره فوق السبعين، مرة قال لي الحلاق: هو غني عنده دور مؤجرة يعيش من أجرتها، ولكن صاحب السوبر ماركت قال لي عنه شغل منصب وزير مرة، ولكن لا يعرف أي وزارة، ربما منصب وزير مفوض بلا حقيبة، على كل حال الرجل يعيش في عزلة.

ويسأل أبو جميل:

. والجار الذي تحت شقتك؟

ـ رجل طيب، عنده ثمانية أولاد، عامل في محلجة الرصافة بالليرمون، وعنده سيارة تكسي يعمل عليها بعد انتهاء الدوام، لا نكاد نراه، هو الآخر لا يحب العلاقة مع الجيران.

أم جميل انتقلت إلى مدرسة النيل في منتصف شارع النيل، قريبة جداً من سوق الخالدية، بدأت تأخذ بالشراء بدلاً من أبو جميل.

في كل ليلة لا بد من اجتماع الأسرتين، في دار أبو وائل أو في دار أبو جميل.

أبو جميل وأبو وائل في الشرفة يلعبان الدومينو، وأم وائل مع جارتها تتبادلان الأحاديث عن الحياة والعمل والطعام، وهما تتابعان مسلسلاً في غرفة الجلوس وتعلقان عليه.

أبو وائل وزوجته من ترشيحا، هي ابنة عمه، أبو وائل يحكي لأبو جميل:

ـ أنا من مواليد غزة عام ١٩٤٢، هاجر والدي عام النكبة إلى بيروت وعمري ست سنوات، عمل أبي في التخليص الجمركي بمرفأ بيروت، أبي مجاز في الحقوق، كنا أربعة إخوة وثلاث أخوات، أنا آخر العنقود، أخي الكبير طبيب، هو الآن في أمريكا، والثاني مهندس، ما يزال في بيروت، والثالث تطوع في منظمة التحرير واستشهد في ترشيحا، استشهد مع زوج أختي، أختي الآن مع أولادها في دمشق، أنا تخرجت في قسم اللغة الإنكليزية بالجامعة العربية ببيروت، عام ١٩٦٨، وعملت مدرساً في منظمة الأونروا بمخيم النيرب بحلب، وتقاعدت عام ٢٠٠٥، منذ ثماني سنين، واشتريت هذه الشقة، لم تسألني لماذا جئت إلى حلب؟

. تفضل، أسألك.

ـ أبي يرحمه الله نصح لي بالزواج من ابنة عمي، قال لي: يا بني، عمك محاسب في بنك بحلب، وعنده بنت تعمل معه في البنك، أنصحك بالزواج منها، أنا أعرف حلب، وأعرف مخيم النيرب، حلب هادئة، والحياة فيها رخيصة وسهلة، ويمكنك براتبك وراتبها شراء بيت والعيش في حلب، بيروت يا بني غالية.

ثم يحدثه عن ولدين له، الأول عصام والثاني وائل، عصام استشهد عام ١٩٨٣ في حصار بيروت، كان في منظمة فتح، ووائل يتخصص الآن في جراحة القلب، هو في نيوجرسي عند عمه، بأمريكا.

أم وائل تحكي لأم جميل عن قصة حياتها:

. جاء ابن عمي من بيروت عام ١٩٧٠، وهو شاب متخرج في بيروت في قسم اللغة الإنكليزية، ومثقف، ومن أجلي طلب تعيينه في مخيم النيرب، وخطبني من أبي، بعد خمس سنين من زواجنا توفي أبي، حمدت ربي أني تزوجت، عندي ثلاثة إخوة، أحدهم ممثل منظمة فتح في موسكو، والثاني ضابط في جيش التحرير الفلسطيني في دمشق، والثالث استشهد في حرب ١٩٧٣، هو أكبر إخوتي، وعندي أخت واحدة مدرسة، وأنا عملت موظفة في البنك الذي كان والدي يعمل فيه.

سعدت كل من الأسرتين بالسهرات المشتركة، وحسن الجوار، ووجد كل من الزوجين والزوجتين فرصة للسهر والأحاديث والتعارف.

وحكت أم جميل لجارتها أم وائل عن حياتها.

ـ عشت في حي الفرافرة مع عمي وحماتي وثلاثة من إخوة زوجي وزوجاتهم، عشت معهم حوالي عشرين سنة، بالضبط سبع عشرة سنة، من زواجنا عام ١٩٧٥

إلى وفاة عمي رحمه الله عام ١٩٩٣ ، كنا نعيش في دار واسعة، فيها أكثر من ثلاث عشرة غرفة، ثماني غرف في الدور الأرضي، وخمس غرف في الدور الثاني، كانت تسمى مربعات، لا أعرف لماذا سميت مربعات، لم تكن مربعة الشكل، كانت على الأغلب مستطيلة، نحن في عفرين نسميها علِّيَّة، ربما سُمِّيَت الواحدة منها مربعة لأنها تتربع في الأعلى، كانت أسقفها خشبية، من جذوع أشجار الحور، كنت أحبها، فهي دافئة في الشتاء، وباردة في الصيف، زوجي أصغر إخوته، ولذلك كنتُ الكنة الأخيرة، وكانت لي غرفتي في الدور الثاني، كان لي المربع، وكنت أطل على فِناء الدار، حيث البركة المستطيلة، ربما طولها ستة أمتار وعرضها أربعة، تحت مربعي تماماً مصطبة بارتفاع متر، تدور فيها سهرات الصيف، تظلِّلها عريشة الكرمة، وتظلل البركة شجرة توت كبيرة، كنا في الصيف أنا وسلفاتي نتراشق بالماء، ونتمازح، ولكن كنا نتخاصم ونختلف، المطبخ واحد مشترك، نأكل جميعاً على المصطبة، عمي الله يرحمه كان يحبني كثيراً، حماتي ما كانت تحبني، الله يرحمها، أبو جميل تزوجني عن حب.

وتسألها أم وائل:

. عن حب؟

. نعم عن حب، عمل زوجي في التدريس لمادة التاريخ في عفرين، كنت طالبته في الثالث الثانوي، وأنا كنت معجبة به، أسمر، حلو، رشيق، دمه خفيف، كان يعاملنا باحترام، ويشاركنا في عيد النيروز، بعض الأساتذة كانوا يسخرون من لهجتنا، ما كانوا يسخرون، في الحقيقة كانوا يعلِّقون تعليقات خفيفة، ونحن كنا نتحسس، ما عدا الأستاذ عبد المجيد، أي زوجي أبو جميل، حتى صوته، كان لصوته خصوصية، كأنه يغرد، حين ينطق الدال أو الطاء أو الجيم أو الضاد، أحببت مادة التاريخ، كنت من قبل أكرهها، وأحببت اللغة العربية، لا أنسى أنه قال ذات مرة: "من حق كل شعب أن يحتفظ بثقافته وهويته وأن يفتخر بها"، اعتبرت كلامه دفاعاً عن الأكراد، كنا نحن في مراحل سابقة نمنع من ممارسة أعيادنا، وخاصة عيد النيروز...

تقاطعها أم وائل سائلة:

. احكي لي عن حبك، كيف كان الحب بينكما؟

أم جميل، تضحك، وتتكلم بفخر:

. بصراحة، أنا أوقعته في حبي، كنت أرفع يدي دائماً لأجيب عن أسئلته، وحين يقول لي أجيبي أنت، أعاتبه، وأقول له: "لماذا لا تناديني باسمي؟، هل نسيت اسمي؟، أنا شيرين"، ومرة قلت له: "هل تعرف معنى شيرين؟"، قال: "لأ"، قلت له: "سكر، حلو، قطر، لا تنس اسمي"، ونلت الشهادة الثانوية، ولأجله هو دخلت إلى قسم اللغة العربية، وأخذ يكتب لي القصائد، كانت عنده موهبة شعرية، ما أزال أحتفظ بقصائده

في صندوق عندي، أهدتني إياه جدتي يوم زفافي، سأطلعك عليها، أنا الحقيقة ورَّطْته، ذات يوم وضعت له في الدفتر صورتي، كان يكلفنا بوظائف نلخص فيها دروس التاريخ، ما فعل أحد من الأساتذة مثله من قبل، وكان يصحح لنا الدفاتر بإخلاص، تزوجني وأنا ما أزال طالبة في السنة الثانية، وكان يشجعني على الدراسة.

تعلق أم وائل:

. آه ياعفريتة، وكيف رضي أهلك بزواجك منه.

. أنت اسألي كيف رضيت أمه بزواجه مني، كل المشكلة أني لم أنجب له غير جميل، أنجبت جميل بعد سنة من زواجنا عام ١٩٧٦، لم أتأخر في الحمل، وأنجبت هيفين عام ١٩٧٨، وبعدها حملت مرتين وأجهضت، واضطررت بعدها إلى استئصال الرحم، شك الأطباء بوجود ورم خبيث، ونصحوا لي باستئصال الرحم، وشاورت زوجي فوافق، قال يكفينا جميل وهيفين، كل إخوته يكرهونني، قاطعوه، وتخلَّوا عنه، كنتُ أُكرِم أخته الوحيدة رجاء، وأعلّمها وهي صغيرة، وأساعدها على الدراسة، حتى الآن تكرهني، أكثر من إخوته، لا أظن لأنني كردية، ربما لأنه تزوجني عن حب، وربما لأني المثقفة الوحيدة في أسرته، وموظفة، أمه كانت تريد تزويجه من بنت أختها، على ما أظن، ماذا أحكي لك، لكن هذا كله لا يهمني، يكفي حبه لي، يقول المثل: "ما دام القمر معي أعد النجوم بإصبعي"، نحن عشنا عمرنا أجمل عمر، حتى حياتنا في الفرافرة في دار عمي الكبيرة لا أنساها، كانت من أجمل الأيام، ولا أنسى تلك الدار، عشنا فيها سبع عشرة سنة، شيء لا يصدق، كيف يمر العمر بسرعة، ابني جميل نال فيها الشهادة الثانوية بتفوق، وقُبِل في كلية الطب، عشنا بعدها في حي الجابرية، بعد سنة مررنا بدار الفرافرة أنا وزوجي، دخلنا نتفرج عليها، حوَّلها أخوه الكبير إلى مستودع للدواليب والعجلات، قطع شجرة التوت، وفوق الليوان كان هناك رفراف خشبي مزخرف يظلِّل الليوان، قلعه، باعه، وقلع كل ما كان على الجدران من ألواح خشبية كانت مزخرفة بآيات قرآنية، حتى أبواب الخزائن قلعها وباعها، وحول البركة كان أربعة تماثيل صغيرة من نحاس أصفر لبطات يقفز الماء من فمها، قلعها وباعها، كلها تحف فنية رائعة، وملأ البركة والدار كلها بالعجلات والدواليب الجديدة والقديمة المستعملة.

وتتكلم أم وائل مدهوشة:

. ولكن هذه آثار ممنوع بيعها؟

وترد أم جميل:

ـ أخوه تاجر، وعلاقاته واسعة، ويستطيع تدبير أموره، المال للأسف يحل كل المشكلات.

وأبو جميل يحكي قصته لجاره أبو وائل:

. والدي . الله يرحمه . كان يحب زوجتي، ويدافع عنها، كان يعاملها كأنها ابنته، كانت فرحته كبيرة عندما أنجبت ابني جميل، وبعده بسنتين أنجبت هيفين، لكن أمي، الله يسامحها ويرحمها، كانت تكره زوجتي، بعد وفاة أبي أعطاني أخي الكبير ثمن حصتي من الدار، اشترى من كل إخوتي ثمن حصصهم، واستولى على الدار، طبعاً ما دفع الثمن الحقيقي، دفع الثمن الذي قدره دلال عقارات دفع له رشوة، الحقيقة الدار مسجلة في مديرية الآثار والمتاحف، ولا يجوز إدخال أي تغيير عليها، لأنها واقعة داخل المدينة القديمة، وهي تحفة معمارية، ولو كانت واقعة على الشارع الرئيسي كانت بيعت بعشرة أضعاف ثمنها، وكان من الممكن هدمها ورفع بناء في موضعها من أربعة أدوار، وبناء أكثر من عشر شقق، عدا المحلات التجارية، على كل حال، بثمن حصتي، وأظنه كان خمسة آلاف ليرة، استرهنت شقة في حي الجابرية القريب من حي ميسلون، هذا عام ١٩٩٣، هي شقة تحت الأرض لا ترى الشمس ولا يدخلها الهواء، كنت أدفع راتب زوجتي أجرة الدار، وراتبي لا يكاد يكفيني للعيش، أنا عملت في مكتبة لبيع الكتب والدفاتر والأقلام، وزوجتي كانت تعطي الدروس الخاصة، طبعاً مادة التاريخ، المادة التي أدرسها، لا تحتاج إلى دورات ولا دروس خاصة، بقينا في دار الجابرية خمس سنين، عانينا فيها أشد المعاناة من الجيران، في العمارة أكثر من ثلاثين شقة، خمسة أدوار، في كل دور ثلاث شقق في الجهة الأمامية من العمارة مطلة على الشارع، وثلاث شقق في كل دور في الجهة الخلفية من العمارة، مطلة على عمارات أخرى، وفوق الدور الأخير شقتان، وفي القبو شقتان، كثافة سكانية غير متوقعة، والعفونة أكلت صدرنا، فيها درس ابني الطب، وتخرج وكان الأول على دورته، وفي السنة التالية عام ١٩٩٩ استأجرت غرفتين صغيرتين في حي الحميدية في دار واسعة تضم عشر غرف، بمنطقة السيد علي، ذكرتني بدار والدي في الفرافرة، وعشنا فيها سنتين ونصف، مع ثلاث أسر تستأجر باقي الغرف، كانت غرفة للنوم والمعيشة، وغرفة هي المطبخ والحمام، طبعاً لا أحد من إخوتي كان يسأل عني، حتى أخي أبو حسين، هو تاجر دواليب السيارات، ما كان يسأل عني، ونسيت أروي لك، ابني جميل راسل أمريكا وحصل على منحة للدراسة والتخصص، وسافر في نفس سنة التخرج، وفي عام ٢٠٠٠ تخرجت هيفين، وبقيت ثلاث سنين من غير عمل، لا مسابقة للمدرسات، ولا وظيفة، قابلتْ أحد المسؤولين، قال لها: الدولة غير مكلفة بتوظيف كل المتخرجين في الجامعات، نحن نفتح الفرص للدراسة، ونمنح الشهادات، نعد الكفاءات، يمكن العمل في الأقطار العربية، الوطن العربي واحد، في عام ٢٠٠٤ خطبها شاب مهندس من حلب يعمل في قطر، وفي السنة نفسها تزوجت وسافرت معه، نحن كنا في عام ٢٠٠١ انتقلنا إلى دار صغيرة مستأجرة في حي

الإسماعيلية، بقينا في الإسماعيلة بجوار ثانوية المأمون أربع سنين، أو خمس سنين تقريباً، كانت الشقة مثل الشقة في الجابرية، هي قبو، تنزل إليها بعشرين درجة.

. ما استطعت أنت وزوجتك ادِّخار ثمن دار؟ ما حاولت الاقتراض من المصرف العقاري؟!

أبو جميل يتنهد، يرسل زفرة طويلة، ثم يتكلم:

. في عام ١٩٨٠ ، بعد زواجي بخمس سنين، اشتركت في جمعية سكنية، كنت أدفع كل شهر ألف ليرة، بالإضافة إلى الدفعة الأولى للاشتراك، وكانت عشرين ألف ليرة، وكل سنة أو سنتين ندفع عشرين ألف ليرة، في عام ١٩٩٠ بعد حوالي عشر سنين، بلغ ما دفعته حوالي مئة وخمسين ألف ليرة، وفوجئنا بهرب رئيس الجمعية بأموال الجمعية كلها إلى خارج سورية.

. وأعضاء الجمعية، وأعضاء مجلس الإدارة؟

. رفعنا دعوى قضائية، وحتى الآن لم نحصل على شيء، رئيس الجمعية باع كل ما يملك قبل هربه، لا فائدة.

وتدخل عليهما أم وائل تحمل لهما القهوة في الشرفة، وهما يلعبان الدومينو.

ويتابع أبو جميل كلامه:

ـ عزائي الوحيد هو زوجتي، حياتي معها أنستني تعب الحياة كلها، ثم كانت سعادتنا أنا وهي في جميل، ذكي ومتفوق، تخصص في الجراحة العظمية في ميتشيغان، ونال البورد الأمريكي عام ٢٠٠٤، زارنا لمدة شهر، وشاهد أخته قبل زواجها وسفرها إلى قطر، ثم سافر إلى المملكة السعودية للعمل في مستشفى حكومي بجدة، في هذه الزيارة أعطاني مليون ليرة، ادخرها من عمله الخاص في السنة الأخيرة من التخصص في أحد المستشفيات، اشتريت بها عام ٢٠٠٥ شقة قديمة صغيرة في منطقة الملعب البلدي، شقة في الدور الأرضي، فيها ثلاث غرف، هي في الحقيقة مجرد غرفتين، غرفة واحدة مستقلة، وغرفة ثانية مفتوحة على غرفة أصغر، مساحتها كلها مع الحمام لا تزيد عن مساحة غرفة من غرف هذه الشقة، وما كان للشقة شرفة، لها نافذة عريضة واطئة تطل على الشارع، وهو شارع فرعي ضيق، يمتد من الشمال إلى الجنوب، تعلو العمارات على جانبيه متراصة متلاصقة، كأنه كهف أهل الكهف، تزاور عنه الشمس ذات الشمال وتقرضه ذات الجنوب، والشارع رطب، لا يجف الطين فيه لا في الصيف ولا في الشتاء، وهي أول دار ملك أشتريها وعمري حوالي خمس وخمسين سنة، أشتريها لا من تعبي وعرق جبيني، لكن من تعب ولدي وعرق جبينه.

أبو وائل يعلق:

ـ هو ولدك، ومال الولد هو مال الأب، وعلى كل حال، الملك لله تعالى، كلنا في هذه الحياة عابرو سبيل، وأين هو ولدك حالياً؟.

أبو جميل يتابع كلامه:

ـ ما يزال في جدة، في نفس المستشفى الذي بدأ العمل فيه، كلفته إدارة المستشفى في السنوات الثلاث الأخيرة برئاسة قسم الجراحة العظمية، وفي أواخر العام الماضي ٢٠١٢ زار مع فريق من الأطباء العرب قطاع غزة في أثناء الاعتداء الإسرائيلي على القطاع وعمل متطوعاً في غزة من ٢٥ تشرين الثاني إلى ٢٥ كانون الأول، وجاء بعدها مباشرة في إجازة إلى حلب وبقي معنا حتى ٥ كانون الثاني.

ويسأل أبو وائل:

. هذه أول زيارة؟

ـ نعم، هذه أول مرة بعد زيارته السابقة بثماني سنين، ما زار فيها حلب، ابني جميل عنده صبر على الغربة، كان دائماً يقول لي في اتصالاته الهاتفية: لن أرجع إلا بعد تأمين مستقبلي، وفي هذه الزيارة أودع في البنك ستة ملايين، وإلا فمن أين لي ثمن هذه الشقة؟ وثمن هذا الأثاث؟

ويسأل أبو وائل:

. متى سيرجع من السعودية؟

. ينتهي عقده الشهر القادم، سيحصل على تعويضاته ومكافآته، وسيرجع نهائياً.

. أنا أنصح له ألا يأتي، هنا سيعمل في مشفى حكومي براتب بسيط، أو سيعمل في مشفى خاص يملكه تاجر يأكل أتعابه، صاحب المشفى لا يرضى بأقل من ستين بالمئة من أجر العملية.

ـ قبل يومين اتصل بي، وأخبرني، سيرجع ومعه نقداً حوالي عشرة ملايين، وعنده رصيد في المصرف حوالي خمسين مليون ليرة، سيدخل هنا شريكاً في أحد المستشفيات، أو يشتري شقة يحولها إلى مستشفى، هناك في السعودية حقق شهرة واسعة، وكان يعمل في أكثر من مستشفى، وكان كل أسبوع يسافر إلى الرياض بطائرة خاصة على حساب المستشفى ليجري يومين كاملين عمليات دقيقة، دخله ممتاز الحمد لله، والأهم من هذا كله: هو اشتاق إلى الوطن، وأنا بصراحة اشتقت إليه، ماذا بقي لي من العمر؟ أنا تجاوزت الستين، وقبل عامين تقاعدت، آن الأوان كي يرجع إلى الوطن ويستقر فيه.

ويصمت ثم يضيف:

. أثقلت عليك يا أبو وائل، ووجَّعت رأسك بسيرة حياتي.

ويرد أبو وائل:

. لا يا أبو جميل، أنت آنستني وسليتني.

ـ شيء مؤلم يا أبو وائل، عمر مليان بالتعب والشقاء والعذاب والقهر، والحب والسعادة والفرح والسرور، هو ساخن ونديان بالدموع لكن نحن نحكيه في خمس

دقائق، نحكيه بأسلوب جاف في كلمة أو كلمتين، لذلك يكره أكثر الطلاب مادة التاريخ، هي مادة ظالمة، تختصر حياة الشعوب بكل ما فيها بكلمات ومجموعة أرقام.

ويصمت، ثم يضيف:

. يا إلهي، كم كنت أحب الشعر.

أبو وائل يسأله:

. وهل كتبت الشعر؟

. هي محاولات أيام الشباب.

. وتحفظ أي شيء منها؟

. للأسف، التاريخ أنساني كل شيء، والتدريس نهش حياتي وأكلها.

ويصمت ثم يضيف:

. زوجتي شيرين تحتفظ بأشياء كتبتها لها أيام الخطبة، ولكن أنا لا أعتبرها من الشعر، هي مجرد خواطر.

رسالة واحدة

أم جميل ترجع من المدرسة، أبو جميل ليس في البيت.

تسرع إلى المطبخ، ستعد له الطعام، وحين يرجع سيكون الطعام جاهزاً، لا تريده ينتظر إعداد الطعام.

تجد على الطاولة في المطبخ ورقة مطوية ثلاث طيات، كأنها رسالة، على سطحها تقرأ: "إلى شيرين".

تضطرب، ماذا جرى؟ هل هناك أمر خطير؟ هل هو غاضب منها؟ هل سيعتذر عن عدم الحضور إلى الغداء؟ ليس من عادته أن يترك رسائل!

تفتح الورقة، تقرأ:

" شيرين، أيتها الزوجة الحنون، أيتها الأم، أيتها الصديقة، أيتها العشيقة، ليلة أمس لم أنم، وددْتُ قول أشياء كثيرة. أنت الفضاء والنور والشذى، جناحي معلق في كلماتك، كوني دليلي إلى القادم، مثلما كنت دليلي دائماً، هناك مجهول أخشاه، لا أعرف ما هو، سر، غيب مغلق، أحس أني أطل من قمة عالية على هوة سحيقة، أخاف عليك من نفسي، أخاف أن تسرقني الأيام منك، خفافيش سود تنهشني، أحس أني ساقط في بئر، ليس هناك سبب واضح أو محدد، ليتني أرجع إلى عفرين لأدرِّس اللغة العربية لا التاريخ، نادم أنا، لأني درست التاريخ، ليتنا الآن نبدأ من جديد، ماذا ننتظر لا أدري، كم أخشى المستقبل".

ما سر هذه الرسالة؟ هل عاوده الحنين إلى الشعر؟ منذ ثلاثين عاماً لم يكتب قصيدة، ولا رسالة، ولا كلمة، منذ أيام الخطبة، كتب قصائد كثيرة، ولكن اليوم القصيدة مختلفة، لغة جديدة وموضوع جديد، أمر غريب، وليس من عادته ترك رسالة من هذا النوع؟!.

تحس حركة المفتاح في الباب، تطوي الورقة تخبئها في صدرها.

. أهلاً، عبد المجيد.

توليه ظهرها وتمضي إلى المطبخ، وهي تتكلم بصوت مرتفع.

. تأخرت أنا اليوم، الغداء غير جاهز، ما في غير البيض المقلي.

يدخل مضطرباً، عيناه على الطاولة حيث كانت الورقة، يسأل مرتبكاً.

. هل رأيت ورقة كانت هنا؟

تنظر إلى سطح الطاولة، تنظر إلى أسفل منها، تحوم في أرجاء المطبخ، تنظر إلى النافذة المفتوحة، تتكلم:

. أظن الهواء طيّرها.

ـ هذا خير.

يصمت، يتكلم:

ـ ما رأيك في صحن فتة في مطعم سلاف؟

يده ما تزال في جيبه، كأنه يخفي شيئاً، تبتسم، تهمس:

. فكرة جميلة.

ينزلان فوراً من الشقة، قاصدَيْنِ إلى مطعم سُلاف.

يمران أمام الصيدلية المغلقة، اللوحة ما تزال تتأرجح.

أبو جميل يمر من تحتها عن عمد، يرفع رأسه إلى اللوحة ويعلق:

. متى ستقع هذه اللوحة؟ مللتُ منها.

وأم جميل تعلق:

. والصيدلية المغلقة متى ستفتح؟ كأنها آثار تدمر.

أبو جميل يعلق:

. الآثار شاغلة ذهنك اليوم، من قلعة حلب، إلى آثار تدمر.

. لا أعرف لماذا، صدقني عن غير قصد.

مطعم سلاف مغلق، محلاته الثلاثة مغلقة، لا موائد على الرصيف، ولكن بجواره مطعم جديد مفتتح حديثاً، مطعم القمة.

ينظران في اللوحة الكبيرة المعلقة على الجدار إلى جوار المطعم، لا فتَّة، ولا فول، ليس غير اللحوم المشوية بأنواعها المختلفة.

ينظر إليها متسائلاً، تجيب على الفور:

. موافقة، لا ضرورة للحَيْرة أو التردد.

يعلق:

ـ مطعم القمة هو أشهر مطعم في حلب، صاحبه سجَّل قبل أكثر من عشرة أعوام اسمه في موسوعة جينيس، هو صاحب أكبر سيخ كباب، حلب مشهورة بالكباب.

الطاولة على الرصيف أمام مطعم القمة تجمعهما، الطاولة تصل بينهما، بقدميه من تحت الطاولة يحتضن قدمها.

تذعر، تصيح، وهي تنظر إلى أسفل الطاولة:

. أوه، قطة.

. لأ، قط.

تستغرق في الضحك، وهي تضيف:

. والله، رعَّبتني.

يصل النادل، يرحب بهما، أبو جميل يسأله عن المحل القديم، النادل يجيب:

ـ المطعم القريب من باب الفرج أغلقه المعلِّم، في المنطقة هناك تقع قذائف كثيرة، الموقع هنا آمن، وأجمل.

أم جميل تسأله عن محل سلاف، يجيبها:

. الحقيقة لا أعرف، يقال أغلقه صاحبه وسافر إلى تركيا، ما عندي حقائق.

أبو جميل يعلق:

. من المؤسف، في أقل من شهر تتطور الأمور، هذا يغلق محله ويسافر، وهذا ينتقل بمحله من مكان إلى مكان، خسارة.

أبو جميل يطلب صحناً من اللحوم المشوية بأنواعها المختلفة: الكباب، والقطع، والكاستاليتا، والشيش طاووق، وأقراص اللحم بالنعنع، والشاورما، والشرحات.

أم جميل تقاطعه، وتتوجه إلى النادل:

. لأ، لا تسجل عندك أي شيء.

ثم تلتفت إلى أبو جميل، وتقول:

. إما شاورما بلحم الغنم أو كباب.

أبو جميل يقرر:

. لا بأس، شاورما وكباب، الشاورما لك، والكباب لي.

ثم يغمز بعينه للنادل.

وسرعان ما يأتي النادل بصحون المقبلات، بما فيها السلطات والمخلَّلات والحمص والمتبل واللبن الرائب والفليفلة الخضراء والحمراء وأعواد النعنع.

أبو جميل يمد يده إلى جيبه، يناول أم جميل هدية صغيرة ملفوفة بورق فاخر.

. شكراً، مقبولة، وأعتز بها، ولو من غير مناسبة، ولو لم أعرف ما هي.

. سأقول لك، لن أتعبك في حزرها، هي زجاجة عطر.

. فور إيفر.

. نعم، فور إيفر، عطرك المفضل منذ ثلاثين سنة، أعرف، لن تغيِّريه.

. كيف أغيّره، وأنت أهديتني هذا النوع أيام الخطبة، وهو أحب نوع إلى قلبي.

تضعها في حقيبة يدها، ثم تعلق هامسة:

. طبعاً لن أفتحها الآن، لها موضعها المناسب لفتحها فيه.

يأتي النادل بصحن كبير صُفَّتْ فيه اللحوم المشوية في شكل بديع، وعبقها يملأ النفس اشتهاء ورغبة.

أم جميل تبدي امتعاضها، ولكن سرعان ما تنسى، وتأخذ في تذوق الأصناف كلها.

شمس الأصيل تدفئهما بشعاعاتها الذهبية، وحركة السيارات أمامهما مسلية، ونغم هادئ يتهادى إليهما من داخل المطعم لأغنية قديمة لفريد الأطرش يتردد صداها:

الحـــب لحـــن جميـــل يتغنـــــى بـــين قلبـــين

والحــــب مالــــه دليـــل إلا كـــــــلام العــــــــين

حبيــــــــب قلبـــــــــي ووجــــــــــــــــــداني

مــــا لـــــيش غيـــرك حبيــــــــب تــــــــاني

أم جميل تتكلم، وهي تفاجئه:

. هل تفكر في الزواج، قل بصراحة؟

. لأ.

. هل مللت مني؟

. لأ.

. هل تعرفت على امرأة أو تعرفت امرأة عليك؟

. لأ.

. هل تخاف أن تسرقك امرأة مني؟

. لأ.

ـ طبعاً أنت مطمئن، أنا أحبك، أنا لا أفكر حتى في أبي أو أمي أو إخوتي، أنت الرجل الوحيد في حياتي من ثلاثين سنة وإلى يوم القيامة.

. صحيح؟

. عندك شك؟

. لأ.

تلتقط بالشوكة شرحة مشوية، تضعها أمامه، وتضيف:

. تفضل، اهنأ بالطعام، ولا تفكر بأي شيء.

يصمت، يتناول لقيمات، ثم يتكلم، يسألها:

. هل قرأت الكلمات؟

. عبد المجيد، أنا طوال ثلاثين سنة كنت أقرؤك.

. ولكن ما كنت أكتب.

. أنت كنت تكتب بالأفعال والمواقف لا بالحروف، ونسيت الأشعار التي كتبتها لي أيام الخطبة؟

تلكزه بقدمها من تحت الطاولة، ثم تعلق:
ـ أوه، أنا آسفة، ما عرفت أنها قدمك.
. حسبتِها أنت قطة تحاول التمسح بي؟
تمسك بيدها الشوكة، وتعلق:
. ولله لو كانت قطة، لكنت ضربتها بهذه الشوكة.
. سأربّي قطة في الشقة الجديدة.
. أبداً، لن أسمح لك، وأعرفك لا تحب القطط.
تتناول لقيمات، ثم تتكلم:
ـ سأحكي لك، قبل سنتين اشتريت رواية لميلان كونديرا عنوانها "الهُوِية"، وقرأتها.
. وما موضوعها؟
. سيدة في مثل عمري، دخلت سن اليأس، ولم تعد قادرة على الإنجاب، وتقدم زوجها مثلها في العمر، تصلها رسائل من مجهول يعبر فيها عن إعجابه بها، هناك رجل كان ينظر إليها يوم أمس وهي في المترو، تظنه هو، وهناك رجل آخر قبل يومين كان يراقبها وهي في السوبر ماركت، تظنه هو، أحست بحاجتها إلى من يحبها، وتستمر الرسائل في الوصول، تقرؤها، وتخبئها في خزانتها الخاصة، بين طيات الثياب، هناك من يحبها، إذن حقيقة، هل تعرف، يا أبو جميل، من كان يرسل إليها الرسائل؟
يرفع رأسه، يتوقف عن مضغ اللقمة، ثم يقول:
ـ زوجها.
تصفق له بيديها بهدوء، وتتكلم:
. نعم، وكان هو بحاجة إلى التعبير عن حبه، ليس هناك من حب حقيقي سوى حب واحد، هو الحب بين الزوجين.
. أعطيني الرواية لأقرأها.
ـ بصراحة، الرواية صعبة، ما هي مثل الروايات التي نعرفها، يقال هي من الروايات الحديثة، مملة، مفككة، وصعبة، أنا بعد ما قرأتها أهديتها إلى مكتبة المدرسة.
يصمت، ثم يتكلم:
. الحقيقة، أنا مثل تلك المرأة، كنت أتمنى لو أرسلتِ أنت إليَّ مثل تلك الرسائل من غير معرفة مرسلها.
ـ أبو جميل، أنت تريد الاطمئنان على نفسك، قلقك ما هو مرض، هو أمر طبيعي، الرجل يريد الاطمئنان دائما إلى وجود من يحبه، في كل مرحلة من مراحل

عمره، بل في كل لحظة، رسالتك هي طلب غير مباشر مني حتى أؤكد لك حبي، عبد المجيد، أنت ما زلت الرجل الذي أحبه، وسأبقى، أنت حبي.

تستل الورقة من صدرها، تطويها، تكتب على الوجه الأبيض منها: "إلى زوجي عبد المجيد . شيرين"

. أشكرك، ولكن ما هذا الفراغ الذي أحس به؟

. هذا طبيعي، بعد كل إنجاز عظيم يحس الإنسان بفراغ.

. أي إنجاز؟ أنا لم أفعل أي شيء.

ـ الدار التي اشتريتها، هي مشروع العمر، طوال حياتنا كنا نسعى إلى شراء الدار، والحمد لله أخيراً اشترينا.

. ولكن ما هي من تعبي ولا من تعبك، هي من تعب ولدنا جميل.

. وجميل، هو من تعبنا أنا وأنت.

. لكن الفراغ، الفراغ يقتلني، لا أعرف ماذا أفعل؟

ـ قلت لك، بعد كل إنجاز يحس الإنسان بفراغ، شراء الدار أشبه بقمة عالية، أنت تطل منها على هوة عميقة، لذلك تحس بالفراغ، ابحث عن قمة أخرى؟.

يتكلم وهو يضحك ساخراً:

. في هذه الحالة عليَّ شراء دار وراء دار، والقمم لا تنتهي.

. لأ، ماهذا قصدي، اكتب عن سليمان الحلبي، أنت من قبل تحلم بالكتابة عنه، هل نسيت، يوم كنا نتناول المأمونية أمام مديرية الثقافة، ماذا قلت لي؟

. نعم، أذكر، أتمنى كتابة بحث عن سليمان الحلبي.

. اكتب.

. نعم، سأكتب.

يضع الشوكة من يده، يقول لها:

ـ لن أتناول أكثر، حتى لا أنعس، ولا تفتر قواي، تعالي لنرجع إلى البيت، أشتهي شم العطر في البيت.

تمس قدمه بقدمها تحت الطاولة، وتهمس:

. سنتركها إلى الليل، كُلْ واملأ بطنك.

يأخذ قدمها بين قدميه الاثنتين، ويقول:

. لأ، سنفتحها فور وصولنا إلى الشقة، ثم نأخذ قيلولة.

. أرجوك، اخفض صوتك.

في الطريق إلى البيت تقول له:

. فور وصولك إلى البيت احلق لحيتك، كنت تحلقها كل يوم، أصبحت تحلقها كل ثلاثة أيام.

يعلق بصوت كسول:
. ما عندي مدرسة ولا طلاب ولا دوام.
ترد وهي تمسك يده، تضغط بشدة على أصابعه:
. وهل نسيت؟ عندك أنا، ألا أكفي أنا؟
وهما يصعدان الدرج، يداهما متعانقتان، أمام باب الشقة يهم بتقبيلها.
يدوي انفجار قوي في الخارج، ترتج جدران العمارة، باب الشقة ينخلع، يضمها إلى صدره:
. حبيبتي شيرين، لا تخافي.
يدخلان إلى الشقة، وقد فتح الباب من تلقاء نفسه، من شدة الانفجار، تضحك، تقول له:
. خفت أكثر ما خفت على زجاجة العطر.
. لا تخافي، عطرك هنا في قلبي.
يلتفت إلى باب الشقة، يغلقه بصعوبة، تتكلم:
. سنحتاج إلى نجار لإصلاحه.
. سأصلحه أنا بنفسي لا تقلقي، أنت قلت أنا الرجل الوحيد.
يطلان من الشرفة، يعلق:
ـ سليمة والله الحمد، قذيفة سقطت في أقصى حديقة السبيل، ومن المؤكد، لا إصابات، حتى ولا شجرة سقطت، بضعة أغصان صغيرة تكسرت.
تمضي إلى المطبخ، يسألها:
. إلى أين؟
. سأجهز الشاي.
. لا ضرورة له، نسيتِ اتفاقنا على فتح زجاجة العطر فور الوصول إلى الشقة؟
. بعد سماع هذا الانفجار نفسي ما عادت تشتهي أي شيء.
. دائماً، هناك وقت للحب.
. حتى في أوقات الحرب؟
. نعم، نحن أحوج إلى الحب، في أوقات الحرب.
تصمت، ثم تتكلم:
ـ ولكن لا ننسى حبنا لجارنا أبو وائل، وجارتنا أم وائل، الواجب يقتضي الاطمئنان عليهم أولاً.
. والعطر؟
. نؤجله إلى الليل.

لوحة كانافاه*

أم وائل وأم صلاح تزوران أم جميل.
أم صلاح تحمل لوحة كانافاه وبضع وردات تقدمها إلى أم جميل.
. أرجو قبول هديتي المتواضعة، لوحة من صنعي، ووردات من حديقتي.
أم جميل تحمل عنها الهدية وتشكرها:
. شكراً أختي أم صلاح، تسلم اليد التي صنعتها، وشكراً للوردات.
وتتأمل اللوحة ثم تعلق:
ـ ذوقك رائع، لوحة جميلة، هي توأم اللوحة التي أهدتني أم وائل، أبو جميل سيعلق اللوحتين في غرفة الضيوف، شكراً لك يا أختي أم صلاح.
أم صلاح تعتذر عن زيارة زوجها وتقول:
ـ زوجي عامل في محلجة الرصافة، في منطقة الليرمون، ويعمل سائق سيارة أجرة بعد انصرافه من المعمل، ولا يرجع إلا بعد منتصف الليل، ما عنده وقت.
وتسأل أم جميل:
. السيارة ملكه؟
وتجيب أم صلاح:
. لأ، هو سائق، له نسبة من الشغل، وصاحب السيارة له ثقة بزوجي، لا يعمل عليها غير زوجي، وهو يتركها إلى جانب الرصيف أمام باب العمارة، سأعطيكم رقم جواله، في أي لحظة اتصلوا به، سيحضر فوراً لتوصيلكم، هو بخدمتكم.
وتصمت ثم تضيف:
ـ وأنا أصنع لوحات الكانافاه لصاحب محل في حي الجدَيْدة، هو يزودني بالخيطان وأرضية اللوحة، ويعطيني أجرة أساعد بها زوجي، أنا أنهي لوحتين في الأسبوع الواحد، وفي بعض الأحيان أنهي ثلاث لوحات بحسب حجم اللوحة.
ومع القهوة تتكلم أم جميل متوجهة بخطابها إلى أم صلاح:

* لوحات فنية جاهزة مطبوعة بالألوان على نسيج رقيق شفاف، وهي تقليد للوحات مشهورة، تقوم المرأة في البيت بملء الفراغات بين اللحمة والسدى بخيوط صوفية تتوافق ألوانها مع الشكل المطبوع، فتتكامل اللوحة وتوضع في إطار تزين به الغرف.

ـ أختـي أم صـلاح، أنـا أطـل علـى حـديقتك، وأرى عريشـة الكرمـة، والبركـة الصغيرة، وشجيرات الورد والفل والقرنفل، ما شاء الله، حديقتك مثل حديقة السبيل.

. شكراً.

. وفي الصباح أستيقظ على تغريد الكناريات، عندك خمسة أقفاص أو ستة.

وتضيف أم صلاح:

. بصراحة، أربي الكناريات، كل شهر يفقس البيض عن كناريات جديدة، زوجي يبيع منها، حتى غرسات الورد يبيع زوجي منها، الحمد لله، أنا من عشرين سنة أساعد زوجي، وإلا، كيف سنعيش، وعندي ثمانية أولاد؟

وتسألها أم جميل:

. وعندك وقت؟

وتجيب أم صلاح وهي تبتسم:

. الحمد لله، ما أحسست في يوم من الأيام بتعب أو ملل، نهار الصيف طويل، وليل الشتاء أطول، وأنا في شغلي أتسلى، هذا أفضل من زيارات ما منها فائدة.

وتضيف أم وائل:

. صدقيني يا أختي أم جميل، عشر سنين ونحن جيران فوقها، ما سمعنا في أي يوم صوتها أو صوت زوجها.

وتعلق أم صلاح:

. الحمد لله، زوجي يحبني، وأنا أساعده، الحياة قاسية.

وتصمت، ثم تضيف:

ـ لكن، لا بد، الحياة ما هي سمن وعسل دائماً، المهم هو التفاهم، وتصغير المشكلة لا تكبيرها.

وتسأل أم جميل:

. أين تعلمت يا أم صلاح الشغل على الكانافاه؟

وترد أم صلاح:

. أنا في المرحلة الابتدائية كنت أحب الرسم، وشجعتني على الرسم مدرِّسة في المرحلة الإعدادية، وعلاماتي في الشهادة الإعدادية كانت تؤهلني للدخول في الثانوية العامة، ولكني اخترت الثانوية الفنية، تعلمت فيها أشياء كثيرة، كل ثياب أولادي، الصبيان والبنات، أخيطها بنفسي، وعندي أشغال إبرة.

وتضيف أم وائل:

. أنا زرتها، عندها لوحات فنية جميلة بالألوان المائية والألوان الزيتية.

وتعلق أم جميل متسائلة:

. وتركت اللوحات الزيتية والمائية واشتغلت بلوحات الكانافاه، وهي بصراحة، ما هي مجال الإبداع مثل اللوحات المائية أو الزيتية.

أم صلاح تتكلم بانكسار:

ـ كلامك صحيح، بصراحة اللوحات المائية وخاصة الزيتية مكلفة، ولا أحد يشتريها، ولكن الله هيأ لي ذلك الرجل، يحضر لي الخيطان وأرضية الكانافاه، والشغل فيها لا يحتاج إلى تفرغ وتركيز ووقت ومكان واسع مثل ما تحتاج إليه اللوحات الفنية، والمشكلة، لا أحد يشتريها.

أم وائل تسأل محاولة تغيير الحديث:

. وكيف شغل زوجك على السيارة؟

وتتكلم أم صلاح:

ـ حالياً شغله على السيارة قلّ، ماعاد يشتغل غير أربع ساعات، الظروف تغيرت، والأوضاع في البلد صعبة، نسأل الله الأمن والأمان.

وتتكلم أم وائل:

. نعم، صارت الحياة صعبة، على كل المستويات.

وتضيف أم صلاح:

ـ والله، يذهب زوجي للعمل على سيارته، وأسأل نفسي: سيرجع بالسلامة؟ أو ستسقط فوق سيارته قذيفة.

وتتكلم أم جميل:

. أنا بصراحة ندمت على شراء هذه الشقة، بثمنها يمكن شراء قطعة أرض في عفرين وبناء فيلا، كنا عشنا بأمن وأمان.

وتقاطعها أم وائل:

. ووظيفتك؟

وترد أم جميل:

. كنت قدمت استقالتي واسترحت، روحي ملَّت من التدريس.

أم وائل تعلق:

. أم جميل، نسيتِ؟ من يومين حكيتِ لي عن حبك لعملك وطالباتك وقلت لي: أتمنى لو أموت في قاعة الصف، وأنا أعطي الدرس لطالباتي، نسيت هذا الكلام؟

أم جميل تتكلم:

ـ صدقت يا أم وائل، نعم أنا قلت هذا، ولكن الإنسان كتلة أعصاب ومشاعر وعواطف، وكل يوم هو في حالة، هي كلمة عابرة، لا تسجليها.

وترسل زفرة، ثم تتكلم:

. والله ما عدنا نعرف ماذا نقول.

وتتكلم أم وائل:

. صدقت، يا أم جميل، وأنا أمس عرضت على زوجي بيع الشقة والانتقال إلى بيروت، فقال لي: لأ، هاجر أبي مرة من فلسطين، وأنا لن أهاجر من سورية، نعم، كل البلاد العربية وطن واحد، من سورية إلى تونس والمغرب حتى موريتانيا والسودان وقطر واليمن، ولكن سورية الآن بلدي، لن أغادر، إما إلى فلسطين، أو لا، سأموت هنا في حلب، أو هناك في ترشيحا.

أم جميل تتكلم:

. نعم، كان الله في عون من نزح أو هاجر، الوطن هو الحياة، ولا عيش خارج الوطن، على كل حال، لا نملك إلا الدعاء لله، ونسأله الخير.

أم صلاح تستأذن، تنهض وهي تقول:

. اعذروني، عندي لوحة كانافاه، ضروري الانتهاء منها اليوم.

وعند الباب تلتفت لتقول:

. بكرا، نشرب قهوة الصباح في حديقتي.

أم جميل تقول لها:

ـ أختي أم صلاح، أتمنى لو رسمتِ لوحة بالألوان المائية أو الزيتية لحلب، وتركت لوحات الكانافاه.

أم صلاح تنظر في عيني أم جميل، ترسل زفرة طويلة، ثم تتكلم:

. آه يا أم جميل، حلب لا تكفيها لوحة، حلب تحتاج إلى معرض لوحات زيتية ومائية.

وتصمت ثم تضيف وهي، تشير إلى صدرها:

ـ لوحة حلب محفوظة هنا في قلبي، في قلبك، في كل القلوب، وسيأتي يوم أرسم فيه لوحة لحلب، وأقدمها هدية لك.

سليمان الحلبي

متعة اكتشاف الآخر والتعرف عليه متعة لا تعدلها متعة، هي أجمل من القراءة في رواية، أو مشاهدة مسلسل في تلفاز، وهي من غير شك أجمل من التاريخ كله، كذلك متعة البوح بما في نفسك للآخر والاعتراف أمامه، ولا سيما البوح لصديق، لا دور له في حياتك ولا تأثير.

متعة عاشها كل من أبو جميل وزوجته وأبو وائل وزوجته، كل من الأفراد الأربعة حكى للآخر عن أشياء وأشياء.

مع ذلك، ما هي إلا بضعة أيام، حتى نال الضجر من أبو جميل، بل شعر بالقهر، أهذه هي الحياة؟ عمر من المعاناة يُحْكَى ببضع كلمات مختصرة؟

ملَّ من صحبة أبو وائل، وجد فرصة للاعتذار إليه عن عدم الذهاب معه إلى السوق عندما بدأت زوجته تشتري معظم ما يحتاجانه لدى انصرافها من المدرسة.

أبو وائل لا بد من أن يطوف بالسوق سبع مرات، يسأل عن الأسعار من أول محل في السوق إلى آخر محل، وإذا أراد شراء كيلو بندورة أمضى ساعة في الانتقاء، يحمل حبة، يتفحصها، من جهاتها كلها، يقلِّبها بين يديه، يضعها يحمل غيرها، ذات مرة ضجر منه البائع، قال له: "هذه البندورة ليست للبيع"، ثم ترك البائع نفسه المحل ومشى.

قفزت إلى ذهنه الفكرة، لماذا لا أنزل إلى حديقة السبيل؟

وقرر أن ينزل إليها وحده.

أراد أن يعيش حالة التأمل وأن يستمتع بجو حديقة السبيل.

أخذ ينزل يومياً إلى حديقة السبيل، اختار لنفسه ركناً في الجهة الغربية، يطل على باحة الحديقة، حيث ينهض الإيوان المسقوف الخاص بالفرقة الموسيقية، ويرى من مكانه على المقعد ومن خلال الأشجار الباسقة شقته المطلة على الحديقة.

الإطلالة على حديقة السبيل من شرفة المنزل لها متعة خاصة، والجلوس على مقعد في الحديقة تحت ظلال الأشجار له متعة أخرى، أنت هنا في قلب الحديقة، تحت الأشجار، تعيش الحالة، بين الناس ومعهم، تسمع صوت الأطفال، وهم يضجون ويلعبون في الإيوان المسقوف، وهو يردد صدى أصواتهم، وترى الصبايا والشباب وهم

يروحون ويجيئون، هنا تحس نبض الحياة، وترى العجائز وهم يستقرون على المقاعد، كل منهم يتوكأ على عصاه، ساعات وساعات، لا يكاد أحدهم يتحرَّك من مكانه، بعضهم يثرثر مع صاحبه، وبعضهم الآخر صامت لا يحب الكلام كأنهم سحالي الصحراء يجثمون ساكنين تحت الشمس لا حركة ولا التفاتة.

أَلِفَ الرُّكن، لا يغيِّره، قد لا يكون المقعد شاغراً، يقعد قريباً منه، حتى إذا ما شغر، أسرع إليه. على خشب المقعد محفور حرف ع، وفي داخله حرف س، كأنهما يتعانقان، حرف العين هو الحرف الأول من اسمه، عبد المجيد، وحرف س شبيه بالحرف الأول من اسم زوجته، ش، وضع مرة في جيبه سكيناً صغيرة، ونزل بها إلى الحديقة، جلس في المقعد نفسه، أخرج السكين من جيبه، هم بحفر ثلاث نقاط فوق الحرف س، ليصبح ش، ولكنه سرعان ما أعاد السكين إلى جيبه، لم يشأ أن يغيِّر في الحرف، احتراماً للعاشقَيْنِ اللذين حفرا الحرفين الأوَّلَيْنِ من اسميهما، الرسم قديم، لعل صاحبي الحرفين الآن أصبحا شيخين عجوزين، تزوجا وأنجبا، أو لعلهما افترقا ولم يتزوجا، أو لعلهما...

أحياناً يحتل المقعد المقابل لمقعده رجل عجوز، لا يرتاح، يتجنب النظر إلى العجوز، مرة قعد أمامه عجوز، ثم سرعان ما انتقل إلى جواره، وأخذ يحدثه عن نفسه، وهو يستمع، أخذ منه الضجر كل مأخذ، ثم نهض ورجع إلى البيت من غير أن ينبس بكلمة، قد تحتل المقعد أسرة من زوجين وبضعة أولاد، يلعبون أمامه، يتراكضون، يضجون يصخبون، لا يضجر، بل يُسَرُّ، مرة قعد شاب وصبية، فرح بهما، ولكن سرعان ما أحس بالقلق، نهض، انتقل إلى مقعد آخر.

في حديقة السبيل يقعد صامتاً، يتأمل الغادين والرائحين، لا يريد أن يقعد إلى جواره أحد، ولا يريد أن يتعرف على أحد، ولا يريد أن يرى من يعرفه. حتى جاره أبو وائل لم يفكر في دعوته للنزول معه إلى الحديقة. لم يمل، ولم يضجر من القعود وحده، ولكن تذكر فكرة حلم بها كثيراً من قبل.

كان طوال عمره يحلم أن يعد دراسة موسَّعة عن سليمان الحلبي. أكثر من ثلاثين سنة وهو يحدث طلاب الصف الثالث الإعدادي عن غزو نابليون بونابرت لمصر، ومقتل الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبي، عدَّ نفسه مختصاً بتارخ هذا الغزو، بل بتاريخ سليمان الحلبي، يستطيع أن يحدثك عن الأسباب القريبة للغزو، والأسباب البعيدة، عن قدوم الحملة، عن إعلان نابليون إسلامه، وارتدائه الزي المصري، عن هزيمة المماليك، كان نابليون يعلن أنهم غرباء، حكموا الشعب، ثم يروي للطلاب تفاصيل اغتيال كليبر، دخل سليمان الحلبي إلى القصر، وتقدم منه، وتظاهر بأنه يقدم له عريضة، ثم جذبه من يده وطعنه، مرة سأله أحد الطلاب: وكيف استطاع التسلل إلى حديقة القصر؟ ألم يكن هناك حراس وكاميرات تصوير؟ وبَّخ

الطالب، وأدرك أنه كان يسخر، وذات مرة أيضاً سأله أحد الطلاب: أستاذ كيف أعدموه؟ فردَّ: بطريقة شنيعة، ولم يضف، في كل سنة يقول في هذا العام سوف أُعِدُّ دراسة تاريخية واسعة عن غزو مصر، عند نهاية السنة الدراسية يدرك أنه لم يكن يعرف أي شيء عن غزو نابليون ولا عن سليمان الحلبي، لم يكن يعرف إلا ما هو مدوَّن في الكتاب المدرسي المقرر، ويقر أمام نفسه أنه يحفظه كما يحفظ الطالب الكسول درسه عن ظهر قلب من غير مناقشة، مرة واحدة فكر في الأمر.

الآن حانت الفرصة، شقة واسعة، ومتسع في الوقت، ولا مدرسة ولا تدريس، وقد انتهيت من معاملة التقاعد، ومن معاملة الفراغة، الآن يمكن إعداد دراسة عن سليمان الحلبي.

وعلى الفور مضى إلى دار الكتب الوطنية في باب الفرج.

دخل الدار، احتواه الصمت المقدَّس، أطل عليه تمثال المعري، وهو يصعد الدرج، انعطف مع الدرج الصاعد نحو الشمال، مرَّ بقاعة إلى جوار بابها المفتوح لوحة نحاسية تحمل عبارة " قاعة عمر أبو ريشة"، رأى من خلال بابها المفتوح بعض الباحثين يقعدون إلى طاولة مستطيلة وأمام كل منهم بضعة كتب، مر بباب مستودع الكتب، نفحته رائحة ناشفة يابسة للكتب، التفت إلى قاعة المطالعة الملاصقة لمخزن الكتب، وقف في الباب يتأمل المناضد المستطيلة المتوازية، ليس ثمة غير خمسة طلاب أو عشرة.

كم اختلفت الحياة، كنت آتي مع الثامنة صباحاً كي أحجز لنفسي مكاناً، لو تأخرت إلى التاسعة، فلا تكاد تجد لنفسك موضعاً، كانت القاعة تغص بالطلاب، ما إن انتقلت إلى الإعدادية حتى بدأت أقصد هذه الدار، أمام هذه الصناديق أقف أبحث عن عناوين الكتب وأرقامها، كي أستعير، ثم أتخذ موضعي في قاعة المطالعة، ولا أرجع إلى البيت حتى السابعة مساء موعد إغلاق المكتبة، إذا ما نال مني الجوع أسرعت إلى محل قريب من ساعة باب الفرج لشراء صندويشة فلافل، المكتبة تفتح طوال أيام الأسبوع، ماعدا يوم الثلاثاء، هذا نظامها، لذلك لا يمكن أن تجد لنفسك موضعاً في يوم الجمعة، يوم عطلة الطلاب، هنا قرأت المنفلوطي وجبران خليل جبران ثم ميخائل نعيمة، هنا قرأت أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران، ثم تعرفت إلى فيكتور هوغو وإرنست همنجواي وتشيخوف، هنا قرأت طه حسين وعباس محمود العقاد، وفي المرحلة الثانوية قرأت بدر شاكر السياب ونازك الملائكة، وقد ذاعت شهرة كل منهما، وحاولت تقليد السياب، كتبت بعض القصائد، ثم ضاعت موهبتي الأدبية، عندما انتسبت إلى قسم التاريخ، لكن لا أنكر، شيرين فجرت موهبتي مرة ثانية، كتبت لها قصائد كثيرة، لا أعرف إذا كانت ما تزال تحتفظ بها، ثم ضاع كل شيء وضعت في التدريس، المهنة أكلتني.

الأسدي خير الدين، كما كان يحلو له أن يقدم كنيته على اسمه، هو الذي حرَّضنا على المطالعة، قال لنا: دار الكتب الوطنية مفتوحة للجميع، لا تطالبوا أباءكم بثمن كتاب، اقرؤوا فيها من غير أجر، لا أنسى فضله علينا، هو الذي علمنا النطق الصحيح للحروف الألفبائية، في اليوم الأول من دخولنا إلى الصف الأول الإعدادي، هنا في إعدادية إسكندرون في حيِّ العقبة، علمنا الترتيب الألف البائي للحروف العربية، وعلمنا النطق الصحيح للثاء والذال والظأ، والنطق الصحيح للجيم، فهو حرف قمري، ولا بد من إظهار اللام قبله، في ال التعريف، وكان حريصاً على التكلم بالعربية الفصيحة، من تقعر، كانت الفصيحة تنساب في صوته كالتغريد، وكنا في الفرصة بين الحصتين نلتف حوله وهو قاعد على كرسي في باحة المدرسة لنسأله عن أصول بعض الألفاظ العامية في اللهجة الحلبية، وهو يحدثنا عن معنى كل كلمة وأصلها الفصيح، كم كان يحلو له أن يقعد في شمس الخريف، ونحن نتحلق حوله، ولا أنسى، غاب مرة، فدخل علينا في حصة اللغة العربية بدلاً منه الأستاذ خليل الهنداوي، شخصية متميزة، صوت أجش عريض، ولغة عربية فصيحة، وإلقاء هادئ فيه روعة، يقف ليتكلم، فيهدر صوته كأنه شلال راعد، لا أرى اليوم في قاعة المطالعة سوى خمسة طلاب أو سبعة.

ويقصد إلى غرفة المدير، يدخل مُسَلِّماً، يتجه إلى مكتب المدير ، يقرأ اسمه على لوح خشبي مزخرف: خالد النايف، المدير ينهض من وراء مكتبه، يمد له يده مرحباً ومصافحاً.

. عبد المجيد حداد، أستاذ التاريخ في ثانويات حلب، سابقاً، متقاعد حالياً.

. أهلاً وسهلاً أستاذ، تفضل.

يقعد أمام مكتبه في مقعد من الجلد عريض، مريح، المدير يكرر الترحيب به، يسأله عن حياته بعد التقاعد، فيجيب:

. قررت القيام ببحث علمي.

. أحسنت، هذا هو الصحيح، أنا بخدمتك، اطلب المصادر والمراجع التي تريد.

. لا أعرف في الحقيقة أي مرجع، طوال ثلاثين سنة كنت أحدِّث الطلاب عن غزو نابليون لمصر واغتيال سليمان الحلبي لكليبر، قررت الكتابة عن سليمان الحلبي.

ـ أحسنت الاختيار، هذا البطل جدير بالتقدير، لم ينل حقه من الدراسة، أهلاً وسهلاً بك.

ويضغط على زر إلى جواره، فيدخل موظف نحيل، أسمر طويل، يضع على عينيه نظارة طبية سميكة، يقول له المدير:

. من فضلك، ابحث في الحاسب للأستاذ عبد المجيد عن مراجع تتعلق بمصر في عهد حملة نابليون بونابرت، وخاصة ما يتعلق بكليبر واغتيال سليمان الحلبي له.

ويتابع المدير كلامه وهو يشير إلى الموظف:

. الأستاذ كريم من خيرة العاملين في دار الكتب الوطنية، وهو مثقف، أي كتاب جديد يصل إلى الدار سيطَّلع عليه حتماً.

يرجع الموظف بعد قليل، يحمل كتابين، وهو يتكلم:

ـ هذا آخر كتاب عن سليمان الحلبي، وضعته صحفية شابة من حلب، هي بيانكا ماضية، وقد صدر في دمشق عام ٢٠٠٧.

ويقدم إليه كتاباً صغير الحجم، ثم يضيف:

ـ وأنا قرأت الكتاب، وللموضوعية، الباحثة راجعت كل ما كتب عن سليمان الحلبي، وكانت نتيجة بحثها هي عدم نيل سليمان الحلبي ما يستحق من دراسة بسبب تأثر أكثر من كتبوا عنه برواية الجبرتي، وعدم توافر مراجع موضوعية.

ثم يناوله كتاباً آخر وهو يتكلم:

ـ وهذا كتاب الجبرتي، المشهور بتاريخ الجبرتي، وعنوانه:"عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، وكان الجبرتي معاصراً لسليمان الحلبي، وما رواه في كتابه هو ترجمة لمحاضر التحقيق مع سليمان الحلبي في المحكمة الفرنسية.

ويتكلم المدير متوجهاً في حديثه إلى أبو جميل:

ـ أنا أقترح أن تطلع على آخر كتاب عن سليمان الحلبي أولاً، لترى نتائج الباحثة، ولترى هل من الممكن الوصول إلى نتائج جديدة.

أبو جميل يتكلم:

ـ اعذرني أستاذ خالد، أنا أفضل العمل في المصادر والمراجع، والوصول إلى نتائجي بموضوعية وحُرية، بعد ذلك سأطلع على جهود الباحثة.

مدير الدار يتكلم:

. القرار لك.

أبو جميل يلتفت إلى الموظف كريم ويقول له:

. أرجو إعارتي مراجع الباحثة، إذا أمكن، مع كتاب الجبرتي، وبعد الفراغ منها سأستعير كتاب الباحثة.

المدير يخاطب الموظف كريم:

ـ أستاذ كريم، أرجو النظر في مراجع الباحثة وإحضار كل ما يتوافر منها، واترك كتابها هنا عندي، سأقرؤه.

يكرر المدير الترحيب به، يناوله جريدة، وهو يقول:

. تفضل أستاذ، يمكنك تصفح الجريدة.

ثم يضغط على زر، فيدخل الآذن، يتوجه المدير إليه بالسؤال:
. تفضِّل القهوة أم الشاي؟
. شكراً، القهوة من غير سكر.
بعد دقائق يدخل الآذن يقدم له فنجان قهوة.
يعيد الجريدة إلى المدير، المدير يقول له:
ـ يمكنك الاحتفاظ بها أستاذ، تقرؤها في البيت، نحن تصلنا منها عشر نسخ، نحتفظ منها بثلاث، ونوزع النسخ الباقية هنا على من يزورنا من المثقفين، وفي قاعة عمر أبو ريشة يمكنك أن تطالع كل يوم مع فنجان قهوة الصحف والدوريات العربية بالإضافة إلى الصحف والدوريات المحلية.
. أشكرك.
يدخل الموظف كريم يحمل بضعة كتب مصحوبة بسجل الإعارة الخارجية، يناولها إلى أبو جميل كتاباً كتاباً، وهو يقرأ عناوينها وأسماء مؤلفيها:
ـ هذا كتاب سليمان الحلبي لمؤلفه خالد الجر، وهذا كتاب الدكتور شاكر مصطفى وعنوانه: "بيني وبينك"، وهذا كتاب أشهر "الاغتيالات السياسية في العالم" لمؤلفه هاني الخير، وهذه الكتب الثلاثة لمؤلفين من سورية، بالإضافة إلى موسوعة الأسدي، وكتاب بيانكا ماضية، وهذا كتاب "أشهر حوادث الإعدام على مر التاريخ" لمؤلفه أسامة توفيق عبد الهادي، وهذا كتاب "قضايا التاريخ الكبرى" لمؤلفه عبد الله عنان، وهذا كتاب عنوانه "ودخلت الخيل الأزهر"، لمؤلفه محمد جلال كشك، وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة، لمؤلفين من مصر، بالإضافة إلى كتاب الجبرتي.
أبو جميل يوقِّع في سجل الإعارة، وهو يقول للمدير:
. بعد أسبوع سأعيد هذه الكتب.
المدير يعلق:
ـ الحد الأقصى للإعارة شهر، ويفضل إعادتها قبل انقضاء الشهر، ويمكن تجديدها.
. لا، لا، سأعيدها بعد أسبوع، أنا متحمس للعمل.
قبل أن يغادر يقول له المدير:
. نسيت الجريدة، خذها معك.
يلتفت إليه، يعلق بعفوية:
. بصراحة، لا أطالع الصحافة، لا العربية، ولا المحلية.
المدير يعلِّق بلهجة مهذبة يحاول تبرير الموقف:
. صدقت، من حق المتخصص الاستغناء عن الصحف والدوريات غير المتعلقة باختصاصه.

أبو جميل يرد:

ـ اعذرني أستاذ خالد، التاريخ لا يعنى بالتفاصيل اليومية التي تعنى بها عادة الصحافة في العالم كله، انقلاب قطار وغرق سفينة واحتراق مزرعة، تفاصيل لا تدخل التاريخ، ولا يعنى بها الكبار الذين يصنعون الحوادث ويقرِّرون مصير البلاد والعباد، وأنا أعني البلاد والعباد على مستوى العالم كله، في كل الأزمنة وكل الأمكنة، الصحافة، كل الصحافة، في العالم كله، للناس العاديين، وللاستهلاك اليومي، التاريخ يسجل الحوادث الكبيرة والمفصلية، والكبار الكبار الذين يصنعون التاريخ لا يطلعون على هذه الصحف، الكبار الكبار تصلهم تقارير خاصة أكثر دقة وأكثر أهمية، الصحف بصورة عامة هي للناس العاديين، للاستهلاك المحلي، لإشغال الناس، وجعلهم ينغمسون في الحياة اليومية، ولا يستشرفون أي أفق للمستقبل.

مدير الدار ينهض من وراء مكتبه، يمضي مع أبو جميل إلى الباب، واضعاً يده على كتفه، وهو يعلق:

ـ ولكن لا تخلو هذه الصحف من تحليل وتعليق وتوقعات، أنا أخالفك الرأي، وفيها زوايا للرياضة والأدب والفن.

أبو جميل:

. اعذرني، أنا هذه رأيي.

نتائج غير متوقعة

أبو جميل يخرج من دار الكتب الوطنية، وهو يشعر بزهو، وقد أحس بحافز قوي على العمل، يهبط على الدرج، وكأنه لا يهبط، روحه تصعد.

في طريق العودة إلى البيت اشترى مصباحاً خاصاً بالمطالعة يُثَبَّت على المنضدة، ليقرأ في الليل، من غير أن يزعج زوجته، اشترى دفترين كبيرين ليكتب عليهما، بين كل خمسين صفحة من صفحات كل دفتر ورقة من لون مختلف، سيخصص كل لون لفصل من فصول الكتاب، واشترى دفتراً صغيراً للملاحظات الجزئية، اشترى ثلاثة أقلام، أزرق وأحمر وأسود، الأحمر للنصوص المقبوسة، الأزرق للتعليق على النصوص المقبوسة، الأسود للكلام الذي سينشئه هو.

وفي البيت قال لزوجته:

. لن أنزل بعد اليوم إلى حديقة السبيل، سأقعد في البيت.

. ولا تنزل إلى السوق لشراء الخبز، أنا راجعة إلى البيت سأشتري الخبز.

فور وصوله إلى البيت أكب على القراءة، اتخذ من غرفة ابنه مكتباً له، تناول الغداء في صحن صغير جلبته له زوجته إلى المنضدة، تناول الغداء وهو يقرأ، قبيل المغرب أحس بالنعاس، أعدت له زوجته فنجان قهوة، وتابع القراءة، كان يقرأ بسرعة، بالأحرى كان لا يقرأ، كان كمن يفتش بين السطور عن كلمة كليبر أو سليمان الحلبي، بدأ الصداع يتسرب إلى رأسه، عند التاسعة هجع إلى الفراش لينام.

عند السادسة استيقظ، خرج إلى الشرفة، وقعد يقرأ.

شربت زوجته قهوة الصباح معه في الشرفة، أعدت له في المطبخ مائدة الإفطار، ثم خرجت إلى المدرسة.

حوالى العاشرة رنَّ جرس الباب، وإذا جاره أبو وائل يدعوه للذهاب إلى سوق الخالدية لشراء الطعام.

كان قد قرر ألا يذهب إلى السوق لشراء شيء، سيعيش من الآن فصاعداً للكتاب والثقافة والمعرفة، لكنه لم يستطع الاعتذار لجاره.

بعد نحو الساعة رجع إلى البيت يحمل مؤونة أسبوع، دهش جاره أبو وائل، سأله:

ـ أنت كنت تقول لي دائماً: "سنذهب كل يوم لنشتري كمية قليلة، أفضل من شراء كمية كبيرة، غايتنا من الشراء هي التسلية، وتمضية الوقت"، ولكن أراك اليوم اشتريت ما يكفي لشهر.

ـ نعم، كنت أحب الذهاب إلى السوق كل يوم، كان عندي فراغ، ولكن اليوم ما عندي أي وقت فارغ، بدأت بمشروع ثقافي كبير.

ويحدثه عن عمله في تأليف كتاب عن سليمان الحلبي، أبو وائل يشجعه، ويقول له:

ـ سأتركك في هذا الحال لمشروعك، لن آخذ وقتك.

يضع ما اشتراه في المطبخ، ويسرع إلى الكتاب.

لا بد أن أكتب عن سليمان الحلبي، سأضع كتاباً في ثلاثمئة صفحة، سأكشف عن حقائق جديدة.

في صباح اليوم الرابع من استعارته الكتب استيقظ، رفع رأسه، أحس بالأرض تميد به، اسودَّت الدنيا، الأرض تميل من وراء رأسه نحو الأسفل، ترتفع عند قدميه نحو الأعلى، تميل، أحس كأنه يهوي في حفرة عميقة، استنجد بزوجته، كانت تستعد للخروج إلى المدرسة، ساعدته على النهوض، قعد في الفراش، أحس بألم شديد في رقبته، أخذ يحرِّكها ببطء شديد.

ـ هذا بسبب القراءة، أنت أتعبت نفسك بالقراءة، ونسيت أن في رقبتك مناقير، كل سنة كنتَ تعاني منها في فترة الامتحانات، وتصحيح الأوراق.

وأخذت تدلك عضلات رقبته بهدوء.

أحضرت له حبات سيتامول وحبات فيتامين ب١ وهي تقول:

ـ هذا دواؤك، مع الراحة، اليوم لا تقرأ، أنا سأخرج، لا ضرورة لبقائي معك، لا أريد الغياب عن المدرسة، أنا مطمئنة عليك، ضع الطوق حول عنقك، هو في خزانتك.

ـ لا أحب الطوق.

ـ لا بأس، انزل إذا أردت إلى حديقة السبيل، ولا تقرأ.

لفَّ الطوق حول عنقه، شد رقبته، رفع رأسه إلى أعلى، أعد لنفسه كأساً من مغلي الزهورات، قعد في الشرفة، أخذ يشربه على مهل.

وسرعان ما أحس بالضجر.

نزل إلى حديقة السبيل، وهو يحمل الكتاب معه، اتخذ موضعه في مقعده نفسه. القراءة في الهواء الطلق ممتعة.

يقرأ بهدوء، ويمتع ناظريه بالأشجار، يُسَرُّ لمرور شاب وصبية، يؤنسه الأطفال وهم يلعبون أمامه، يجد راحة في تأملهم على الرغم من ضوضائهم والضجيج.

من الصعب أن يعيش الإنسان في صومعة منصرفاً للمطالعة، الأجمل الجمع بين الكتاب والبشر، هذه هي الحياة.

آخر ما قرأ أن سليمان الحلبي قتل كليبر انتقاماً لصبية كان يحبها، أمر مدهش حقيقة، بل مؤلم، هذا هو التاريخ؟ حتى الآن لا نعرف لماذا أقدم سليمان الحلبي على قتل كليبر؟ ثلاثين سنة وأنا أحكي للطلاب عن غزو نابليون مصر وقتل سليمان الحلبي لكليبر وما خطر ببالي أن يقتل من أجل فتاة أحبها؟ هذا ما زعمه أحد الباحثين، من غير أن يأتي بدليل، قلت للطلاب مرة قتل بدافع الإسلام، فسألني أحد الطلاب: "هل كان سليمان الحلبي من الإخوان المسلمين؟"، ضحكت، لم أتمالك نفسي من الضحك أمام الطلاب، وضحكوا، قلت له: "سليمان الحلبي قتل كليبر عام ١٨٠٠ قبل تأسيس الإخوان المسلمين بأكثر من مئة سنة"، ومرة قلت لهم: "قتل بدافع العروبة، مصر شعب عربي وسورية شعب عربي"، فقال لي أحد الطلاب: "ولكن سليمان الحلبي كردي، وما كان في تلك الأيام من الشائع مفهوم العروبة"، هل أقول لهم قتل بدافع المال لأن والي عكا أعطاه مبلغاً وقال له اقتل كليبر، أو بدافع الانتقام لأبيه إذ سعى لدى والي غزة ليكلم والي حلب ليرفع الظلم عن أبيه تاجر الزيت، فطلب منه عندئذ والي غزة أن يقتل كليبر لأن جيش كليبر كان قد هزم جيشه، وهكذا، وفق رواية الجبرتي يكون سليمان قد قتل بدافع الثأر انتقاماً لأبيه، أو هو قاتل مأجور لصالح والي غزة. بل الأكثر إدهاشاً من هذا كله أن الأسدي يروي في موسوعته عن حلب أن سليمان الحلبي لم يكن كردياً وإنما كان من مدينة حلب ومن أسرة معروفة، وكان قد قتل زوجة أبيه، فنصح له أحد الشيوخ أن يقتل كافراً ليكفِّر عن جريمته، وبذلك يكون سليمان أحمق وقاتلاً محترفاً، هل هذا هو التاريخ؟ الآن بعد ثلاثين سنة من تدريسك مادة التاريخ، الآن فقط، الآن بدأت تشك في التاريخ كله.

ويرن هاتفه الجوال، وإذا أخته رجاء.

. أهلاً رجاء.

. يؤلمني إخبارك باستشهاد شخص عزيز على قلبي.

. زوجك، شفيق، الله يرحمه؟

. ما هو عزيز على قلبي، وروحه لا تستحق الشهادة، ولا حتى الرحمة.

. من؟ شَغَلْتِ بالي.

. صديقتي، عُلا، يرحمها الله.

. لا إله إلا الله، عليها رحمة الله، كيف استشهدت؟

. اليوم الخميس، انصرفت أنا وهي، واشترينا حاجاتنا، وكانت راجعة معي إلى بيتي في الكلاسة، حتى تنام عندي الخميس والجمعة والسبت، مثل عادتها كل أسبوع، وفي المعبر، سمعت طلقة، وإذا هي على الأرض، والدم يكتُّ من رأسها، ما في بيني

وبينها غير أربع أصابع، الرصاصة جاءت في رأسها، فارقت الحياة قبل وصول الإسعاف.

. لا أعرف ماذا أقول؟ يا أختي، بل لا أجد ما أقول، حسبي الله ونعم الوكيل، يرحمها الله، إن شاء الله مع الشهداء والصالحين والأبرار، في جنات النعيم.

يطوي كتابه، ويرجع إلى البيت.

يتناول بضع لقيمات مع زوجته، ثم يدخل إلى غرفة ابنه وقد اتخذ منها مكتباً له، للمطالعة والكتابة.

تدخل عليه زوجته حاملة كأس الشاي، تجده مستلقياً على قفاه في سرير ابنه.

يقول لها:

. شكراً، ضعيه على الطاولة، ولا تفتحي عليَّ الباب.

تعلق:

ـ سليمان الحلبي شغل تفكيرك، وأخذك مني، ليتني ما شجعتك على الكتابة عنه.

تقف صامتة، يطول صمتها، تسأل:

ـ هل أتركك وحدك؟

. نعم، إلى الصباح، ولا توقظيني.

. هل وصلت إلى ما هو جديد؟ هل ستنهي الكتابة الليلة عنه؟ على كل حال، لا ترهق نفسك، أي بحث لا يمكن إنجازه في يوم أو يومين.

. أعرف، أرجوك، اتركيني الليلة وحدي.

تهم بالخروج، ولكنها تلتفت، تسأله:

. كيف هي رقبتك اليوم؟

. بخير.

تخرج، تتركه وحده.

إذا كان التاريخ لم يكتب ما هو حقيقي عن سليمان الحلبي، فماذا سيكتب عن عُلا؟ بل ماذا سيكتب عن كثيرين من أمثالها كل يوم يستشهدون.

طفلة، بريئة، نقية، لم تخطئ، ما ذنبها؟ يرحمها الله، التقيت بها ساعة واحدة، ليتني ما عرفتها، ولا سمعت عنها، كأنها ما جاءت إلى الدنيا ولا ذهبت، أهذه هي الدنيا، أهكذا نمر بها؟ هل هي مجرد معبر؟

أحس اليوم بما أحسست به يوم ماتت أمي، ولكنني عشت مع أمي أربعين عاماً، ولكن لم أعش مع عُلا أكثر من أربعين دقيقة؟ ما الفرق بين أربعين سنة

وأربعين دقيقة؟ ما قيمة الأربعين في عمر الزمن؟ سواء أكانت دقيقة أم ساعة أو سنة؟ مرة أخرى، أهذا هو التاريخ؟ ما الفرق بين أمي وعُلا؟ أمي أحبها وأحترمها وأقدِّرها، ولكنني مررت بساعات كرهتها فيها، وعلا أقدِّرها وأحترمها وقد أعجبت بها، ومرت ثوان شككت فيها وكرهتها، علا مثل أمي وأمي مثل علا، ليرحم الله الاثنتين.

مرة أخرى لا أجد ما أقول، ولا أعرف ماذا أقول.

ولكن المشكلة أننا لو صمتنا لو سكتنا لو كففنا عن الكلام فإننا لا نستطيع أن نكف عن التفكير. نصمت نسكت نخرس، ولكننا نفكر، هناك شيء في الداخل يتكلم، كيف يمكنه أن يسكت؟

وإذا كان سليمان الحلبي قد وجد من يكتب عنه فهل ستجد عُلا من سيكتب عنها أم ستظل مجرد خبر عبر؟ ولنفترض أني كتبت عنها وعنه، فما الجدوى؟.

أربعة أيام أو خمسة، وهو حائر متردد.
هل يزور أخته ليعزيها باستشهاد عُلا؟ هل يتابع القراءة عن سليمان الحلبي؟
أخيراً يقرر ألا يزور أخته، وألا يتابع العمل في بحث سليمان الحلبي.
يحمل الكتب ويهم بالمضي إلى دار الكتب الوطنية.
زوجته تستوقفه، تسأله:
. إلى أين؟ لم تتناول فطورك؟
. سأعيد الكتب.
. هل انتهيت من البحث؟
. لأ، لن أعمل فيه.
. لماذا؟
ـ لم أجد ما هو جديد، والأسوأ هو ما كتبه الجبرتي، تفضلي اقرئي هذه اللغة وهذا الأسلوب، تفضلي.
ويفتح كتاب الجبرتي، يضعه على المائدة في غرفة الطعام، زوجته تقعد، تشرع في القراءة.
يقول لها ساخراً:
. أرجوك اقرئي بصوت مرتفع حتى أستمتع بهذه اللغة.
زوجته تقرأ:
"كان سليمان انشاف بين جماعة ساري عسكر من حد الجيزة وانوجد مخبى في الجنينة التي حصل فيها القتل وفي الجنينة نفسها انوجد الخنجر الذي به انجرح ساري عسكر وبعض حوائج أيضاً بتوع المتهوم فحالاً بدئ الفحص بحضور ساري عسكر منو الذي هو أقدم أقرانه في العسكر وتسلم في مدينة مصر والفحص المذكور صار بواسطة الخواجا براشويش كاتم سر وترجمان ساري عسكر العام ومحرر من يد الدفتردار سارتلون الذي أحضره ساري عسكر منو لأجل ذلك المتهوم المذكور. سئل عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته فجاوب أنه يسمى سليمان ولادة بر الشام وعمره أربعة وعشرون سنة ثم صنعته كاتب عربي وكانت سكنته في حلب. سئل كم زمان له في مصر فجاوب أنه بقي له خمسة أشهر وأنه حضر في قافلة وشيخها يسمى سليمان بوريجي. سئل عن ملته فجاوب أنه من ملة محمد وأنه كان سابقاً سكن ثلاث سنين في مصر وثلاث سنين أخرى في مكة والمدينة...سئل كيف مسكوه في جنينة

ساري عسكر فجاوب أنه ما انمسك في الجنينة بل في عارض الطريق فذاك الوقت انقال له انه ما ينجيك إلا الصحيح لأن عسكر الملازمين مسكوه في الجنينة وفي المحل ذاته انوجدت السكينة وفي الوقت انعرضت عليه فجاوب صحيح أنه كان في الجنينة ولكن ما كان مستخبي بل قاعد لأن الخيالة كانت ماسكة الطرق ...سئل لأي سبب كان تابع ساري عسكر من الصبح فجاوب أنه كان مراده فقط يشوفه.....فلما أن كان المتهوم لم يصدق في جواباته أمر ساري عسكر أنهم يضربونه حكم عوائد البلاد فحالاً انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح فارتفع عنه الضرب وانفكت له سواعده وصار يحكي من أول وجديد كما هو مشروح. سئل كم يوم له في مدينة مصر فجاوب أنه له واحد وثلاثين يوماً وأنه حضر من غزة في ستة أيام على هجين. سئل لأي سبب حضر من غزة فجاوب لأجل أن يقتل ساري عسكر العام. سئل من الذي أرسله لأجل أن يفعل هذا الأمر فجاوب أنه أرسل من طرف أغات الينكجرية وأنه حين رجع لعساكر العثملي من مصر الى بر الشام أرسلوا الى حلب بطلب شخص يكون قادراً على قتل ساري عسكر العام الفرنساوي ووعدوا لكل من يقدر على هذه المادة أن يقدموه في الوجاقات ويعطوه دراهم ولأجل ذلك هو تقدم وعرض روحه لهذا.....هذا الفحص صار من حضرة ساري عسكر منو بحضور باقي سواري العساكر الكبار وملازمين ببيت ساري عسكر العام ثم انختم بإمضاء ساري منو والدفتردار سارتلون في اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه ثم انقرا على المتهوم وهو أيضاً خط يده واسمه بالعربي سليمان....".

أم جميل تضحك، وتضحك، لا تستطيع متابعة القراءة، تتكلم:

. ما هذه اللغة؟

أبو جميل يعلق:

ـ والأسوأ هو اعتماده على محاضر التحقيق مع سليمان الحلبي وروايته ما شاهد من تعذيبه ثم إعدامه بطريقة شنيعة، وعدم تعليقه بشيء، بل كأنه يرى بعيني الفرنسيين وقلبهم، شيء غريب!

يطوي الكتاب، يحمله، ثم يضيف:

. ليس لي نفس بتناول أي شيء، أنا ذاهب إلى دار الكتب الوطنية.

يدخل إلى غرفة المدير، يجد عنده خمسة رجال متقدمين في العمر، يحتلون المقاعد الجلدية العريضة أمام مكتبه، وهو قاعد معهم، يلقي السلام، وعلى الفور ينهض مدير دار الكتب من بينهم يقدمه لهم:

. الأستاذ عبد المجيد حداد، أستاذ مادة التاريخ في إعداديات حلب.

يضيف أبو جميل:

. سابقاً، ولكن الآن أنا متقاعد.

يعلق أحدهم:

. هذا يعني أنك خرجت من جماعة المعلمين.

يضحك الجميع وهو يحييهم مصافحاً واحداً واحداً.

المدير يدعوه إلى الجلوس، ثم يعرفه عليهم:

ـ الدكتور سمير أستاذ علم اجتماع بجامعة حلب، القاضي والمستشار الأول عماد، الطبيب الجراح ميشيل، القاص والروائي سامي، وهو طبيب أيضاً، سيادة العقيد المتقاعد تامر.

ويمضي مدير الكتب إلى مكتبه، يقعد وراءه، بعد أن أخلى مكانه بينهم لأبو جميل.

المدير يتابع كلامه وهو وراء مكتبه:

. الإخوة كلهم مثقفون، وهواة مطالعة، وهم يجتمعون عندي هنا كل يوم أربعاء من الساعة الحادية عشرة، ولا ينفض المجلس حتى الساعة الثالثة عند نهاية دوامي.

أبو جميل ينهض من مكانه يتقدم من مكتب المدير، يضع الكتب على المنضدة أمامه، وهو يقول:

. أشكرك أستاذ، أقدر لك إعارتي هذه الكتب، اعذرني، تأخرت في إعادتها.

ينظر المدير في السجل أمامه، ثم يعلق:

. أهلاً بك، أنت استعرتها قبل عشرة أيام فقط، هل توصلت إلى ما هو جديد؟

أبو جميل، يصمت ثم يتكلم ساخراً:

. نعم، توصلت إلى ما هو جديد، خلاصته: التاريخ كلَّه مزيف، وكتابته تابعة للرغبات والأهواء، وليس هناك حياد ولا نزاهة ولا موضوعية، ومن المخجل توصلي إلى هذه النتيجة، وأنا في هذا العمر، بعد ثلاثين سنة من تدريس التاريخ.

الدكتور سمير يعلق:

. اسمح لي القول بصراحة، أنت ما كنت تدرِّس التاريخ وما كنت تدرُسه، أنت كنت تقوم بدور المعلم فقط، تحفظ مثل الطلاب ما هو مكتوب في الكتاب المدرسي وتعيده عليهم، اليوم، قرأتَ كتابين أو ثلاثة، فوصلتَ إلى ماوصلتَ إليه، أنت لم تعرف التاريخ إلا بعد تقاعدك، أي بعد خروجك من جماعة المعلمين.

يتدخل القاضي والمستشار سائلاً:

. دكتور سمير، سمعتك اليوم تستعمل مرتين كلمة جماعة لتصف بها المعلمين، ما سبب اختيارك هذا الوصف؟ لا أرى المعلمين جماعة ولا طبقة، هم شريحة من شرائح المجتمع، الجماعة مصطلح ذو طابع ديني يطلق على من يخضعون في تفكيرهم وعاداتهم لشخص يتبعونه في كل شيء، وينقادون إليه.

الدكتور سمير يضحك، ويعلق:

ـ أشكرك سعادة المستشار، أنت أعفيتني من التوضيح، هذه حال المعلمين، يعيشون في وَهْمِ العلم، وامتلاك المعرفة، ويتبعون المنهج التعليمي المقرر، ويحرصون على التمسك به، ويحفظونه ولا يخرجون عليه، ويسعون إلى إرضاء مديرهم، خوفاً من العقاب، ورغبة في استبقاء الراتب الهزيل الذي يتقاضونه أو بعض الساعات الإضافية التي تساعدهم على العيش.

الطبيب ميشيل يضحك ويضيف:

ـ ولعلنا نحن الأطباء أيضاً جماعة، مثل جماعة المعلمين.

الدكتور سمير يعلق:

ـ تحولتم إلى جماعة منذ زمن، فقد أصبح همكم المال والترف والبطر في المعيشة وزيادة الدخل، وتوقف علمكم عند ما تلقيتموه في مرحلة التخصص، وكل همكم زيادة الدخل.

القاص والروائي سامي يتكلم:

. دعونا من هذه التصنيفات الاجتماعية، نريد معرفة الموضوع الذي بحث فيه الأستاذ عبد المجيد، والسبب في حكمه على التاريخ.

مدير دار الكتب الوطنية يتكلم:

. الأستاذ عبد المجيد كان يريد إعداد بحث عن سليمان الحلبي.

يضيف عبد المجيد:

. والآن توقفت، ولن أكتب أي حرف.

يسأله القاضي:

. ولماذا؟

يتكلم عبد المجيد:

. ليس هناك حقائق، كل ما في التاريخ أوهام، تخيلات، مصالح، أهواء، هذا هو رأيي الشخصي، هو مجرد انطباع.

ويحدثهم عبد المجيد عما رُوِيَ عن دوافع سليمان الحلبي إلى قتل كليبر وفق ما روته كتب التاريخ.

ثم يضيف:

. وأكثر ما ساءني ما رواه خير الدين الأسدي عن دافع سليمان الحلبي إلى قتل كليبر، الحقيقة كنت أمجِّد الأسدي وأقدِّره، ولكن أجد نفسي اليوم مضطراً إلى مراجعة كل قناعاتي.

ويسأله القاضي:

. وماذا روى؟

. تفضل، هذا هو الجزء الرابع، وقد تكرم الأستاذ خالد فأعارني إياه، تفضل اقرأ هذه الأسطر هنا في الصفحة ٣٨٨

أبو جميل يناول القاضي الجزء، فيشرع في القراءة:

"شاب متحمس جاهل من أسرة ونِّس في محلة المستدمية، داره لا تزال، قتل امرأة أبيه وخاف عقاب الآخرة، فأشار عليه شيخ أن يقتل كافراً ليغفر الله له، وكانت أخبار نابوليون في مصر حديث الناس، فارتأى أن يسافر إلى مصر ويقتله".

الدكتور سمير يعلق:

. هذا مناف للحقيقة والتاريخ، كيف يثبت الأسدي هذا في موسوعته؟ أنا من قبل كان عندي قناعة والآن ثبتت، وخلاصتها: لم يكن الأسدي سوى جمَّاع، ولم يكن يمتلك أي منهج علمي أو خطة في توثيق التراث الشعبي.

ويتكلم الطبيب ميشيل:

ـ ولكن هذا لا ينقص من قيمة موسوعته الضخمة، وهي أول موسوعة في الوطن العربي توثِّق الألفاظ العامية في حلب، وتحفظها، وتشرح معانيها، وتردها إلى أصولها في العربية الفصيحة، أو إلى أصولها في اللغات الأخرى من فارسية أو عبرية أو سريانية، وكفاه فخراً حفظه تراث حلب الشعبي، بما فيه من أمثال وتعبيرات وحكم ومواويل وطرائف.

ويعلِّق القاص والروائي سامي:

. ولكنه لم يدوِّن أي حكاية من الحكايات الشعبية المعروفة في حلب.

ويتدخل الأستاذ خالد مدير الدار:

ـ على كل حال ليس الأسدي ولا موسوعته هي موضوعنا، موضوعنا هو سليمان الحلبي، واسمحوا لي فقط بقراءة ما أثبتته هنا الآنسة بيانكا ماضية في كتابها من حقائق عن سليمان الحلبي، حيث تقول في الصفحة ١٧، "هو سليمان محمد أمين الملقب بالحلبي ولد عام ١٧٧٧ في قرية كوكان فوقاني الجزرونية التابعة لمنطقة عفرين في الشمال الغربي من مدينة حلب، من أب متدين اسمه محمد أمين من عائلة أوس قوبار....أرسله أبوه عام ١٧٩٧ برًّا إلى القاهرة ليتعلم في الأزهر .....", إلى آخر ما هو معروف من سيرته.

ويسأل أبو جميل:

. وهل استطاعت الباحثة التوصل إلى ما هو جديد؟

ويتكلم مدير الدار:

ـ في الحقيقة أنصفته، فقد أوردت آراء المدافعين عنه من مثل الدكتور شاكر مصطفى والباحث خالد الجر والأستاذ هاني الخير، وقد شاركتهم الرأي في دافعه، وهو التخلص من المحتل الدخيل والغيرة على البلد مصر، وأدانت رواية الجبرتي الذي

لم يكن أكثر من مترجم، وأشارت إلى إدانة كثير من المثقفين لموقف الجبرتي المعجب بالفرنسيين، وتحدثت عن محاولة سورية استرداد رفاته لدفنها في سورية، كما تحدثت عن زيارتها إلى باريس ومحاولتها رؤية جمجمته المحفوظة في متحف الإنسان بوصفها جمجمة مجرم، والكتاب مشوِّق، وقراءته ممتعة، وأنصح لك، يا أستاذ عبد المجيد بقراءته.

أبو جميل يتكلم:

. أنا أصبت بإحباط شديد، وستصيبني قراءة الكتاب بإحباط أشد.

ويتكلم القاص والروائي سامي فيقول:

. أنا سأعيرك من مكتبتي مسرحية، هي من أروع ما قرأت عن سليمان الحلبي، من تأليف الكاتب المسرحي المصري ألفريد فرج.

يقاطعه أبو جميل:

. ولكنها مسرحية، ولا يمكن اعتبارها مصدراً للتاريخ.

ويعلق القاص والروائي سامي:

ـ ولكنها مصدر للخبرة الإنسانية، والتجربة، وهي أكثر عمقاً من التاريخ نفسه وأكثر جمالاً، بل أكثر غوصاً إلى أعماق النفس البشرية، لأن الفن يحلل ويفسر، والتاريخ، بصورة عامة، ولا سيما التاريخ القديم، يكتفي بذكر الروايات والأخبار، وهذه هي روعة الفن، وكما يقول أرسطو: الشعر أكثر فلسفة من التاريخ، فالتاريخ يروي ما وقع فعلاً، أما الشعر فيروي ما يمكن أن يقع، فهو أكثر شمولاً من التاريخ، وأرسطو يتكلم هنا على الشعر المسرحي، أو بالأحرى على التراجيديا، ولا يتكلم على الشعر الغنائي، اسمحوا لي جميعاً بإعطائكم فكرة عن المسرحية، وبعد ذلك يمكن مناقشة المسرحية.

المدير يتكلم:

. اسمحوا لي فقط، سأستدعي الموظف على الحاسب ليبحث لنا عن المسرحية، وسأدعو الآذن لأوصيه لكم على القهوة أو الشاي.

ويتكلم القاص والروائي سامي:

. صور لنا ألفرد فرج في مسرحيته سليمان الحلبي طالب علم، وهو في الحقيقة كذلك، وقد جاء إلى الأزهر ليدرس الحقوق ويصبح قاضياً، وقد هاله ما رأى من دمار القاهرة بعد ثورتها الأولى، فقد ضرب كليبر الأزهر بالمدافع، ودمر بعض أجزائه، واعتقل قادة الثورة من شيوخ الأزهر وطلاب العلم فيه، وفرض إتاوات عالية على الشعب، وكان سليمان وهو يدخل إلى القاهرة من طرف الصحراء قد رأى رجلاً يسمى حداية وهو يسرق المصريين ويشنق بعضهم، ثم رآه بعد أيام في القاهرة، ونادى الجنود الفرنسيين، فألقوا القبض عليه، ولكن بعد بضعة أيام رآه يجبي الأموال من المصريين

وأربعة من الجند الفرنسيين يسيرون معه لحمايته، إذ أقنعهم بأنه يسرق المصريين لا الفرنسيين، فعينوه جابياً للضرائب، وكان لحداية بنت صغيرة، وكان يضربها ويؤذيها، فأخذها سليمان إلى أحد مشايخ الأزهر، فآواها عنده، ولكنها هربت، ثم رآها سليمان وقد استباحها الجند الفرنسيون وهي تغني لهم وترقص وتشرب، فأدرك سليمان حقيقة، خلاصتها: الفرنسيون لصوص وقتلة ولا ولاية لهم على البلد ولا يمكنهم حماية البلد ولا إقامة العدل.

ويدخل الآذن يوزع عليهم الشاي والقهوة، ويتابع الروائي والقاص سامي كلامه:

ـ لقد رأى سليمان الحلبي ميزان العدل وهو يختل، ورأى الشعب يُظْلَم، ولا أحد يستطيع فعل شيء، فتوصل إلى قرار وهو قتل كليبر، وكان عليه هو نفسه التنفيذ، فهو القاضي والجلاد.

ويعلق القاضي:

ـ إذن، سليمان الحلبي وفق هذه المسرحية كان دافعه هو مجرد العدل بمعناه الإنساني المطلق.

ويعلق القاص والروائي سامي:

ـ وأجمل ما في المسرحية مشهد يلتقي فيه سليمان الحلبي بالجوقة في حديقة القصر، على طريقة المسرح الإغريقي، فتسأله الجوقة عما ينوي فعله، فيكون جوابه: القتل قتلاً هادئاً عادلاً بارداً، من غير انفعال، وهو قتل قاده إليه . كما يؤكد للجوقة . عقله، لا انفعاله، ثم تلتقي الجوقة كليبر، فتسأله عن أوضاع القاهرة فيؤكد بزهو وغرور قدرته على فرض الهدوء، وتسأله الجوقة: ألا يوجد من يتغلب عليه؟، ويكون جوابه بسؤال يطرحه على الجوقة نفسها: من سيتغلب على الأقوى والأذكى والأغنى؟، وعندما يطعنه سليمان الحلبي يقول كليبر: لقد أجبتني.

أبو جميل يهتف:

ـ رائع، عمل عظيم، هذه المسرحية جديرة بالدراسة والنقد والعرض والتمثيل والترجمة إلى كل لغات العالم.

ويضيف القاص والروائي سامي:

ـ والجميل في المسرحية ظهور شخصية مهندس شاب يدعى جابلان كان يعارض سياسة كليبر ويستنكر فرضه الضرائب الباهظة على الشعب، وهذا يعني وجود من يعرف معنى الحق والعدل في قلب قوى الظلم والقهر.

ويدخل الموظف حاملاً مسرحية سليمان الحلبي، يقدمها إلى المدير.

ينهض القاص والروائي سامي، يستأذن المدير في أخذها من الموظف، ويسرع إلى فتح الرواية، ليقرأ فيها بضعة أسطر وهو يقول:

. اسمحوا لي، ساقرأ عليكم بضعة أسطر من خطبة ألقاها كليبر في حفل أقامه بمناسبة إخماده ثورة القاهرة، وقد حضره كبار الضباط، وفيه يعلن عن اتخاذه القرار بفرض ضرائب كبيرة على المصريين، ويسأله الضابط الشاب جابلان الذي ذكرته لكم منذ قليل إن كان في إمكان الشعب المصري دفع مثل تلك الضرائب، فيقول كليبر معتداً بنفسه.

ثم يقف القاص والروائي سامي متخذاً وضعية الاستعداد، مولياً ظهره إلى باب الغرفة المغلق، كأنه يسد عليهم الغرفة، نافخاً صدره في زهو واعتداد، كأنه يقوم بدور كليبر، ويشير بيده مثل هتلر، ويلقي الخطبة:

. "لا أريده أن يدفع، أريده أن يركع، سيُضرَب ويُهان ويُمَرَّغ في التراب، ولن يفي بالغرامة أبداً، سيبيع كل ما يملك –هذا إن وجد مشترياً– حتى لا تبقى له إلا زوجته. فليطرحها في مزاد بين جنودي، ولن يفي بالغرامة أبداً، وبعدئذ نشتري أنقاض بيته بالثمن الذي نراه، لننتفع بحجارته في بناء وترميم القلاع، سنجعله يشهد بعينيه بيته يقتلع من الأساس، ولن يفي بالغرامة أبداً، فليبع بعد ذلك روحه للشيطان أو للسلطان: كليبر، أنا سأشتريه جسداً وروحاً بعشرة فرنكات، ولن يفي بالغرامة أبداً".

يعود إلى مقعده، يصفق له الجميع، القاضي والمستشار يعلق:

. أحسنت، أحسنت، تفوَّقت على كليبر نفسه.

الطبيب ميشيل يعلق:

. احذر، قد يكون بيننا من هو سليمان الحلبي.

تعلو الضحكات، مدير الدار يعلق:

. اطمئن، زمن تلك البطولات انتهى، والتاريخ لا يكرر نفسه.

يتكلم أبو جميل، فيقول:

. مؤلف هذه المسرحية، والله، أصدق من كل المؤرخين.

ويعلق المستشار:

ـ صدقت، فهو يكشف عن بواطن الإنسان وأعماقه، ولا يقف عند تسجيل الحوادث.

ويضيف المدير:

ـ ولذلك، الأستاذ سامي مصمم على كتابة رواية يؤرخ فيها للواقع الراهن في حلب.

القاص والروائي سامي يعيد المسرحية إلى المدير، وهو يتكلم:

ـ الحقيقة، أنا أرغب، أفكر، أخطط لكتابة رواية عن الواقع الراهن في حلب، ولكني متردد، لا أعرف كيف سأكتب، بأي طريقة كتبت، فأنا غير وفيٍّ للواقع، وغير

صادق معه، وأي كتابة لن تنال رضا أي قارئ، لأن الواقع أكبر من أي كتابة، سواء أكانت قصة أم رواية أم دراسة، المشكلة أكبر.

ويتكلم الدكتور سمير معلقاً بقدر قليل من الدعابة وهو يبتسم:

ـ هذا يعني، يا أستاذ سامي، الخيبة والفشل، أو كما يقال: الإخفاق، حتى لا يغضب منّا مدرسو اللغة العربية، فأكثرهم يعتبر استعمال الفشل بمعنى الإخفاق خطأ، فالفشل يعني في الأصل الضعف، وينسى هؤلاء ما يطرأ على ألفاظ اللغة من تطور في المعاني بفعل الاستعمال، ونحن نستعمل الألفاظ بمعانيها المتداولة لا بمعانيها الدقيقة التي هي في المعجم، وإذا دققنا في كل كلمة نقولها أو نكتبها ما استطعنا كتابة حرف.

ويتكلم القاص والروائي سامي:

ـ دكتور سمير، أنت استطردت، وشغلت ذهني بمسألة الألفاظ، أتمنى إعادة سؤالك.

الدكتور سمير يتردد، يتكلم:

ـ والله أنا نفسي نسيت، ماذا سألتك؟ هل تتذكر أنت؟

ويستغرق الجميع في الضحك، ويتكلم مدير الدار الأستاذ خالد موجهاً كلامه إلى القاص والروائي سامي:

ـ كان السؤال شبه تعليق على كلامك يا أستاذ سامي، فقد قلت أنت: المشكلة أكبر، ومن الصعب الكتابة عنها، وأي كتابة عن حلب لن ترضي أي شخص، وقد اعتبر الدكتور سمير رأيك هذا بمنزلة الفشل وإذا شئت الإخفاق.

ويرد القاص والروائي سامي:

ـ لا، أنا لم أفشل، ولم أخفق، أنا لم أقل: لن أكتب، أنا قلت حرفياً: "لا أعرف كيف سأكتب، بأي طريقة كتبت، فلن أكون وفياً للواقع"، وهذا لا يعني الفشل، ولا يعني الإخفاق، ولا يعني عدم الكتابة، أنا أَعِدُ الجميع، وبشيء من التحدي: سوف أكتب.

ويتكلم أبو جميل:

ـ الذي فشل، في الحقيقة، والذي أخفق، هو أنا، أنا لن أكتب.

ويتدخل الدكتور سمير:

ـ ما أقصده بالضبط: كتابة رواية الآن عن الواقع الحي والمباشر أمر صعب، لأننا ما زلنا في غمرة الحوادث، ما زلنا نعيشها، وأي كتابة ستكون ردة فعل، ولن تكون ذات طابع موضوعي، لا يمكن كتابة رواية إلا بعد انتهاء الحوادث، وجلاء الأمور، ومعرفة الحقائق، ولا بد من مرور بعض الوقت، حتى تختمر الأفكار، عندئذ

يمكن كتابة رواية، الآن، في تصوري يمكن كتابة قصيدة، لأن الشعر آني ومباشر، وهو نتاج الانفعال، وهو تعبير عن ردة فعل.

ويتكلم القاص والروائي سامي مرة ثانية:

. عفواً أخي الدكتور سمير، هذا الكلام نظري، وهو منطقي، ولكن قد يكون لدى الكاتب من الموهبة وقوة البصيرة ما يمكنه الكتابة وهو في قلب الوقائع، أما كلامك على الشعر، فهذا من ناحية نظرية ومن ناحية منطقية صحيح، ولكن الشعر الحديث لم يعد مثل الشعر القديم، شعر مناسبات، أصبح الشعر الحديث يعبر أيضاً عن رؤية موضوعية، بالمعنى الفني للموضوعية، لا المعنى العلمي، ولم يعد ردّة فعل، الشعر الحديث هو رؤية وتعبير عن موقف.

ويتكلم المستشار، فيقول:

ـ الحقيقة نحن ألفنا في الشعر تعبيره المباشر، وألفنا فيه تلخيص الموقف كله في بيت واحد، يكون مسك الختام أو بيت القصيد، أو يكون في مطلع القصيدة، كقول أبي القاسم الشابي:

إذا الشـــــــعب يومــــــــاً أراد الحيـــــــاة

فـــــــلا بـــــــد أن يســـــــتجيب القـــــــدر

وكثيراً ما نميل إلى أبيات الحكمة ونفاخر بحفظ بيت أو بيتين، هذه هي نظرتنا الجزئية للأمور، وأنا من خلال عملي السابق في القضاء، أدرك خطورة هذا الفهم حتى في الشعر، لا بد من الإحاطة بحيثيات القضية كلها، والنظر إلى جزئياتها وتفاصيلها بنظرة كلية شاملة تسمى في الألمانية الجشطلت، وهذا ما تحققه الرواية، ولكننا للأسف، حتى في الرواية، ننسى البنية الكلية، نحن القراء، ولا نبحث في قراءتنا للرواية عن الرؤية الشاملة، ونقف عند بعض التفاصيل والجزئيات، ونرى قيمة الرواية في كلمة أو جملة أو مقطع، ولا يعجبنا إلا الكلام التقريري المباشر، لأن استخلاص الفكرة من الموقف أو من مجموع الحوادث أو من مجمل الرواية في الحقيقة أمر صعب، وقيمة الرواية والمسرحية والقصيدة وأي عمل أدبي أو فني في بنيته الكلية الشاملة، لا في جزء من أجزائه، نحن بحاجة لا إلى معرفة الواقع والأدب والفن، فقط، نحن بحاجة إلى معرفة المنهج الذي يجب معرفة الواقع من خلاله، المنهج، وطريقة الفهم والتفكير، وأسلوب النظر إلى الأمور، هي الأمور التي نحن بحاجة إليها.

ويصمت ثم يضيف:

ـ اعذروني أيها الإخوة، كلامي طال، ونبرتي كانت وعظية وتعليمية ومباشرة، وأنا لا أعنيكم أنتم بالذات، أنا أتكلم على حالة عامة، أرجوكم سامحوني، نضطر كثيراً إلى الإطالة والإسهاب وعلو النبرة، لا أعرف لماذا.

ويسأل الدكتور ميشيل:

ـ أخي الدكتور سامي، كيف ستكتب رواية عن الواقع الحالي؟ إلى أي فريق سوف تنتصر؟ وكيف ستصور المتقاتلين؟

ويتكلم القاص والروائي سامي، وهو يبتسم:

ـ أنا لن أصور الحروب ولا المعارك ولا المتقاتلين، ولن أحشد الأسلحة لا الخفيفة ولا الثقيلة، أنا سأصور معاناة الناس البسطاء العاديين في هذه الظروف، وللقارئ الحق في فهم ما يشاء، سأتصور نفسي وأنا أكتب مسرحية، لا يمكن حشد الجيوش فيها ولا الأسلحة ولا العتاد.

ويعلق المستشار:

ـ أظنك لن ترضي أي قارئ، لأن القارئ يتوقع دائماً مشاهد الحرب والقتال، وينتظر معرفة وجهة نظر الكاتب ورأيه المباشر في كل ما يجري.

ويرد القاص والروائي سامي:

. أعرف هذا، وقلت هذا من قبل، وأنا لا أسعى إلى إرضاء مثل هذا القارئ.

ويتكلم الدكتور ميشيل، فيقول:

. وهل سيصنع الأدب أي شيء؟ هل سيقدم أي حل؟ ألف قصيدة وألف رواية لا تساوي رصاصة واحدة.

ويتدخل أبو جميل، فيعلق بقوة:

ـ نعم، صدقت ما فائدة الأدب؟ وما فائدة التاريخ؟ كله كلام بكلام، لا جدوى، الرفوف مملوءة بآلاف الكتب، هذا مخزن المكتبة بجوارنا، وها نحن في دار الكتب الوطنية، الكتب تتضمن الكلام الجميل، وتتحدث عن القيم والأخلاق، والواقع بخلاف ذلك كله.

القاص والروائي سامي يبتسم بهدوء ويتكلم:

ـ الكلمة لا تقارن بالرصاصة، هذه لها وظيفة وتلك لها وظيفة مختلفة، الرصاصة تعدم الحياة، والكلمة تصنع الحياة، الكلمة تحيي والرصاصة تميت، وليست مهمة الأدب حل أي مشكلة، وليست مهمته طرح الحل، الأدب يعرِّف الإنسان على الواقع، ويرفع درجة الإحساس به، وينبه الوعي، يكفي الأدب شرفاً تقديمه للإنسان متعة الإحساس بجمال الحياة.

ويتدخل المدير، فيتكلم وهو يتوجه إلى أبو جميل، يريد إنهاء الحوار في هذا الجانب:

. أستاذ عبد المجيد، هل تريد قراءة المسرحية أو كتاب الآنسة بيانكا؟ هل أطلب من الموظف تسجيل الكتابين باسمك في سجل الإعارة؟

أبو جميل يتكلم:

. لا، لا، وأشكرك، أنا قررت، لن أكتب عن سليمان الحلبي، فكرت في مشروع آخر.

ويسأله المدير:

. ما هو؟

. مللت من التاريخ والماضي، سأكتب عن المستقبل.

ويسأله الدكتور سمير:

. عن أي مستقبل سوف تكتب؟

. المستقبل العربي.

وتنهال عليه التعليقات:

ـ الكتابة الحقيقية كتابة متخصصة، من الضروري تحديد المجال، مستقبل التعليم، مستقبل الثقافة، المستقبل الاقتصادي، المستقبل العسكري، ولا بد من تخصيص القطر، مصر، أو سورية، أو تونس أو العراق.

ـ وهذا لا يكفي، لا بد من تخصيص جانب دقيق: في التعليم: تختار التعليم الابتدائي أو الثانوي أو الجامعي، أو تعليم اللغة الإنكليزية أو العربية، أو العلوم.

. الدراسات المستقبلية تحتاج إلى فريق عمل، ولا يمكن أن يقوم بها دارس واحد.

ـ بل تحتاج إلى مؤسسات ترعاها، في أمريكا وحدها أربعون مركز استراتيجي للدراسات المستقبلية.

ـ وتحتاج إلى بيانات وإحصاءات وقاعدة معلومات.

ويعم الصمت، ثم يتكلم الدكتور سمير:

. قبل القيام بالدراسات المستقبلية لا بد من دراسة الماضي، نحن حتى الآن لم ندرس الماضي.

المدير يتكلم:

ـ قبل يومين وصلني عدد جديد من مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد خاص بالمستقبل، العدد ما يزال في التصنيف مع كتب ومجلات جديدة، سأطلب من الموظف إحضاره، حتى لو لم يصنف.

ويتصل المدير هاتفياً بموظف يطلب منه إحضار العدد من مجلة عالم الفكر.

يدخل الموظف ليقول:

. العدد غير موجود بين الكتب والمجلات الجديدة.

يعلق المستشار:

. المستقبل ضاع.

ويرد المدير:

ـ لأ، المستقبل لا يضيع، ولا العدد يضيع، لا شيء يضيع، ربما كان الأستاذ محمد جديد قد استعاره، وهو اليوم في إجازة، لعل الأستاذ عبد المجيد لا يعرفه، يعرفه باقي الإخوة، الأستاذ محمد جديد من خيرة المثقفين، وهو يجيد الألمانية والإنكليزية وترجم عنهما عدة كتب قيمة.

يضيف الدكتور سمير موجهاً كلامه إلى أبو جميل:

ـ على كل حال استرحت من البحث ومن المستقبل.

ويعلق المستشار متوجهاً بالسؤال إلى أبو جميل:

ـ لكن المشكلة في الفراغ، كيف ستملأ فراغك؟

ويتكلم القاص والروائي سامي، فيقول:

ـ نحن نلتقي هنا كل يوم أربعاء، من الحادية عشرة حتى الثالثة، انضم إلينا، لقاءاتنا قائمة على الحوار وتبادل الأفكار.

أبو جميل يحس بشيء من الراحة، يعلق:

ـ في الحقيقة لا وقت للفراغ عندي، أنا أنزل يومياً إلى حديقة السبيل، أقعد فيها، أستمتع بالهواء الطلق، وأتأمل في هذا الكون، بيتي مقابل حديقة السبيل.

أبو جميل يهم بالنهوض.

ويدخل شاب في نحو الثلاثين، يحمل مجموعة كتب، يحيي الجميع ثم يتكلم:

ـ أنا محمد خواتمي، من حلب، مجاز في قسم التاريخ، ألفت خمسة كتب لليافعين عن بعض الأعلام في حلب من أجيال ومراحل مختلفة.

ويعرض عليهم الكتب واحداً واحداً:

ـ هذه هي من غير ترتيب تاريخي، إبراهيم هنانو ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وعبد الرحمن الكواكبي وسيف الدولة الحمداني وسعد الله الجابري، طبعها لي عبد السميع عفش في مكتبته دار الشرق، هي في الحقيقة مؤلفات متواضعة، وليست بحوثاً علمية، هي كتب لليافعين لمن هم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وأنا أقدمها هدية لدار الكتب الوطنية.

المدير يتكلم:

ـ أشكرك، وأقدِّر لك هذه الهدية، سوف نسجلها ويكون لها تصنيفها، وقد بدأت بصنع خزانة خاصة بمؤلفات الكُتَّاب من أبناء مدينة حلب، وخزانة أخرى خاصة لكل ما كُتِب عن حلب.

يسأله أبو جميل:

ـ متى تخرجت؟ ومن أي جامعة؟

ـ تخرجت قبل سنتين فقط، ومن جامعة حلب.

ويسأله:

. ما الوقت الذي احتجته لتأليفها؟

. أقل من سنة.

أبو جميل يسقط في دوامة، يشعر بالاختناق، يحس بالضيق، يتنحنح، يهم بالنهوض، ولكن الآذن يدخل بالقهوة.

وتدخل سيدة دون الخمسين من العمر، تحمل مجموعة كتب، تناولها للمدير، وهي تقول:

. شكراً لجهودك.

المدير يقدمها لضيوفه:

. السيدة سلمى، باحثة من لبنان، أستاذة في الجامعة اللبنانية ببيروت، أمضت أسبوعين في حلب، وهي تعد بحثاً عن عبد الرحمن الكواكبي.

ويدعوها إلى الجلوس، ثم يقدم لها ضيوفه، ويدعو الآذن ليقدم لها فنجان قهوة مرة ثانية.

تتكلم بهدوء:

. أشكر الأستاذ خالد مدير الدار، فقد أعارني عدة كتب وسمح لي بأخذها إلى الفندق، واستكملت مطالعتها هناك، كما سمح لي بتصوير بعضها، والأهم من هذا أنه عرفني على عدة باحثين عندكم هنا في حلب، منهم الأستاذ محمد قجة، الذي اكتشف الموقع الذي كان فيه بيت المتنبي، وحوَّل الدار القائمة حالياً في الموقع إلى بيت للمتنبي، وعرفني على الدكتور جمال طحان، الذي أعدَّ كتاباً عن الكواكبي وأشرف على طبعة جديدة من كتابيه طبائع الاستبداد وأم القرى، كما عرفني على حفيد الكواكبي، وزرت حفيده في الفيلا الخاصة به في حي الشهباء، وأقدر له كرم ضيافته.

ويقاطعها أحدهم:

. نريد نتائج بحثك.

ترد بهدوء:

. مازلت أعمل في البحث، ومجريات البحث دائماً أهم من نتائجه، ولكن، من أهم نتائجي الأولية هو تمثيل الكواكبي لبيئة حلب في سكانها ومجتمعها وعاداتهم وتقاليدهم، معظم الدارسين قبلي، ولا سيما الدكتور جان داية من لبنان، وأنا مدينة له بالفضل، وهو أستاذي، معظم الدارسين قبلي اهتموا بأفكار الكواكبي ومصادرها وتعبيرها عن عصرها، أنا أردت أن أكتشف العلاقة بين فكر الكواكبي ومجتمع حلب في عصره، واستطعت في الأسبوعين الماضيين، وفي أثناء تجوالي في أسواق حلب وشوارعها وحاراتها القديمة وأحيائها الحديثة ومقابلتي لعدد من المثقفين وتعاملي مع عدد كبير من الناس، استطعت التعرف في فكر الكواكبي على ما يمثل المجتمع في حلب.

ويسألها أحدهم:

. كيف مثَّل فكر الكواكبي المجتمع في حلب؟

تجيب بعفوية:

ـ هناك انطباعات كثيرة، وأنا أسميها انطباعات، ما تزال تحت البحث، وقد سجلت مئات المقابلات، وسوف أراجعها، ولكن أهم هذه الانطباعات فكرتان: الجدِّيَّة والرصانة والرغبة في الوصول إلى الهدف مباشرة ومن أقصر الطرق، ويؤكد هذا أسئلتكم الآن، كلها أسئلة جادة ورصينة وكل منكم يريد الوصول إلى النتائج مباشرة.

ويعلق أحدهم:

. ولكننا نحب الطرب، ولا تنسَيْ القدود الحلبية والموشحات وصباح فخري.

تبتسم وترد:

ـ هذا كله لا يتناقض مع الجدية ولا يلغيها، بل هذا الطرب هو تعويض عن الجدية، أو هو نوع من التوازن مع روح الجدية في المجتمع الحلبي، بصراحة، عندكم هنا في حلب صلابة وخشونة وقسوة، نحن في لبنان، وبيروت خاصة، أكثر مرحاً منكم، أو أكثر حيوية، حتى الناس هناك في دمشق أكثر منكم مرونة.

يعلق آخر:

. هذا يعني أننا نعاني من القمع والكبت.

وترد:

. ليس بهذا التعبير.

ويضيف آخر:

. ولكن لا تنسي أن الكواكبي توفي عام ١٩٠٢ ونحن الآن في عام ٢٠١٣ بيننا وبينه أكثر من مئة عام.

تعلق:

ـ نعم، هذا صحيح، ومجتمعكم تطور خلال مئة السنة الماضية، وفي هذا ما يدل على مجتمع كان أكثر جدية وقسوة مما هو عليه الآن، وهذه ملامح عامة، قد لا تنطبق على كل الأفراد، هي أشبه بالحمض النووي، وبإيجاز: ما يميز حلب هو الجدية، قد يرجع هذا إلى النكبات الكثيرة التي مرت بها المدينة، من زلازل دمرتها عدة مرات، وغزوات خارجية اجتاحتها، وأنا على كل حال أود تقديم شكري وامتناني لأهل حلب جميعاً، وعندما أنشر كتابي سيكون هدية إلى حلب.

ويتكلم مدير الدار:

ـ ونحن نشكر لك اهتمامك بمفكر من حلب، ويسرني باسمي واسم الزملاء جميعاً دعوتك أنت وجميع الزملاء الحاضرين إلى تناول الغداء في بيتي، وهي دعوة

خاصة، كنت أتمنى دعوتكم إلى المطعم باسم دار الكتب، ولكن ليس عندي مخصصات للضيافة من هذا النوع.

تعلق:

. أِشكرك أستاذ خالد، أنا جئت على نفقة الجامعة، وعندي شيك، وجميع النفقات سوف تعوضها لي الجامعة، بما فيها ثمن البنزين والتأمين على سيارتي، بالإضافة إلى كل الفواتير، فواتير المطعم والفندق، مع مكافأة البحث، بل أنا أدعوكم جميعاً إلى مطعم حديقة السبيل، أنا سألت الكرسون في الفندق عن مطعم مفتوح في الهواء الطلق في وسط حديقة من حوله الأشجار والمياه، فنصح لي بمطعم حديقة السبيل.

يتكلم المدير:

. باسمي واسم زملائي نشكرك، ولا نريد تحميلك أي عبء، نعم، كلام الكرسون في الفندق صحيح، وننصح لك حقيقة بزيارة حديقة السبيل وتناول الغداء فيها، فهي مريحة وجميلة.

تتكلم:

. وهل حديقة السبيل بعيدة عن الفندق؟

المدير يتكلم، وهو يشير إلى أبو جميل:

. لأ، والطريق من أمام الفندق السياحي واضح، على كل حال، صديقنا الأستاذ عبد المجيد بيته أمام السبيل، أنا أقترح مرافقته لك ليدلك على الطريق، إذا لم يكن عنده أي مانع.

أبو جميل يفاجأ، يتحرك في موضعه، لا يتكلم.

سلمى تتوجه بكلامها إلى أبو جميل:

. هل تتكرم بمرافقتي إلى حديقة السبيل؟

أبو جميل يقف، يتردد، يرتبك، يتكلم:

. بكل السرور.

أبو جميل ينزل معها على درج دار الكتب.

*

والله اختنقت، روحي اختنقت، لا أعرف؟ هل هم مثقفون أم ثرثارون؟

صدَّعوا رأسي، سئمت، إحباط فوقه إحباط فوقه إحباط، لن أفتح بعد اليوم كتاباً، ولن أمر أمام دار الكتب، الجلوس هناك في حديقة السبيل أتأمل وأنا صامت العجائز الصامتين أجمل من الجلسة هنا، لا جدوى، لا الأسدي ولا سليمان ولا المتنبي ولا المعري.

في مكتبة الكونغرس في واشنطن من الكتب ملايين، يقال أن فيها نحو ثلاثين مليون كتاب، ما معنى أن أضيف أنا كتاباً؟ دعني أخفف العبء عن العقول، فلينقص من المكتبة العالمية كتاب كنت سوف أؤلفه.

ما إن يضع كلٌّ منهما قدمه عن الرصيف ليعبرا الشارع أمام دار الكتب الوطنية، حتى يصعقهما بوق بهما سيارة مسرعة.

سلمى تشده من يده، تعيده إلى الرصيف، تلتفت إليه، تسدُّ أذنيها، وهي تتكلم:

. ما هذا؟ ولماذا هذه السرعة؟ وأنت؟ بماذا تفكر؟ كانت السيارة شالتني وشالتك معي.

. ما انتبهت إليها.

. لا أعرف كيف يقود الناس عندكم سياراتهم؟ لماذا هذه السرعة ونحن في داخل المدينة؟

تصمت، ثم تضيف وهي تلتفت إليه:

. قل لي: بأي شيء ذهنك مشغول؟

. لا شيء، كنت أفكر بمكتبة الكونغرس.

في الطريق إلى كفر جنة

ـ اعذرني، تركت السيارة أمام الفندق، سنمشي إلى الفندق، ومن هناك ننطلق إلى حديقة السبيل.

من دار الكتب الوطنية إلى الفندق السياحي يسير أبو جميل إلى جوار سلمى، هي تثرثر وتتكلم عن حلب وأهلها وأسواقها.

*

وحدك، عندك ثلاثة إخوة وأخت، وتحس أنك وحدك، ولماذا خمس غرف؟ ولماذا التقاعد؟ ولماذا الجديد؟ هذا هو وهذه هي شيرين، خمس غرف أو غرفة واحدة، شقة بشرفة وشقة بنافذة، ما الفرق؟ إذا كان عندك عشر غرف أو عشر شقق في النهاية ستعيش في شقة واحدة وفي غرفة واحدة، لا يمكن أن تعيش في غرفتين اثنتين في وقت واحد، حتى لو كانت كل واحدة منهما مفتوحة على الأخرى، أنت في النهاية ستعيش في غرفة واحدة، بيت العنكبوت كثير على من سيموت، هكذا يقول المثل، ولكن ننسى هذا كله، ونفني العمر وراء شقة.

أبو وائل مللت منه، أم وائل ثرثارة، لا حديث لها إلا عن الطعام، ولكن حقيقة، هي تطبخ الملوخية بطريقة مميزة، حين دعاك أبو وائل إلى الغداء مع زوجتك، قدم لكم الملوخية مع الأرز بلحم الدجاج، الملوخية تطبخها بطريقة مميزة، كنت تظن زوجتك أفضل طاهية في العالم، وكنت تظن نفسك مختصاً بسليمان الحلبي، أكثر من ثلاثين سنة وأنت تتحدث عن غزو نابليون لمصر، ثم تكتشف أنك لا تعرف شيئاً، حلمت بتأليف كتاب من ثلاثمئة صفحة، ولكن لم تصبر على قراءة كتاب، ولم تكتب حتى ثلاث صفحات، وشاب في الثلاثين ينجز خمسة كتب في أقل من سنة، لا بأس، هي للأطفال، ولكن شيء خير من لا شيء، ثم تفكر في دراسة مستقبلية، ويسخر منك الجميع، من الخير أنك لم تحدث زوجتك عن الدراسة المستقبلية، وإلا سخرت هي الأخرى منك، مُتْ قاعداً، هذا هو التقاعد، ليس لك إلا حديقة السبيل، تقعد فيها مثل باقي العجزة من الشيوخ والمتقاعدين.

*

أمام الفندق السياحي سيارة مرسيدس بيضاء، تحمل لوحة لبنانية، سلمى تفتح باب السيارة، تقول له:

ـ تفضل، أستاذ عبد المجيد، سأصعد إلى غرفتي لأضع الأوراق، واسمح لي فقط بخمس دقائق، خذ، اترك معك مفاتيح السيارة، لكن لا تهرب بها.

يرتبك، يتكلم:

. والله طول عمري ما تعلمت القيادة.

*

بعد نحو سبع دقائق تهبط، تمر أمام السيارة، شعرها الأشقر مرسل على كتفيها، وهو نديان، يكاد الماء يقطر منه، وقد ارتدت قميصاً وردياً ضيقاً وبنطالاً أبيض أكثر منه ضيقاً، تأخذ مكانها وراء المقود.

يغمره عطر لم يشم مثله من قبل.

ـ سامحني، تأخرت، كان لا بد من الحمام السريع، لإزالة التعب والغبار، وللانتعاش.

تشغل المحرك.

يشير إلى الطريق الذاهب نحو شارع فيصل، فتنطلق بسرعة، وصوت العجلات يسحج الأرض.

. هذا الشارع إلى أين يأخذنا؟

. إلى شارع فيصل، وبعده مباشرة أمامنا حديقة السبيل.

تصل إلى حديقة السبيل، يشير قائلاً:

. هذه هي حديقة السبيل.

تقود على مهل وهي تلتفت إلى الحديقة تتأملها، تقترب من دوار الدَّلَّة، تقول:

. أوه، ما أجمل هذه الدلة، والماء ينصب منها، وحولها فناجين القهوة العربية.

يتكلم وهو يشير إلى بناء يطل على الدوار:

. في هذه العمارة شقتي، في الدور الثالث.

. إطلالة جميلة، أهنئك.

ما تزال تقود بهدوء، تلتفت إليه لتقول:

. قبل خروجي من بيروت نصح لي بعض الأصدقاء بزيارة معرة النعمان وخان العسل وقلعة سمعان وكفر جنة، أمس زرت قلعة سمعان وتعشيت في مطعمها العالي مع بعض الأصدقاء هنا من حلب، ومع دخولي إلى حلب مررت بالمعرة، وزرت قبر المعري، ثم انعطفت إلى خان العسل، وتناولت غدائي في مطعم خوابي العسل، وفي مدخل حلب رأيت بائع الجرر الفخارية والخوابي، اشتريت خابية، ولكنها فارغة، ما

فيها عسل، بقي علي زيارة كفر جنة، حَكَوا لي عن مطاعم فيها، خدمتها ممتازة، هل هي بعيدة؟

. أقل من ساعة.

. هل تعرف طريقها؟

. نعم.

. هل نلف ونرجع؟

. لأ، هذا الطريق الذي أمامنا يقود إليها.

. أنا تعبت من جو حلب، والشغل، أريد تمضية ساعة في مطعم هادئ، خارج المدينة، نحن في بيروت كل يوم نذهب إلى الجبل، نرتاح من جو المدينة.

. اسمحي لي بالنزول هنا.

. ما رأيك بتناول الغداء معي في كفر جنة؟

. سأرجع إلى البيت.

. أنت لا تعرف غير البيت، أنت رجل بيتوتي، لأ، لن ترجع إلى البيت، ستذهب معي، اسمع، هذه أغنية لملحم بركات، هو يغنيها لأجلك.

تضع في المسجل قرصاً، ويبدأ ملحم بركات بالغناء:

لا تهـــزي كبـــوش التوتـــه مـــا بحبـــك لـــو بتمـــوتي

أنـــا يـــا حلـــوة مجـــوز زلمـــــة عاقـــــل بيتـــــوتي

وتنطلق بالسيارة، ثم تلتفت إليه لتسأل بنبرة أخرى:

. ولكن إلى أين يصل بنا الطريق إذا رحنا إلى الشمال على طول؟

يصمت.

. أسرع قل لي، أنا لا أستطيع القيادة ببطء.

. أصبحنا نحن الآن في شارع تشرين، سنصل إلى دوار شيحان، ننعطف هناك إلى اليسار، ثم يظهر لنا دوار آخر، هو دوار الليرمون، ننعطف إلى اليمين ونذهب على طول.

. إلى أين؟ ألا تعرف؟ أنت ابن حلب!

. نمر بحريتان وعندان ثم بنبل والزهراء ثم دير جمال ثم كفرجنة ثم عفرين ثم ...

تقاطعه لتسأل بصوت عال وهي تمزح:

. وكفر جهنم؟

. لأ، ما في كفر جهنم.

. إذن إلى كفر جنة والحور العين ...ما رأيك؟

ـ هناك مطعم جميل وسط الأشجار يطل على نهر صغير تحيط به سهول خصبة.

. جميل، هذا هو عز الطلب.

تتجاوز دوار الليرمون ينظر إلى عداد السرعة يجده يشير إلى ١٤٠ وما يلبث أن يصعد إلى ١٦٠.

. أرجوك، كفر جنة قريبة، لا تقودي بهذه السرعة.

. أنا معتادة، لا تقلق، بعد قليل سترى المؤشر يصل إلى ٢٠٠.

ـ لا، لا، الآن يجب تخفيف السرعة، سينتهي الأتوسوتراد، وسندخل في طريق عادي، وبعد قليل سنصل إلى مفرق إعزاز ودير الجمال، هنا مفترق تكثر فيه الحوادث.

. أنت تعرف الطريق؟

. أنا عملت في التدريس في عفرين، بعد تخرجي في الجامعة جرى تعييني في عفرين، بقيت فيها أربع سنين.

. شعبها من الأكراد.

. كيف عرفت؟

ـ أنا قبل زيارتي إلى حلب قرأت كل شيء عن حلب وعن ريفها وقُراها وعن الكواكبي، وإذا أردت اسألني عن أي شيء يتعلق بكل حلب، وسورية، كل سورية، لبنان وسورية أرض واحدة وشعب واحد، وهذا جزء من اهتمامي ودراستي، وهو جزء من حبي لحلب.

. لكن ما كل سكان عفرين من الأكراد، أكثرهم أكراد، وفيها سكان عرب، وهم متآلفون ومتحابون.

. أنت تعرف عفرين بسبب عملك بالتدريس فيها.

. نعم، وزوجتي كردية من عفرين.

. كانت طالبتك؟

. نعم

. عن حب؟

. نعم

*

في المطعم يقعدان إلى المائدة متقابلين، إلى جوارهما نافذة زجاجية كبيرة، تطل على سهل أخضر، واسع يمتد إلى الأفق الغربي، وينساب فيه جدول شفاف، الشمس مائلة نحو الأفق، وقد فرشت على العشب ملاءة ذهبية شفافة، فاكتسى المرج

الأخضر لون الذهب، النادل يضع ملاءة جديدة على سطح المائدة، يجلب كأسين وزجاجة ماء.

تبادره قائلة:

. شو يا عمي، مَيْ؟ هات زجاجتين بيرة باردة، وسطل ثلج، قبل كل شيء.

النادل ينحني مستجيباً لطلبها.

أبو جميل يتكلم:

. أنا لا أشرب الخمرة، سأطلب فنجان قهوة.

تنظر مدهوشة، ثم تعلق:

. البيرة ليست خمرة.

. فيها نسبة من الكحول، وما أسكر كثيره، فقليله حرام.

. لا تشرب الكثير، اشرب زجاجة واحدة.

. اعذريني.

. هذا من حقك، أو من واجبك، لن أحرجك، أنت شيخ؟

ـ إذا قصدت بالشيخ الرجل العجوز، فأنا شيخ، وإذا قصدت الرجل الملتحي المعمم المتدين، لا، فأنا...

تقاطعه وهي تضحك:

. والله أنت لا شيخ بهذا المعنى ولا شيخ بذاك المعنى، أنت رجل يحرم نفسه من متع الدنيا.

يرجع النادل، يحمل صينية أنيقة فيها زجاجتا بيرة، وكوبان زجاجيان شفافان لكل منهما عروة، وسطل ثلج، وصحن زجاجي أنيق فيه فستق حلبي محمَّص، يضع الصينية على المائدة، يتناول الزجاجة، يفتحها بطريقة تمثيلية، على نحو ما يُرى في الأفلام، هذه أول مرة يرى فيها نادلاً يفتح زجاجة بيرة، يكاد يشم رائحتها، بأناقة يضع الثلج في الكأس، تماماً مثل الأفلام.

ـ صب لي فقط، لا تصب للأستاذ، عنده قرحة في المعدة، هات له مغلي النعنع.

يميل الكاس، ويصب من الزجاجة في جدار الكأس من الداخل، حركة لا يفهم لها معنى، لماذا لا يصب في الكاس مباشرة فوق الثلج؟

ـ وهات كبة نية حلبية، وتبولة لبنانية، ومقبلات، لا تنس الحمّص والمتبَّل والمخلَّلات أو الكامخ أو الكبيس، لا أعرف اسمه عندكم، ولا تنس المرتديلا، عندكم هبرة مدقوقة؟

. نعم، هبرة غنم مع التوابل.

ـ الهبرة في صحن والتوابل في صحن، مع صحن فيه لسانات، ولا تنس، السلطة غير مفرومة، بندورة وفليفلة وخسة كاملة أو هات خستين، وأرجوك، أريد الفجل الأحمر الناعم، يا إلهي ما أحلاه مع ورقه الأخضر.

. أي شيء آخر؟

ـ نعم، علبة سكائر كِنْت، وعلبة كبريت، لا أريد قداحة، علبة كبريت، أحب رائحة الكبريت وهو يشتعل.

. حاضر.

النادل يمضي.

ـ أستاذ عبد المجيد، هذا كله على شرفك، أريد تمضية ساعة من العمر فيها السرور، لا تفكر في أي شيء.

. ولكن هذا سيكلفك.

. قلت لك لا تفكر في أي شيء.

نادل آخر يأتي نحوهما، يحمل مزهرية صغيرة فيها قرنفلتان، حمراء وصفراء.

. يضعها على المنضدة، وهو يميل منحنياً بلطف:

. هذه المزهرية مع القرنفلتين هدية لكم، من مدير المطعم.

. شكراً.

يلتفت عبد المجيد إلى مدير المطعم، يحييه بإشارة من يده، ولكن سرعان ما يلتفت إليها ويهمس:

. أظن هذا الرجل أحد أبناء ابن عم زوجتي، قلت لك في الطريق، زوجتي من هذه المنطقة، من عفرين، أظن صاحب المطعم من عفرين، وهذا ابن عم زوجتي، يشرف على المطعم.

ـ قلت لك لا تفكر، لن نسمح لأي شيء يعكر مزاجنا، والله لو جاءت زوجتك نفسها إلى هنا لعرفت أنا كيف أبرر لها وجودك معي؟

. كيف؟.

. سأقول لها: صدمته بسيارتي أمام حديقة السبيل، أمام البيت، والحمد لله جاءت الصدمة خفيفة، وللتعويض عن الصدمة دعوته إلى الغداء في كفر جنة.

. زوجتي لن تأتي، ولكن أنا متأكد أنه أحد أبناء عمها، ماذا أفعل؟

ـ اترك الأمر لي، عند خروجنا أنا سأتصرف، دعنا الآن نستمتع بالجلسة والطعام.

يرن هاتفه الجوال، ينظر فيه، يعلق:

ـ هي زوجتي، أوه الساعة الرابعة والنصف، الآن وصلتْ إلى البيت، ماذا أفعل؟.

. قل لها بصدق وصراحة، أنا مع صديقتي في كفر جنة، وأنا مستعدة للذهاب لإحضارها فوراً، الطريق عرفته.

يهمس:

. لا، أشكرك.

ثم يتكلم في الجوال:

. أهلاً شيرين... أنا مدعو إلى الغداء... نعم جاءت الدعوة مصادفة....تناولي غداءك وحدك.... لا تنتظريني....لن أتأخر....لا... لن أسهر....مع السلامة.

تصفق له بهدوء، ومن غير صوت، ثم تعلق:

. رائع، ما كنت أتوقع منك هذه البراعة كلها، حقيقة، الحاجة أم الاختراع.

يتورد وجهه، يصعد الدم إلى أذنيه:

. صدقيني، طوال حياتي لم أكذب عليها.

نادلان اثنان يأتيان يحملان الطلبات، يوزعان الصحون والأطباق على المائدة بأناقة مفرطة.

يتابعهما مدهوشاً.

قبل أن ينصرفا، يقول أحدهما:

. أهلاً بكم في بلدكم لبنان.

. تقصد سورية.

. عفواً، عفواً سورية، أنا رأيت لوحة السيارة، وعرفت من لهجتك، أنتم من لبنان؟

. نعم، ومن بيروت، لا أعرف هل ستنافس التبولة الحلبية تبولة بعلبك، أو هل سينافس كباب حلب كباب بيروت؟

. سنقدم لكم أطيب كباب.

ـ أريد الكباب المشوي مع اللحمة بالكرز، وأريد الشيش طاووق، والكباب الخشخاش بالثوم، والكلاوي المشوية.

. كله في خدمتك، بعد ربع ساعة سيجهز كل شيء، وسأضع لكم في المسجل أغاني فيروز حتى تظنوا نفسكم في جبل لبنان.

. لا أرجوك، ضع في المسجل أغنيات صباح فخري، حتى نعيش في جو حلب، ولا تنس اللبن الرائب.

ينصرف النادلان.

صوت صباح فخري يصدح:

أنـــــا وحبيبـــــي فـــــي جنينـــــه

والـــــورد خـــــيم علينـــــا

طلـــــب منـــــي وصـــــاله

. لماذا كل هذا الطعام؟

ـ طبعاً لن نأكله كله، ولكن سنستمتع به وهو أمامنا على المائدة، هي متعة البذخ والترف، لذة الإنفاق، ألا تحس بمتعة عندما تقبض راتبك في أول الشهر، وتتبضع أشياء كثيرة للبيت؟ ولا تنس متعة وجودك معي؟

. ولماذا أنا؟

ـ اسمع، منذ أسبوع وأنا في حلب، تعبت من العمل ومقابلة الناس وتسجيل الملاحظات والزيارات والمقابلات، وبصراحة تعبت من نظرات الرجال وخاصة في الأحياء الشعبية، أنا باحثة اجتماعية، ومختصة في علم الاجتماع، أردت الكشف عن العمق الاجتماعي لا الفكري ولا السياسي في شخصية الكواكبي وفي كتابيه، غداً مع الصباح أنا مسافرة، أريد العيش ساعة سرور معك.

. سألتك لماذا أنا؟

ـ لأنك رجل طيب، بريء، عاقل، مهذب، مهذب جداً، خجول، مؤدب، مثل طفل.

. قولي ساذج.

. بالمعنى الإيجابي لا السلبي.

. وكيف عرفت طيبتي؟

. رأيتك تجلس في غرفة الأستاذ خالد مكسور الخاطر، كأنك في مأتم، لا تتكلم، تحمل في داخلك خيبة، حتى نظراتك نحوي كانت حيية وخجولة، بخلاف نظرات الآخرين، هل أنت مطلَّق أو متخاصم مع زوجتك أو خارج من السجن؟

. لأ، لأ، لا هذا ولا ذاك، ولا كل هذه الاحتمالات.

. تصلي؟

. لأ، أصلي الجمعة، وأحياناً لا أصليها، ولكن أخاف الله.

. هل خنت زوجتك مرة؟

. لأ.

. هل فكرت في خيانتها؟

اللقمة في فمه، يغص بها، تناوله كأس الماء:

. تفضل اشرب، ما رأيك بالسفر معي الآن بعد العشاء فوراً إلى بيروت، عندي شقة في الجبل، وشقة في بيروت.

تشير إلى النادل، تطلب منه ورقة الحساب.

نادل يأتي معه دلة قهوة عربية، وفنجانان، يصب لها، يصب له، يضع الدلة على المنضدة، يشير إلى مدير المطعم القاعد وراء منضدة، وهو يقول:

. هذه القهوة ضيافة من المدير.

تنظر إلى المدير، ثم ترفع يدها بالتحية وهي تشكره من بعد.

النادل الثاني يقدم لها سجلاً مخملياً مغلقاً، تفتحه، وإذا فيه فاتورة الحساب، تفتح حقيبتها، يمد عينيه إلى المبلغ، يجدها تضع في السجل ستة آلاف ليرة سورية، تناوله السجل، وهي تقول:

. احتفظ بالبقية لنفسك.

تناول النادل الذي حمل القهوة خمسمئة ليرة.

يهمان بالمضي، فتناديه، لتسأله:

. أنت من عفرين؟

. لأ، أنا والعمال كلهم من ميدانكي، المعلم كان عنده مطعم في ميدانكي، باعه من سنتين، واشترى هذا المطعم، ونحن كلنا كنا معه في ميدانكي، ما تخلى عنا، والشاب الذي وارء المنضدة هناك هو ابنه، المعلم يحضر إلى المطعم في السهرة.

تستل من حقيبتها بطاقتين، وتناول إحداهما إلى النادل، وهي تقرؤها وتشير إلى أبو جميل:

. تفضل، هذه بطاقة باسم زوجي، هو مدير المصرف الاستثماري الإيطالي في بيروت، وهذه بطاقة ثانية باسمي: سلمى الأحمد، أنا أستاذة في الجامعة اللبنانية، أعط البطاقتين للمعلم، وإذا أراد فتح حساب في المصرف أهلاً وسهلاً به، هذه بطاقتي ليتصل بي.

النادل يعلق:

. أهلا بكم في بلدكم لبنان، عفواً أقصد سورية.

في طريق العودة

في السيارة وهما عائدان، تقول له:

. هل اطمأن بالك الآن، وارتحت؟ مدير المطعم وابنه والطاقم كله من ميدانكي، لا عفرين، أنت حسَّاس جداً، وخيالك واسع المدى، هؤلاء أصحاب المطاعم لا يهمهم الزبون، يهمهم طلباته وما يدفعه.

ـ صدقيني أنا واثق بزوجتي، وهي واثقة بي، ولكن لا أريد لأهل المنطقة هنا الشماتة بها، سيقولون تزوجت الحلبي أستاذها عن حب، ثم عند آخر العمر، وبعد ثلاثين سنة بدأ يخونها.

ـ وهل هذه خيانة؟ إذا تناولت العشاء مع سيدة وبدعوة منها؟ هل تعتبرها خيانة؟.

. لا أعرف.

يصمت، يطول صمته، صباح فخري في المسجل يغني:

سيبوني ياناس بحالي أروح مطرح ما روح

غزالي وافى عذالي وخلاني لوحدي أشوح وأنوح

. قل، هل هي خيانة؟

. ربما خيانة، ولكن من نوع خفيف.

ـ إذن سأسافر بك الآن إلى بيروت، ولتمارس معي خيانة من نوع ثقيل ما رأيك؟؟

تضحك، تضحك بملء فمها. ثم تتكلم بهدوء:

ـ من حق الرجل والمرأة أن يجتمعا في العمل أو في السفر أو يلتقيا في دعوة عشاء، مثل أي صديقين، وأن تدور بينهما أحاديث ودية، هل في الأمر عيب أو مشكلة أو هل هذا خيانة؟ هل يقود كل تعارف بين رجل وامرأة بالضرورة إلى علاقة جسدية؟ المرأة تحتاج إلى معرفة الرجل، والرجل يحتاج إلى معرفة المرأة مثل أي صديقين.

ـ لا يمكن إقامة صداقة بين رجل وامرأة، ولا زمالة، ولا علاقة عمل، لا بد أن تؤدي إلى ممارسة الجنس.

تضحك، تقهقه عالياً، تعلق:

. أنت تؤكد صحة انطباعي، أنتم في حلب تميلون كثيراً إلى الجدية، وحياتكم قاسية، أنا عندي عشرة أصدقاء، وأنت الحادي عشر، ولم أُقِمْ أي علاقة جنسية لا من قريب ولا من بعيد مع أي واحد منهم، يشهد الله على ذلك، وأعدك، لن أقيم معك علاقة، ولن أسمح لك، ما رأيك؟

. الإنسان ضعيف.

. قل: الرجل ضعيف، الرجل يتخيل يتوهم...هذه أوهام الرجال، نحن النساء لا نتوهم ولا نتخيل مثلكم.

. المرأة يكفيها رجل واحد، أما الرجل فيحتاج إلى أكثر من امرأة، انظري إلى كل الكائنات الحية، قطيع الغنم مثلاً....

تضحك، تقهقه، تقاطعه لتعلّق:

ـ أرجوك، أنت ستفسد عليَّ العشاء والسهرة، لم تجد غير الغنم، ليتك قلت البلابل الكناريات العصافير، على كل حال، أرجوك، اترك هذا النقاش، لا أريد إفساد سرورنا، أنا مضطرة إلى القول: أنت طيب، ولكن أفكارك قديمة، قديمة جداً، الآن تأكد عندي انطباع خلاصته: الكواكبي سابق على عصره بأكثر من مئة سنة، أنا أشكرك، وأكثر انطباعاتي، كما يبدو، ستتحول إلى حقائق.

تقود بهدوء، وقد خيم الظلام، تأخذ أقصى اليمين، وتترك المجال لسيارة وراءها كي تتجاوزها.

. اسمع، أنا صادقة في كل ما قلت، وزوجي محمد الشاهر، تفضل، هذه بطاقة باسمه، وهو مدير المصرف الاستثماري الإيطالي، ونحن زوجان من ثلاثين سنة، وأنا أحبه مثلما تحب أنت زوجتك، وأكثر، وأنا عندي ثلاثة شباب، وبنت، البنت درست صيدلة وهي الآن في روما مع زوجها، ابني الكبير عادل مهندس، والثاني نديم، صيدلي مثل أخته، والثالث طالب في الثانوية، أنا عمري حوالي خمس وأربعين سنة.

. ولكن كأنك في الثلاثين.

ـ شكراً، نحن كلنا في لبنان نعيش برفاهية ومرح، لا نحمل الهم، ولا نفكر في شيء، نحن نترك السياسة للسياسيين، ولا يهمنا اتفاقهم أو اختلافهم، نعتبره مهنتهم، وعلى المستوى الشخصي كل واحد منا له ثقة بالآخر، أنا أعرف: حول زوجي موظفات وسكرتيرات صبايا أجمل مني، وزوجي يعاملهن بمرح وعفوية، وأنا متأكدة، لا يفكر في يوم من الأيام بخيانتي، وهوصريح معي وأنا صريحة معه، أنا أدعو زملائي في الكلية إلى زيارتي وأزورهم، كل شيء واضح، ما عندنا ظنون أو تخيلات.

تستل صورة من حقيبة يدها، وتقول:

. هذه صورة زوجي.

تنظر في المرآة الجانبية، تنطلق بسرعة، مع دخولها في الأتوستراد.

. الحياة تناقضات ومصادفات، وأنا ارتحت لك، ولكن لا تظن أي شيء آخر، أنا أحب المرح والمزاح، ولما عرفت طيبتك وبراءتك ارتحت، لو أنت من نوع آخر ما كنت غامرت معك، أنا أعرف أنواع الرجال، قلت لك أنا مختصة بعلم الاجتماع.

وتصمت، ثم تعلق:

. أنا عرفت طيبتك لما سرت إلى جواري من دار الكتب إلى الفندق السياحي، ما نطقت بكلمة، ولا سألتني، ولا حاولت الاقتراب مني ولا لمس طرف ثوبي، لا أعرف بماذا كنت تفكر، قل لي هل أنت على خصام مع زوجتك؟

ـ قلت لك: لأ، أنا أحب زوجتي، وحياتنا هانئة، أنا تزوجتها عن حب، وكنت أكتب لها القصائد.

. واليوم؟

. ما عدت أكتب.

. طبعاً، انتهى الحب.

. لأ، والله ما أزال أحبها، اليوم أحبها أكثر، أحبها بعقل.

توقف السيارة إلى جانب الطريق، تلتفت إليه تسأله فجأة:

. هل خنت زوجتك في يوم من الأيام؟

. لأ.

. هل أحببت غيرها.

. لأ، أنت سألتني هذه الأسئلة كلها في طريق الذهاب إلى كفر جنة.

. الجواب في الإياب قد يختلف عن الجواب في الذهاب، أنت تعرف، التحقيق يجري أكثر من مرة، وقد يكرر المحقق أسئلته، وقد يغير المحقق في إجاباته، كلمة واحدة، تقلب النتائج رأساً على عقب.

أبو جميل يتكلم بجد:

. وهل نحن في محكمة؟

تضحك، تقهقه:

. أستاذ عبد المجيد، أرجوك، أنا والله أمزح معك، قل لي الآن: هل تعرفت على نساء غير زوجتك؟

ـ نعم، هذا شيء طبيعي، عملت في مكتبة لبيع الكتب والدفاتر، وتردد عليَّ عدد من الصبايا والسيدات، ولكن كان التعرف في حدود البيع فقط.

ويصمت ثم يضيف:

ـ في عام ٢٠٠٠، وعمري حوالي خمسين سنة، تقدمت إلى امتحان الشهادة الثانوية، ونجحت بمجموع جيد، وانتسبت إلى كلية الحقوق كي أملأ وقتي، وقلت لعلي

أعمل في المحاماة بعد تقاعدي، ونلت الإجازة في الحقوق عام ٢٠٠٥، وكنت أحضر محاضرات كثيرة وخاصة المحاضرات المسائية، وفي السنة الثانية توددت إليَّ إحدى الطالبات، وكانت تستعير دفاتري وأستعير دفاترها.

. هل التقيتم خارج الكلية؟

. لأ، لا في داخل الكلية، ولا في خارجها، كانت تريد اللقاء في مقصف الكلية، ولكن كنت أعتذر، أحس بالخجل، أنا في الخمسين من عمري وهي في العشرين، أخجل من القعود معها أمام زملائها الشباب.

. هل تطورت تلك العلاقة؟

. ما قصدك بالعلاقة؟ وما قصدك بالتطور؟

. هل أحببتها؟

. كلمة حب عامة، ولا معنى لها.

. وكيف انتهت العلاقة؟

. من الصعب تسمية ما كان بيننا علاقة، هو مجرد تعارف.

. وكيف انتهى؟

. سافرتْ بعد التخرج.

. وكيف كان شعورك؟

. لا أعرف.

. تعرف، ولكنك لا تريد الكلام.

تصمت، ثم تسأل:

. كيف دخلك المادي؟

. أنا وزوجتي، نعيش على راتبي وراتبها، ولولا اجتماع الراتبين ما كنا عشنا، وأنا الآن متقاعد.

ـ هذه حال كل الموظفين في دول العالم الثالث، جيش من العاطلين، برواتب قليلة، حتى عندنا في لبنان، نحن لولا العدد الكبير من المهاجرين إلى الخارج ما كان لبنان عاش، وفي الخارج أيضاً كثير من العمالة السورية، وهي تحوِّل إلى الوطن من غير شك، على كل حال، ابحث عن عمل، أنت متقاعد وعندك فراغ كبير.

. وماذا سأعمل؟

. اكتب للجريدة، أنا سأساعدك على النشر، التعويض بسيط، ولكن للتسلية على الأقل.

. عن أي شيء سأكتب؟

. أنت أستاذ التاريخ، اكتب عن موضوع لافت للنظر.

. أنا لست أستاذ التاريخ، أنا مجرد معلم لمادة التاريخ، أحفظ ما هو مكتوب في الكتاب المدرسي المقرر وأعيده أمام الطلاب، هذا ما عرفته في الحقيقة اليوم، وهذا ما صارحني به اليوم أحد المثقفين هناك في دار الكتب الوطنية، في البداية فوجئت، واستنكرت، بيني وبين نفسي، ولكن وبسرعة أقررت بالحقيقة، وسكت.

. لا بأس، ما لفت نظرك أي موضوع من موضوعات الكتاب المدرسي نفسه؟

. ما عندي غير موضوع واحد لفت نظري.

. ما هو؟

. كليبر وسليمان الحلبي، أكثر من ثلاثين سنة وأنا أدرِّسه لطلاب الصف الثالث الإعدادي، كنت أظن نفسي أكبر مختص بكليبر وسليمان الحلبي.

ـ لا بأس اكتب عنه صفحتين، بحدود ألف كلمة، وسأنشرها لك في جريدة "السفير".

يسألها:

. إلى أي حزب موالية هذه الجريدة؟

تلتفت إليه مدهوشة تسأله:

. وأنت إلى أي حزب تنتمي؟

. أنا غير منتسب إلى حزب، أنا مستقل، أنا محايد.

. بلدك مليان أحزاب وأنت محايد؟

. والله محايد.

. في عهد الوحدة كم كان عمرك؟ لا شك أحببت عبد الناصر.

. كان عمري ثماني سنين.

. غير معقول؟ أنت من مواليد ١٩٥٠؟

. نعم.

. عمرك الآن حوالي ثلاث وستين سنة.

. نعم.

ـ يخرب بيتك، والله كأنك في السبعين، وتارك شعرك أبيض، وقميصك أسود وأنت أسمر، ياعمي اصبغ شعرك والبس أي لون فاتح، أنعش قلبك.

. وبعدها؟

. وبعدها تزوجْ.

. لأ، سؤالي وبعد الكتابة في السفير عن سليمان الحلبي؟

ـ اكتب عن إبراهيم هنانو، عن الكواكبي، عن سيف الدولة، أنت مختص بالتاريخ.

ـ سبقني إلى الكتابة عنها شاب في عمر ابني، قبل دخولك بدقائق كان معه كتب عن كل هؤلاء.

ـ أعرف، والتقيته يوم أمس في دار الكتب الوطنية، وأهداني من كل كتاب نسختين لي وللجامعة.

. وكيف أكتب عن هؤلاء والكتب عنهم كثيرة؟

. يمكن الكتابة دائماً، هم أبطال، سيرتهم لا تمل.

. زمن البطولة انتهى.

. مفهوم البطولة متغير.

. ومن سيقرأ؟ الناس تركت الكتاب ولحقت المسلسلات والأغاني الهابطة.

ـ أوه، أنت لا تكتب، ولا تحب، ولا تشرب، ولا تنتسب إلى حزب، وحتماً لا تلعب رياضة، كل فعل آخره باء أنت لا تحبه.

. عندي فكرة.

. ممتاز، ما هي؟

ـ سوف أسأل زوجتي إذا كانت ما تزال تحتفظ بالقصائد التي كتبتها أيام الشباب، وأظنها تحتفظ بها، أعرف كان عندها صندوق أهدتها إياه جدتها يوم زفافها، وكانت تحتفظ فيه بقصائدي، هل يمكن نشر بعض تلك القصائد؟

سلمى تعلق بضجر:

. أوه، أنت رجل ماضوي، ما عندك غير الماضي، تعيش عليه، يا أخي أنا أفتح لك أبواب المستقبل، وأنت تهرب إلى الماضي، لأ، لا يمكن نشر الشعر، هذا موقفي أنا، لن أساعدك على نشر الشعر.

. وما هو السبب؟

. أنت ما أحببت ولا حاربت ولا سُجِنت ولا سافرت ولا تعذبت ولا غامرت، كيف يمكنك بعد ذلك كله كتابة الشعر؟ أنا أتوقع: ما كتبته أنت مجرد خيال، أو مجرد كلام جميل أو خواطر.

. أنا أحببت زوجتي، ولها كتبت قصائدي.

ـ هذا لا يعتبر من الحب، أنت رأيت فتاة مناسبة لتكون زوجة، أعجبت بها، وعبرت لها عن إعجابك ببضع كلمات جميلة، سميتها قصائد، وكلُّ تفكيرك متجه للزواج، ثم تزوجتها وانتهى الأمر، لا شعر ولا حب.

. أنا أحببتها، وما أزال أحبها.

ـ أنت تقول هذا لتقنع نفسك بالعيش، لمجرد عيش الحياة، لا من أجل الحب، هل كتبت لها بعد الزواج قصيدة؟ هل ما زلت تكتب لها الشعر؟

. لأ، ولكن أنا أحبها وهي تحبني.

. الله يديم عليكم هذا الحب.

يسود صمت كئيب.

أبو جميل فجأة يتكلم بانفعال:

. السيدة سلمى، اسمحي لي، سأقول لك: كلامك غير صحيح، بالنسبة إلي أنا على الأقل، ليذهب الشعر كله إلى جهنم، ولا تهمني كتابة القصيدة، أنا أحب زوجتي، وهي تحبني، صدقيني، عندما أكون معها في الشارع، ألمس يدها، أمسك بها، أحس كأنني أمسك بها أول مرة، وحين تبادر هي إلى الإمساك بيدي أحس بالعالم كله ملك يدي، بل ما حاجتي إلى العالم كله؟ هي وحدها العالم، هي وحدها عالمي أنا، وهي وحدها تكفيني، وحين تنام أضمها إلى صدري، يدي تحت رأسها، كم أشعر بالسعادة حين تغفو قبلي، لا أنام، أظل أستمتع بحفيف أنفاسها الدافئة العطرة التي لا يشبه عطرها شيء، هي الحياة، وهنالك تلتقي أصابع الأقدام، تتلامس تتهامس تتناجى، وهنالك أذوب في الوجود، وجودها هي، وأحل فيها، وأنام، صدقيني، حين أرجع إلى البيت ولا أجدها، أشعر بالوحدة والاكتئاب، أتمنى لو لم تكن مدرِّسة، أسرع إلى المطبخ، أعد المائدة، أهيئ السلطة في انتظارها، ولا تضحكي مني إذا قلت لك: أنظر إلى الثوب الذي ترتديه في المطبخ، وهو معلق على الجدار، وأحياناً أشمه مثل طفل صغير يتطلع إلى ثوب أمه المعلق على الجدار، هل أحكي لك أكثر؟ وهي لا تخرج من البيت إلى المدرسة في الصباح إلا بعد تناول القهوة معي، وبيننا على المائدة وردة أو وردتان، وأنا أختلس النظر إلى عينيها السوداوين، مثلما كنت أختلس النظر إليهما وهي أمامي طالبة في الثانوية، عيناها اليوم أجمل، هما عينا أم، فيهما الدفء والأمان والحنان، وتعد لي مائدة الإفطار، وتتركها جاهزة، ثم تخرج، هل هذا كله ليس هو الحب؟ قولي لي أرجوك: ما هو الحب؟ أنا أقول لك باختصار: ما أعيشه مع زوجتي حتى الآن لا تكفيه كلمة حب، ولا تعبر عنه، لأن كلمة حب أصبحت للأسف مبتذلة، أرجوك ابحثي عن كلمة أخرى، ولا تسأليني هل تحب زوجتك.

سلمى تعلق:

. الآن اقتنعت، أرسل إلي بالبريد الرقمي قصائدك، سوف أنشرها لك.

ثم تقود بهدوء، وهي صامتة.

أبو جميل يتكلم:

. هذا دوار الليرمون، يمكن أن تنعطفي إلى اليسار.

تسأل:

. وإذا ذهبت على طول؟ هل نصل إلى بيروت؟

ـ نعم، ولكن لا بد من الانعطاف عند دوار العقاد إلى اليمين، للدخول في الطريق إلى دمشق.

تخفف السرعة، وهي تقول:
. ما رأيك في الذهاب الآن إلى بيروت ونرتكب هناك خيانة ثقيلة؟
تضحك، تضحك، وهي تنعطف نحو اليسار، وتعلق:
. لا تخف سأوصلك إلى بر الأمان بسلام.
وتنعطف وإذا ببوق شاحنة يصم الآذان ويمر بجوارها جدار حديدي كبير وطويل، وتنحرف عنها، وإذا هي سيارة براد طويلة وعملاقة.
تقول له:
ـ الحمد لله على السلامة، السائق رأى سيارتنا تسير متهادية على مهل ورآني في المرآة فذهبت به الظنون مذاهب، أنتم الرجال لله دركم، كنا قُتِلنا أنا وأنتـ وصرنا شهداء الخيانة.
قبل دوار الدلة، يستوقفها يقول لها:
. سأنزل هنا أشكرك.
. لا، لا يمكن، لا بد، سأنزلك أمام العمارة، قل لي أين هي العمارة؟
. لا أرجوك.
. لا تخف، لن ترانا زوجتك، وإذا رأتك وأنت تنزل من السيارة قل لها صديقي، هي لن تراني، قل لها صحفية من لبنان دعتني إلى حوار.
. أشكرك، سأنزل هنا.
. ما رأيك؟ أصعد معك وتعرفني على زوجتك؟
. وماذا أقول لها؟
. بكل بساطة، قل لها: عشيقتي.
يضحك،
. لأ، قل لها هذه ابنة خالتي، ظهرت فجأة، متزوجة في لبنان، والآن جاءت في زيارة إلى حلب، أو قل لها أختي من الرضاعة، حتى تطمئن، مثل الأفلام المصرية.
. الأمر صعب.
ـ أنا أمزح، ما عرفتني حتى الآن، وما دمنا اقتربنا من البيت سأضع لك في المسجل أغنية تسرك، تفضل اسمع.
ويصدح صوت ملحم بركات:

مرتـــــي حلـــــوة مـــــا بطلقهـــــا

تسأله:
. ما رأيك: نذهب إلى ملهى ليلي ونسهر فيه إلى الفجر؟
يضحك، ينظر في ساعة يده، يعلق:

ـ لا سهر، ولا ملهى، حتى ولا سينما ولا مسرح، حلب الآن نامت، الأوضاع اختلفت، الساعة الآن السابعة والنصف، المحلات كلها مغلقة، ولن تري الآن في طريقك إلى الفندق غير القليل من السيارات.

ـ هذا غريب، نحن في عز الحر الأهلية في بيروت، عام ١٩٧٥، كنا نذهب إلى المسارح والسينمات والملاهى، وكنا نسهر، وكل شيء كان عندنا.

. الأمر مختلف، ونحن على كل حال، لسنا في حرب أهلية.

. لا بأس، اسهر معي في الفندق.

. أشكرك، أنا لا أسهر في ملهى حتى ولا خارج البيت.

ـ أعرف، أنت لا تسهر إلا مع زوجتك، الله يديمك لزوجتك، ويديمها عليك، ويديم عليكم المحبة والسرور والصحة والعافية، ويعيد للبلد السلام والأمان.

تصمت ثم تضيف:

ـ وأنا مسافرة غداً الساعة السادسة صباحاً، لن أسهر، سأنام وآخذ حقي من الراحة، أمامي على الأقل عشر ساعات من السفر، وأخطأت ما أحضرت معي سائقي، سأسوق أنا بنفسي، هذه أول مرة أزور فيها حلب، وأعرف الحافلة تقطع المسافة بين حلب وبيروت في خمس ساعات أو ست ساعات، قدَّرْتُ قطعها بسيارتي في أربع ساعات، استغرق الطريق معي إحدى عشرة ساعة، هناك حواجز كثيرة وتفتيش وتحقيقات وزحمة حدود، عدا مخاطر القذائف والاشتباكات.

. أنا أقدِّر مجيئك إلى حلب في هذه الظروف الصعبة، وعملك في إجراء بحث عن الكواكبي، الحقيقة نحن بحاجة إلى جهودك وجهود الباحثين من أمثالك.

. هذا من واجب الباحث يا أستاذ عبد المجيد.

يتبادلان أرقام الهواتف الجوالة، وقبل أن ينزل تفتح صندوق التابلو الذي أمامه، تخرج كيساً ورقياً فاخراً تقدمه له، وهي تقول:

. هذه هدية، مجرد زجاجة عطر، كي تذكرني، أرجو قبولها.

. ولكن أنا طوال عمري ما قبلت هدية من أحد.

. أخي عبد المجيد، هل تقبل بمناداتي لك: أخي عبد المجيد؟

. يريحني هذا ويسرني.

. أخي عبد المجيد، هذه ليست هدية من أحد، هذه هدية مني أنا، صدقني هدية بريئة، ليس وراءها أي غرض، وأتمنى زيارتك لي مع زوجتك في لبنان، عندي شقة في الجبل، تمضي فيها الصيف مع زوجتك، واعتبرني مثل أخت لك.

وتصمت ثم تضيف:

ـ وصدقني، كنت دائماً أمزح معك، وأؤكد اعتذاري إليك، أنا أثقلت عليك في موضوع الحب، وأنا تقصدت إثارة غضبك، وسرني حديثك عن حبك لزوجتك، أنت

حقيقة تعيش الحب معها، وأنا أهنئك، وأريد القول لك: زوجي يحبني مثلما تحب أنت زوجتك، وأكثر، وأنا أحبه، ولكن نحن في بيروت عندنا حرية أكثر، وأنا طول عمري ما خنته، وأنا متأكدة، وهو طول عمره ما خانني، وهذا الموضوع كررناه من قبل، على كل حال، أنا أشكرك، وأشكر الفرصة التي جمعتني معك، أنت إنسان نبيل، وطيب، ولكن زيادة، ويمكن ما في الدنيا مثلك غير واحد أو اثنين، وصدقاً، ولا تغضب مني، لو كنت أنت زوجي، كنت طلقتك من زمان، أو ارتكبت جريمة وقتلتك.

وتضحك ثم تضيف:

ـ واحمد ربك، من غير ما أعرف، أنا متأكدة: أنت عندك زوجة مثلك، وهي أطيب منك، وهي تحبك، وأنت تحبها ولا شك في هذا.

يصعد إلى زوجته

يسير نحو العمارة على الرصيف ببطء، يحمل زجاجة العطر، وهو ذاهل، لا يصدق كلَّ ما جرى.

ليتني لم أذهب معها! أي خطأ ارتكبته؟ ماذا سيقول عني الأستاذ خالد مدير دار الكتب؟ ماذا سيقول عني الأساتذة المثقفون؟ طبعاً سيتوقعون دَعْوَتَها لي إلى مطعم حديقة السبيل، من غير شك، ولن يخطر على بالهم أن نذهب إلى كفر جنة، ولكن حتماً سيخطر في بالهم أنني تناولت الخمر معها، وأنني بعد ذلك رافقتها إلى الفندق، وقد يخطر في بال أحدهم أنني أمضيت الليل معها، بل سيظن أحدهم أني نمت معها، هل أذهب إليهم غداً وأعترف بكل شيء؟ لا، لن يصدقوني، سيكون الأمر أسوأ، هل أعترف لزوجتي، هي تثق بي، وتصدقني، ولكن كل ما حدث غير معقول، وغير متوقع، هو خيال، لو أحد المراهقين حكى لي هذا ما صدقته، بعد ذلك: أيُّ حياة تلك التي نحن نحياها، تنفق ستة آلاف ليرة من أجل غداء لاثنين؟ كانت تكفينا أنا وزوجتي أسبوعاً كاملاً، ماهذا الجنون؟ هل يغامر أحد من أبناء حلب مثلما غامرت؟ من يمكنه أن ينفق على وجبة لاثنين ستة آلاف ليرة؟ لا شك أن هناك من يذهب إلى هذا المطعم كل ليلة، أو كل أسبوع، أو كل شهر مرة على الأقل، وإلا، فلماذا افتتحوا ذلك المطعم في كفر جنة؟ أي حياة عشتها أنا وزوجتي، بيروت على مرمى حجر من حلب، ما زرتها لا أنا ولا زوجتي، طوال عمري ما غادرت سورية، إجازة الصيف نمضيها في البيت، بين حر قاتل، وجو خانق، ما أتعس حياة المعلم! ليتني لم أذهب معها ولم أتناول أي لقمة.

حقيقة ساذج أنا، بل أحمق، لماذا لم أضع يدي على يدها وهي تقود السيارة، وأنا إلى جوارها؟ لماذا لم أضع يدي على فخذها؟ حتماً ما كانت ستمانع، حقيقة أنا أبله، أوه! كيف غاب عن بالي شقتنا الخالية في منطقة الملعب البلدي؟ كان بإمكاني أن أدعوَها إليها، يا لَلْغباء، كانت استجابتها مؤكدة، لن تتردد، ادّعت أنها تمزح، لا مجال للمزاح هنا.

صدرها ممتلئ، ورائحة جسدها الآن أحسُّ بها، وشفتاها رقيقتان سمراوان فيهما حُوَّة، وقتامة، وعيناها ناعستان، في الخامسة والأربعين، كما قالت، وأنت أمامها كأنك في التسعين. لماذا لم أضع يدي وراء ظهرها؟ كان من الممكن أن أداعب شعرها،

وأدغدغ رقبتها، وأميل عليها، أشم رائحتها، كانت رائحتها مثيرة حقيقة، لا أدري، أهو عطرها أم عبق جسدها؟

رأت فيَّ الطِّيْبة والبلاهة والسذاجة، فعاملتني بتهذيب، وظهرت أمامي بمظهر العفة، حتماً لو أني مددت يدي لتغير موقفها ولعاملتني بشكل مختلف، حتى وأنا أتناول منها زجاجة العطر لم ألمس يدها، كان من السهل لثْمُ خدِّها، كانت قريبة مني، بل حين مالت لتفتح صندوق التابلو الصغير وهو أمامي فأصبحت لصقي، وأنا كنت أبتعد عنها نحو النافذة، لم أتصرفْ معها كرجل، لا شك سوف تحتقرني، سوف تظن أني عنِّين، كل ما أخشى أن تظن أنها غير مثيرة، أو أنني ما اشتهيتها، هي مثيرة، وأنا اشتهيتها، ولكن لا أعرف ما الذي كان يمنعني من فعل أي شيء، أو حتى قول أي شيء، حتى إنني لم أعبِّر لها عن إعجابي بذوقها، حقيقة أنا ساذج بل جاهل بل أحمق بل متخلِّف.

ماذا سأفعل بزجاجة العطر؟ ماذا سأقول لزوجتي؟ هل أصارحها؟ هل أخبِّئها وأدخلها إلى البيت سراً ثم أقول لها بعد ذلك اشتريتها؟ والمشكلة: كلما استعملتها تذكرت سلمى، لا أريد هذه الذكرى، لا أريد العيش في الأوهام، ولا أريد الكذب على زوجتي، ولا أريد مصارحتها، الأمر لا يتعلق بخوف منها، إنما يتعلق بحبِّي أنا لزوجتي، لا أريد أن أخون ذاتي، لا أريد تشتيت مشاعري، سأتخلص من هذه الزجاجة، سأضعها هنا على الرصيف، إلى جانب الجدار، قبل مدخل هذه العمارة، ليلتقطها صاحب الحظ.

ينحني ليضعها، يحس بوَقْعِ أقدام وراءه، يعتدل ويتابع سيره، يخشى أن يظن أحد أنه يضع شيئاً ما، متفجرات مثَلاً.

لدى اقترابه من العمارة، يُصْدِرُ هاتفه الجوال إشارة بوصول رسالة، يقف في باب العمارة، يفتح هاتفه الجوال، يقرأ: "أخي عبد المجيد، أشكر لك تلبيتك دعوتي، لا أنسى هذا اللقاء، سأظل أذكرك، وأقدِّر لك أخلاقك العالية، وسُمُوَّ روحك، ونُبْلَ مواقفك، أنت رجل شهم، أكاد أقول استثنائي، أقدر لك وفاءك لزوجتك، يرعاكما الله، ويديم بينكما الحب، هاتفي عندك، وأنا أؤكد دعوتي لك ولزوجتك، يسرني أن أستضيفكما في بيتي بالجبل، طوال إجازة الصيف، البيت لكما، أكرر شكري لك".

يحذف الرسالة، يحذف رقم جوالها، يخرج البطاقة التي باسمها والأخرى التي باسم زوجها، يمزق البطاقتين، يبحث عن حاوية قريبة، يدخل في باب العمارة، يضع الزجاجة على الأرض وراء الباب، حتى من غير أن ينظر فيها، أو يعرف نوعها أو اسم العطر.

ويأخذ في الصعود إلى زوجته.

نهض من الفراش في صباح اليوم التالي، وهو يبتسم، بل أخذ يضحك، في داخله.

لم يجد زوجته إلى جانبه في الفراش.

لفتت نظره زجاجة العطر فور إيفر مركونة على المنضدة الصغيرة إلى جانب السرير، تأملها، هي الزجاجة التي أهداها إياها قبل بضعة أيام، في مطعم القمة، وهي النوع نفسه الذي أهداها إياه في مرحلة الخطبة، وهي النوع نفسه الذي ما غيرته طوال الثلاثين عاماً.

الساعة السابعة، هي من غير شك في المطبخ تعدُّ له طعام الإفطار، قبل خروجها إلى المدرسة، وإن كانت تكتفي هي لنفسها بفنجان قهوة تشربه معه، ولكنه تذكَّر، اليوم هو يوم خميس، وهو يوم عطلتها الخاصة، لا دروس عندها في يوم الخميس، كانت عطلتها الأسبوعية يوم الثلاثاء، منذ انتقلت إلى الثانوية في شارع النيل أصبحت عطلتها يوم الخميس، لا الثلاثاء.

في المطبخ داعب شعرها من وراء.

قالت له مازحة:

. أرعبتني.

. اسمعي سأحكي لك عن حلم.

. قليلاً ما ترى الأحلام في نومك.

. صدقت، هذه المرة حلم ملون.

. هو من أحلام الأذكياء.

يعلق مازحاً:

. في هذه الشقة أصبحتُ من الأذكياء.

. بل بعد تعرفك على سليمان الحلبي.

وفي الشرفة جلسا في مقعدين متقابلين، بينهما منضدة صغيرة، تحمل مزهرية فيها باقة زهر.

وهما يحتسيان القهوة، قالت له:

. لا تنس، نحن اليوم مدعوون إلى تناول الغداء عند جارتنا أم وائل، لن نتناول الفطور، سنتناول الغداء في وقت مبكر، بعد الظهر مباشرة.

. غداء مبكر؟

. نعم، كنت أحدثها أمس عن أوراق المذاكرة لأربع شعب، وإصرار المديرة على تسليم جداول الدرجات يوم السبت، وهو يوم عطلة، فقالت لي: لا تطبخي، ودعتنا إلى تناول الغداء اليوم.

. لكن، أم وائل دعتنا ثلاث مرات، ونحن ما دعوناها غير مرة واحدة.

. لا فرق بيني وبين أم وائل، ولا تكلُّف، نحن أصبحنا أسرة واحدة.

. اسمعي، رأيت نفسي في الحلم وأنا أعمل بصفة نادل في مطعم، أحمل صحناً فيه حبات الدراق مقشرة ومقطعة، وأطوف على الزبائن، من غير أن يطلبوه، أنا أعرضه عليهم.

. وهل أخذه أحد؟

. مررت بعدة موائد وما أحد طلب مني أي صحن، نادل في المطعم قال لي لا تعرض الدراق مقشراً ومقطعاً، لن يأخذه أحد، في المخزن نوع من الدراق مدور، نسميه سوار الست، اعرضه كل ثلاث حبات في صحن، منظره يفتح الشهية، أما الدراق المقشر والمقطع فلا يثير الشهية.

. ما شاء الله، لم تجد أي مهنة بعد التدريس غير مهنة نادل في مطعم؟

. المطعم في لبنان.

. أنت طوال عمرك ما زرت لبنان، حتى ولا غادرت سورية، كيف تعرفت على المطعم وهو في لبنان؟

. في الحلم كل شيء ممكن، ولكن ما تفسيرك للحلم؟

. لا أعرف.

ثمة حلم آخر رآه، الآن تذكره.

هو ذاهب إلى زيارة الدكتور سهيل زكَّار، في بيته، لا يذكر تفاصيل الحلم، في دمشق، أو في حماه، ينعطف من حي إلى حي، ومن شارع إلى زقاق، الدكتور سهيل زكَّار لم يدرِّسْه، ولا يعرفه، وما التقاه قط، لكن ما الذي جعله يفكر في زيارته، رآه في التلفاز مرة أو مرتين، يعرف أنه مؤرخ وباحث في التاريخ، ما سر هذه الزيارة؟ طول دراسته في جامعة دمشق ما فكر في زيارة أي أستاذ.

يحكي لها عن الحلم، ثم يسألها:

. ما معنى هذه الأحلام؟

أم جميل تتكلم بلهجة مختلفة:

. اتركنا من الأحلام، أريد سؤالك.

. تفضلي.
. هل تشم أي شيء؟
يتشمَّم، ثم يقول:
. لا، أنا الآن أشم رائحة إفطار.
. لن نفطر اليوم، قلت لك، أم وائل دعتنا أمس إلى تناول الغداء اليوم عندها، بعد الظهر مباشرة.
. ولكن ما سبب سؤالك: ماذا أشم؟
. أنا بدأت أشم رائحة عفونة ورطوبة.
. أنا كنت سأقول لك مثل هذا.
. الماء يتسرب في السقيفة من الخزان.
ويضع سلماً، وينظر في السقيفة، فيؤكد لها أنه لا شيء فيها.
تضيف:
. ورأيت انتفاخات في ورق الجدران، في كل الغرف، وخاصة في جدران الغرف الأمامية.
. ربما بسبب سوء اللصق.
. لأ، لم تكن موجودة من قبل، وأحس أنها مملوءة بالماء.
يتلمس الفقاعات، يأتي بدبوس، يفقؤها، ويتسرب منها الماء.
. هل هو المطر؟ لا يعقل.
. ماذا نفعل يا أم جميل؟
. سننزل إلى جارنا أبو وائل، نتشاور معه.
وعند الباب، وأبو جميل يهم بالنزول إلى أبو وائل، تستوقفه أم جميل لتقول:
. الآن، تأكدت لي حقيقة أبو سامر، رجل داهية.
ويسألها أبو جميل:
. وكيف عرفت؟
. هذ تذكر يوم دخل بنا إلى الشقة لنراها؟
. نعم، أذكر.
. هل لا حظت كيف أسرع بنا إلى الشرفة، وبدأ يتوسع في الحديث عن إشرافها على الجهات الشمالية والغربية والجنوبية ويعدِّد محاسنها؟
. نعم، لا حظت ذلك.
. ما تحدث عن الشقة، ولا وقف معنا في داخلها، حتى لا نشم رائحة العفونة، ولا نحسّ بالرطوبة، اطمأن إلى إعجابنا بالشرفة وموقع الشقة وإطلالتها، ثم تركنا وحدنا، وخرج.

. صدقت، وأنا وقتها حدثتك عن ذكائه، وقلت لي هو مجرد رجل ثرثار.

ويسرع مع أم جميل إلى جاره أبو وائل.

أبو وائل يقول له من غير أن يصعد ليرى:

ـ هذا متوقع، شقة جارك الذي فوق مختلفة عن شقتك، هي مؤلفة من ثلاث غرف فقط، أمامها فناء مفتوح، بنى فيه بركة، وهي فوق سطح شقتك، وبنى بالقرميد أحواض الزرع فوق أرض السطح مباشرة، ومن الطبيعي أن ترى الفقاقيع وأن تشم رائحة العفونة.

يدهش أبو جميل، يقول لجاره:

. ما رأيك في الصعود إليه لمناقشته في الأمر؟

أم وائل تقول بكل بساطة:

. لا فائدة، هو رجل عنيد، ولا يمكن الكلام معه.

وتتكلم أم جميل:

ـ ولكن دلال العقارات قال لي عنه رجل طيب، وليس عنده أحد، سوى ابنته، وهي تزوره كل يومين أو ثلاثة.

أبو وائل يتكلم:

. الحقيقة هو عصبي، ونزق، وحاد المزاج، أنا مرة واحدة قلت له بمناسبة العيد: أفكر في زيارتك، فأجاب بحدة: أنا لا أزور ولا أُزار، وحكيت لأخي أبو جميل عن هذا من قبل.

وتتكلم أم وائل:

. أنا رأيت السيدة التي تزوره، ما أظنها ابنته، لعلها صديقته، للأسف، أنا غير متأكدة.

ويضيف أبو وائل:

ـ صاحب الشقة الذي كان قبلكم باعها بنصف ثمنها وهرب، ما كان يريد الاختلاف معه، صاحب شقتكم السابقة مهندس، وعنده ثلاثة شبان، خاف عليهم، خشي من اصطدامهم بالرجل.

وتتكلم أم وائل:

. دلال العقارات اشترى الدار، ووضع ورق الجدران، والأسقف المستعارة، وبدَّل السيراميك في الحمام، حتى لا تظهر عيوب الدار، وباعكم الدار بضعف سعرها الحقيقي.

وتتكلم أم جميل:

. سنرفع دعوى قضائية على دلال العقارات وعلى الجار الذي فوق.

أبو وائل يضحك:

. لا فائدة، أنتم اشتريتم الدار بكامل رضاكم.

أم جميل تتكلم:

. أنا سأصعد إليه لأكلمه بلطف.

وتعلق أم وائل:

ـ مثلما قال أبو وائل، الجار الذي قبلكم حاول بكل الطرق، ولا فائدة، الرجل حوَّل شقته إلى بستان: بركة وأحواض زرع فوق السطح مباشرة.

وتتكلم أم جميل:

. سنبيع الدار.

ويعلق أبو جميل:

. علينا الصبر.

أم وائل تتكلم:

ـ مشكلة تسرب المياه والجار أنستنا القهوة، أنا سأعدها بسرعة، وأنتم تابعوا التلفزيون.

أبو وائل يتنقل في التلفاز بين عدة فضائيات.

سباق للسيارات في فرنسا، محمية لأنواع من الطيور في إسبانيا، مسابقة لانتقاء أجمل كلب في روما، حفر نفق تحت الأوتستراد في ألمانيا لتعبر منه السلاحف خوفاً على سلامتها، روبوت جديد في اليابان اسمه تشي تشي على هيئة امرأة وسيمة بإمكانها العمل بصفة دليل سياحي أو مترجم أو عامل استقبال في فندق.

أبو جميل يعلق:

. أرجوك يا أبو وائل، دعنا نتابع الفضائية السورية.

المذيع يقرأ:

" المبعوث الأممي يغادر سورية ليرفع تقريره إلى الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة".

تمر لحظة صمت، المذيع يتكلم:

"وصلني الآن: انفجار مروِّع عند الساعة السادسة من صباح هذا اليوم يدمر مقهى جحا في ساحة سعد الله الجابري بحلب، ويلحق الأضرار بالفندق السياحي المقابل للمقهى، سقط ثلاثة شهداء من المواطنين الأبرياء، واستشهدت سائحة لبنانية كانت تغادر الفندق وتهم بركوب سيارتها لحظة الانفجار، وقد أكد السيد وزير الداخلية...".

أبو جميل ينهض، يصيح:

. يا لطيف! ما ذنب هذه السيدة؟ وما ذنب المواطنين الأبرياء؟ حسبي الله ونعم الوكيل.

أم وائل تدخل تحمل القهوة، أبو جميل يتابع كلامه وهو واقف أمام التلفاز لا يعرف ماذا يفعل:

. لن نشرب القهوة، تعالي يا أم وائل اسمعي الأخبار، انفجار في ساحة سعد الله الجابري تذهب ضحيته سيدة لبنانية.

أبو وائل يعلق سائلاً:

. لم تذكر يا أبو جميل غير السيدة اللبنانية، هل يهمك أمرها؟

يتكلم وهو يتلعثم:

ـ يهمني أمرها وأمر لبنان كله، نحن شعب واحد، طبعاً لا أنسى المواطنين الأبرياء الثلاثة الذين استشهدوا، ولكن، أنا ذكرت السيدة اللبنانية، لا أعرف لماذا؟ ربما لأنها ضيف عندنا.

ثم يلتفت إلى أم جميل ليقول لها:

. أنا لن أشرب القهوة، سأصعد إلى الشقة، ليتها لم تغادر الفندق، ليتها سافرت ليلة أمس.

أم جميل تلتفت إليه تسأله:

. وكيف عرفت أنها لم تسافر ليلة أمس، وأرادت السفر اليوم؟ هل تعرفها؟

أبو جميل يرد على زوجته وهو يتلعثم:

. الأمر واضح يا أم جميل، سائحة تهم بركوب سيارتها في الصباح الباكر، ماذا يعني هذا؟ تريد مغادرة حلب والعودة إلى لبنان، الأمر واضح كما قلت لك، لو سافرت في الليل كانت نجت من الانفجار في الصباح، حسبي الله ونعم الوكيل.

أبو وائل يقول لأم وائل:

ـ جهزي لنا مغليّ اليانسون بدلاً من القهوة حتى نهدّئ أعصابنا، وضعي لنا الطاولة وحجارة الدومينو في الشرفة حتى أُسَلِّي أخي أبو جميل.

أبو جميل ينهض، يؤكد أنه غير مرتاح، يقرر النزول إلى حديقة السبيل.

أم جميل تنهض، تسأل زوجها:

. ستصعد إلى الشقة أم ستنزل إلى حديقة السبيل؟

أبو جميل يرد مرتبكاً وهو واقف يتهيأ للمغادرة:

. لأ، سأنزل إلى حديقة السبيل.

أم جميل تتكلم:

ـ أنا سأصعد إلى الشقة، عندي أوراق مذاكرة لأربع شعب، عليَّ تصحيحها، ووضع الدرجات في جداول، وتسليمها يوم السبت لمعاونة المديرة.

أبو وائل يسأل أم جميل:

. ولكن يوم السبت عطلة؟

أم جميل ترد:

ـ المديرة عندنا حريصة على إنجاز المذاكرات الفصلية من غير تأخير، أنا حكيت لأختي أم وائل عن هذا يوم أمس.

أم وائل تتكلم:

. كنت أتمنى بقاءك معي، أنا في هذه الحالة سأذهب إلى زيارة صديقة لي في حي السبيل، لن أتأخر، قبل الظهر سأكون في البيت، وبعد الظهر مباشرة نلتقي جميعاً لتناول الغداء.

أبو وائل يتكلم:

ـ وأنا سأنزل مع أخي أبو جميل، أوصله إلى الحديقة، ثم أذهب إلى الحلاق، وبعده سأمر بسوق الخالدية وأشتري فروجتين مشويتين، وسطل لبن.

ويلتفت أبو وائل إلى أبو جميل يسأله:

ـ ما رأيك أخي أبو جميل بالذهاب معي إلى الحلاق؟ أعرفك عليه، وتقصّ شعرك عنده.

أبو جميل يعلق:

. أنا تعرفت على حلاق في الشارع خلف حديقة السبيل، ولا أريد تغييره، الحقيقة كان بودي الاستمرار مع حلاقي في منطقة الملعب البلدي، ولا أغيره، ولكن الطريق بعيد.

الحياة تبدأ بعد الستين

أبو جميل وأبو وائل ينزلان على درج العمارة.
أبو جميل صامت لا يتكلم.
أبو وائل يسأل:
. أنت اليوم غير طبيعي، يا أبو جميل.
. نعم، أنا خائب، فاشل، ضائع.
. والسبب؟
ـ أنا وحدي، عندي ثلاثة إخوة، هم أعدائي، لم يزرني أي منهم منذ خمس سنين، ولم أزرهم، أختي الوحيدة، وهي أصغر مني، تكرهني، ما أسأت إلى أي منهم، كل ذنبي أني تزوجت امرأة لا يحبونها.
. لأنها كردية؟
ـ لأ، الحقيقة، لأ، السبب كونها مثقفة، وموظفة، وهم كلهم غير متعلمين، وزوجاتهم شبه أميات، وأنا وحدي المتعلم، والمثقف، والموظف، طبعاً ماعدا أختي، هي أيضاً درست وتوظفت بتشجيع مني ومن زوجتي.
. لا يهم، أنت سعيد مع زوجتك.
. نعم، سعيد، ولكن هذا لايكفي، أنا وحيد، شعوري بالوحدة يقتلني.
. عندك ولد، وهو طبيب ناجح، وغداً يرجع، يتزوج، ويملأ حياتك.
. ولد واحد لا يكفي، كلمة أختي صحيحة، هكذا قالت لي، أنا وحيد.
. كل إنسان في النهاية وحده، مثلما هو في البداية وحده، انظر إليَّ أنا، مثلاً، أنا عندي ثلاثة أولاد وبنت، لكن أنا أعيش وحدي، من عشر سنوات.
. أحس بالفراغ، بالقهر.
. ربما بسبب تسرب المياه من شقة جارك، ليكن في علمك، كل العمارات تعاني من هذه المشكلة.
ـ نعم، هذا أحد الأسباب، عشت ستين سنة متنقلاً من دار مستأجرة إلى دار مستأجرة، ثم بعد ذلك في الستين أشتري شقة من تعب ابني، لا من تعبي أنا.
. يا أبو جميل، هذا الموضوع تكلمنا عليه من قبل، تعبك أو تعب ابنك، واحد، والملك كله لله.

. أحس بالوحدة، بالاكتئاب.
عند باب العمارة، ينظر وارء الباب، حيث وضع زجاجة العطر.
لا شك في أن عامل القمامة عثر عليها.
أبو وائل يقول له مازحاً:
. تعرَّفْ على عشيقة، غامر.
. لا أستطيع، لا أريد تمزيق قلبي، لا أريد بعث الفوضى في حياتي.
. حياتك إذن هادئة ومستقرة وآمنة ومريحة.
. أنا خائب، حاولت الكتابة عن سليمان الحلبي، ففشلت.
أبو وائل يضحك:
ـ ولو كتبت من سيقرأ عن سليمان الحلبي؟ أنت لم تفشل، المجتمع هو الذي فشل، فشلك هو نتيجة عن فشل المجتمع، وجزء منه، ودليل عليه، لو كنت في مجتمع آخر لما كنت فشلت، ضع الفاشل في مجتمع ناجح يصبح من الناجحين، وضع الناجح في مجتمع فاشل يفشل.
. هذا ما لم يخطر على بالي.
. في التاريخ ما نسميه روح العصر، وأنت أدرى مني.
. صدقت، والله نسيت التاريخ كله.
ـ وعلى كل حال، وإذا كنت حقيقة تملك موهبة الكتابة فاكتب قصة مغامرات، اكتب عن الحب عن الجنس عن القتل، أفلام المغامرات والأكشن تعرضها الفضائيات طوال أربع وعشرين ساعة، وأنت تريد الكتابة عن سليمان الحلبي؟ الواقع هو الخائب لا أنت.
ويصمت ثم يضيف:
ـ أنا في الثمانينيات من القرن الماضي، عملت في الترجمة، ترجمت عدة قصص قصيرة عن الإنكليزية، بصعوبة تمكنت من نشر قصتين، ثم اتصل بي رئيس تحرير المجلة وقال لي: لا نريد تشيخوف ولا همنجواي، إذا عندك قصص حب أو قصص جرائم فترجم، سننشر لك كل شهر.
ـ وأنا في عام ٢٠٠٠ تقدمت إلى امتحان البكالوريا، ونجحت بمجموع جيد، وعمري حوالي خمسين سنة، قد لا تصدق، وقبلت بناء على اختياري في كلية الحقوق، وتخرجت عام ٢٠٠٥ وعمري حوالي خمس وخمسين سنة، فكرت في العمل في المحاماة، ولكن رأيت نجاح أكثر المحامين أو قل بعضهم يتوقف على علاقاتهم، وأنا لا أستطيع إقامة مثل تلك العلاقات، لذلك اكتفيت بالشهادة، ولم أعمل بها، استمتعت بالدراسة والثقافة، أرجعتني إلى أيام الجامعة وجوها، وفي السنة نفسها، بعد تخرجي اتصل بي مدير التربية، وعرض عليَّ تكليفي باستلام إدارة أقرب مدرسة إلى

بيتي، فاعتذرت، لامني كثير من الأصدقاء والزملاء، قالوا هي فرصة يتم فيها تخفيض عدد دروسك، بل ترتاح من التدريس، ويصبح لك نفوذ، ويزيد راتبك، لكن اعتذرت.

يصمت أبو جميل، ثم يتكلم:

. والآن، لا أعرف ماذا أفعل؟

. لا تفعل أي شيء، رجل مثلي ومثلك تجاوز الستين ماذا سيفعل؟ الشاب ابن العشرين لا يفعل أي شيء، ماذا سيفعل ابن الستين؟

. ولكن الحياة تبدأ بعد الستين.

. هذا في بلاد العالم الأول، لا الثالث.

ويحكي أبو جميل لأبو وائل عن الحلم الذي رآه، وهما يسيران متمهلين على الرصيف تحت شمس نيسان الدافئة متجهين نحو الحديقة.

ويسأل أبو جميل:

ـ ما معني عملي في الحلم بصفة نادل في مطعم بلبنان أبيع الدراق المقشر والمقسّم قطعة قطعة؟

أبو وائل يقف، ثم يسير على مهل:

. أنت تشتهي تغيير حياتك، هذا معنى العمل بصفة نادل، وأنت تتمنى ما هو سهل، هادئ، لين، مريح، بدليل بيعك الدراق المقشر، أما العمل في لبنان فهذا يدل على بحثك عن أفق جديد، تريد تغيير حياتك، وها أنت غيرت حياتك بالانتقال إلى هذا الحي وسكنك بجوار حديقة السبيل.

أبو جميل يتكلم:

. أنت تفسر الحلم بالماضي، أنا أريد تفسيره بالمستقبل.

. الأحلام يا أبو وائل هي نتاج خبرة ماضية.

. ولا علاقة لها بالمستقبل؟

. نعم، في قناعتي، لا علاقة لها بالمستقبل.

ـ وأحلام الأنبياء؟ حلم يوسف عليه السلام، وتفسيره الأحلام وهو في السجن، كان يفسرها ويتنبأ بالمستقبل.

. لا أعرف، هذا أمر خاص بالأنبياء، أنا في قناعتي الحلم مجرد استرجاع خبرة سابقة بصورة من الصور.

ويصمت أبو وائل، ثم يضيف:

. قل لي: هل دُعِيْتَ إلى مطعم من قريب أو بعيد، وتناولت الطعام مع شخص عزيز، وسرَّتك الدعوة؟

أبو جميل يتردد:

. نعم، لا، أقصد، نعم، ولكن من زمن...

أبو وائل يضحك، يعلق:

ـ وأحياناً يكون الحلم نتيجة عشاء دسم، أكثر الأحلام نتيجة مؤثر عضوي، بطنك ممتلئة، يدك آلمتك لأنها تحت رأس زوجتك مثلاً، الوسادة قاسية، أو بسبب سماع صوت، أنا مرة رأيت نفسي في الحلم بين حشد من الناس ملتفين حول أسطوانة غاز، وهم يتباعدون عنها، وأحدهم يصيح: ستنفجر تباعدوا عنها، ودوى صوت، وانتبهت، وإذا الباب أغلقه الهواء، عالم الأحلام عالم غريب يا أبو جميل.

. ولكن أنا أحلامي قليلة.

ـ الإنسان يرى في نومه آلاف الأحلام، ولكنه لا يذكر إلا بعضها، النوم هو استغراق في الأحلام، أنت في حالة التعب، أغمض عينيك، واسرح في خيالك وراء فكرة، واحلم، ثم انتبه، ستجد جسمك كله ارتاح، كأنك نمت عشر ساعات.

أبو جميل يقول لأبو وائل:

. وصلنا إلى حديقة السبيل، لا تذهب إلى الحلاق، شعرك لا يحتاج إلى حلاقة، تعال، لنقعد ونتسلى، عندي حلم آخر سأحكيه لك.

أبو وائل يستجيب إليه، يدخلان إلى الحديقة، أبو وائل يتكلم:

ـ سنقعد هنا، في أقرب مقعد، وأسمع منك قصة الحلم، ثم سأخرج من الباب الشمالي للحديقة، هو أقرب إلى الحلاق.

أبو جميل يتكلم:

. لم تحدثني من قبل عن معرفتك بتفسير الأحلام؟

. أنا لا أفسر الأحلام، أنا أحاول فهمها، أنا أردُّها إلى خبرات ماضية أو أسباب عضوية كما قلت لك، خذ مثلاً أحلام الجنس، هي نتيجة خبرة ماضية، أو نتيجة اختزان طاقة وكبت رغبة وحرمان، بعض الأحلام تعويض عن رغبة مقموعة، ليست الرغبة الجنسية، بل أي رغبة، وهي تتحقق في الحلم بصورة غير مباشرة، عن طريق الرمز، خذ على سبيل حلم رجل بقتله أفعى، هو تعبير عن رغبة في قتل إنسان أساء إليه، أو ظلمه، ولم يقدر على الأخذ بثأره منه، وبعض الأحلام، ولا سيما عند الأطفال، نوع من الهرب، فالطفل توقظه أمه ليتبول، ولا يريد أن ينهض من نومه، فيرى نفسه في الحلم وهو يتبول، وقد يتبول حقيقة وهو نائم ليريح نفسه من ضغط البول.

. وهل ورثت هذا عن جدك؟

أبو وائل يضحك:

. يا أخي يا أبو جميل، العلم لا يُوَرَّث، وفهم الأحلام شيء مختلف عن ادعاء تفسيرها، أنا قرأت كتاب فرويد تفسير الأحلام، وقرأت تفسير الأحلام المنسوب لابن سيرين، وقرأت عن اللاشعور الجمعي عند يونغ، على كل حال ما هو حلمك الثاني؟

أبو جميل يتكلم:

ـ آه تذكرت، رأيت نفسي وأنا أدور في الشوارع أبحث عن بيت الدكتور سهيل زكَّار في حماة، وأظل أبحث ولا أهتدي إليه، وأنا لا أعرف الدكتور سهيل، رأيته في التلفزيون عدة مرات، وهو عالم في التاريخ وباحث مشهور، ولكن كما قلت لك، طول عمري ما رأيته، وطول عمري ما زرت حماة، فكيف تعتبر الحلم نتاج خبرة ماضية؟

أبو وائل يصمت قليلاً ثم يتكلم:

. أنت حدثتني عن محاولتك البحث في سيرة سليمان الحلبي وكتابة دراسة.

. نعم، حاولت، وفشلت، ما كتبت أي كلمة، يئست، وكفرت بالتاريخ.

أبو وائل يتكلم:

. كلامك هذا رائع، هذا الكلام هو تفسير ذلك الحلم.

. كيف، لم أفهم؟

. أنت رأيت الدكتور سهيل مثال الباحث في التاريخ، والعلَّامة المشهور، ولذلك حلمت بزيارته ولقائه، وأخذت تدور في الشوارع تبحث عن بيته، تريد لقاءه، للتعويض . واعذرني إذا قلت . عن فشلك، وهذا الدوران في الشوارع هو دليل إحساسك بالضياع، أنت ترى الدكتور مثال الباحث الناجح والمشهور.

ينهض أبو جميل، يقف قبالة أبو وائل يصيح:

. صدقت، والله العظيم صدقت.

ويعود إلى القعود بجواره، يرسل زفرة طويلة، ثم يتكلم بنبرة مختلفة:

ـ لكن، أنا فسرت الحلم بمعنى آخر، مختلف، تخيَّلتُ نفسي سأصبح في المستقبل مثل الدكتور سهيل.

ـ نعم، هذا صحيح، قلت لك، الحلم تعبير عن رغبة لم تتحقق، أو يتمنى الإنسان تحقيقها.

وينهض أبو وائل وهو يقول:

. اعذرني يا أبو جميل، سأذهب إلى الحلاق.

أبو جميل ينهض، يقول له:

. سأوصلك إلى الباب الشمالي، لا أحب القعود هنا بالقرب من مدخل الحديقة، أنا مقعدي المعتاد هناك، سأسير معك.

بعد قليل من الصمت، وهما يسيران معا، يتكلم أبو جميل:

. اسمع مني يا أبو وائل، لا تذهب إلى الحلاق، شعرك لا يحتاج إلى قص.

. لا أحبه وهو طويل، ولا أحب التأخر عن الحلاق، سيعاتبني إذا تأخرت.
أبو جميل يتكلم وهو يضحك:
. يا أبو وائل، ما في رأسي ورأسك غير هذا الشعر حول الرأس، ومن فوق لا شعرة.
. ولذلك لا أحبه عندما يطول، يصبح مثل السور حول القلعة.
أبو جميل يتكلم وهو يلح على أبو وائل:
. اسمع مني، لا تذهب، ما بقي لأذان الظهر غير نصف ساعة.
. حلاقي ماعنده زحام، هو دائماً قاعد من غير عمل، ما عنده زبون.
. أريدك تبقى معي، أحس بالضجر والضيق، لا أعرف ماذا أفعل، أكاد أختنق.
أبو وائل يقف، يضع يده على كتف أبو جميل، يقول له:
. يا أبو جميل، أنت تدور في حلقة مفرغة، هذه أفكار شباب في أول عمرهم، ليس عندهم زوجة ولا عمل ولا بيت ولا أولاد، نحن، أنا وأنت، لا ينقصنا أي شيء.
أبو وائل يتكلم بهدوء:
. وصلنا إلى باب الحديقة الشمالي، أنا ذاهب إلى الحلاق، اعذرني، بقي لأذان الظهر مثلما قلت نصف ساعة، أحلق شعري، وأشتري فروجتين، وسطل لبن من سوق الخالدية، ونتناول الغداء بعد الظهر مباشرة.
أبو جميل يتكلم:
. صدقني أريد بقاءك معي، أخشى حصول شيء، سمعت من يومين عن سقوط قذائف على شارع النيل.
. اطمئن لن يحصل شيء.
. في أي منطقة من شارع النيل محل الحلاق؟
. بجوار مشفى القلعه جي.
. يا أبو وائل، هذه المنطقة بالذات هي المستهدفة بالقذائف، اسمع مني، ارجع.
أبو وائل يبتعد عن أبو جميل متجهاً نحو باب الشمالي، وهو يقول له ملوحاً بيده:
ـ أبعِدْ عن ذهنك هذه الأفكار، أرِحْ بالك، لا تفكر، لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، تعال إلى البيت بعد الظهر مباشرة، لا تتأخر.

جنون القهوة

أبو جميل يمضي نحو مقعده المعتاد بخطا بطيئة.

أمام قدمه علبة تبغ، يدوس عليها، ثم يدفعها بقدمه.

شقة بخمس غرف أوستة أوعشرة، وشقة بغرفة واحدة أوغرفتين، وشقة بمليون وشقة بخمسة ملايين، ما الفرق؟ هذا كله غير مهم، المهم هو الإنسان الذي في هذه الشقة أو تلك، أنا الآن في شقة من خمس غرف، وأمس كنت في شقة من غرفتين، لم يختلف الأمر، كان كل زملائي يظنون أني أرستقراطي، أعيش في قصر، ما من مرة سألني أحدهم عن الحال والصحة، كما يسأل بعضنا بعضنا الآخر عادة، إلا كان جوابي "أنا بألف خير، ولله الحمد"، وكنت حقيقة بألف خير، دائماً، مرة مرضت، بسبب البرد والشتاء، زارني الزملاء في المرض، فدهشوا عندما رأوا شقتي، كانوا يظنون أني أعيش في قصر.

الفضل كله يعود إلى الله أولاً، ثم إلى زوجتي.

هل يعقل بعد هذا العمر كله أن أخونها؟

أنا أحس بشيء من الندم، رحلة جميلة، وفرصة لا تعوض، كان من الممكن أن أجني ولو القليل من اللمسات الناعمة، أو بعض القبل، ولكن سيكون ندمي عندئذ أشد، لا أريد أن أقلق روحي، ولا أزعج خاطري، يجب أن أنسى.

ولكن حقيقة أحس أنني لم أكسب الدنيا ولم أربح الآخرة، أنا لا دين ولا دنيا، بل لعلي خسرت الدنيا والآخرة.

مع ذلك، أنا مرتاح، كانت رحلتنا إلى كفر جنة حقيقة رحلة بريئة، لم نرتكب إثماً، ولا شك في أن روحها قد صعدت إلى بارئها طاهرة، يا أله، كم هي مرحة وبريئة، حقيقة هي صادقة وبريئة، نحن معاشر الرجال نسيء الظن دائماً بالنساء، ولا نعرف كيف نقيم معهن صداقة بريئة.

يا إلهي، مواطنة بريئة، باحثة، جاءت لتخدمنا، لتكتب عن الكواكبي، هكذا بتفجير لا علاقة لها به، تذهب هباء منثوراً؟

وأنا بتعب ولدي جميل، أشتري شقة بأربعة ملايين ليرة، وثلاثمئة ألف، أشتريها بكل أمان واطمئنان، ثم بعد شهرين أكتشف الغش والكذب والخدا!

ماذا حصل في الدنيا؟ لماذا تمشي بالمقلوب وعلى رأسها؟

لمن أحكي؟ ماذا أفعل؟

ما أجمل أيام الشقاء والتعب! ما أجمل الشقة الصغيرة في منطقة الملعب البلدي!

إلى أين سيذهب؟ حتى حديقة السبيل ملَّ منها، ليس فيها غير الشيوخ والعجائز، يقعدون في الشمس على المقاعد الخشبية العريضة، هذا يتكئ على عصاه وينام، وهذا ينظر في الفراغ ولا تعرف ماذا يرى، وثالث يثرثر، ورابع وخامس، وأنت سريعاً أصبحت واحداً منهم، أصبحت منهم ومثلهم قبل الأوان، أنت في الستين، ولكن تحس كأنك في التسعين.

مقعده المعتاد شاغر، يسرع إليه، يلقي بجسمه فيه، يسند رأسه إلى وراء، في الشمس الدافئة، يمدّ ساقيه، يسترخي، كأنه في بيته، يودّ لو يتمدّد، يودّ لو ينام.

شابة صبية، على المقعد أمامه، في الخامسة والعشرين، قميص أصفر، شال أزرق تلفه على عنقها، بنطال جينز ضيق، شعر أشقر، أشاح بنظره عنها، ولكن، عاد فنظر إليها، حار في أمره، هل ينهض من أمامها، متى قعدت؟ وكيف؟ لم يعرف، فجأة رآها أمامه، حاول أن يكون الأمر طبيعياً، تمنَّى أن يكون لديه نظارة شمسية سوداء، لا تشف عن عينيه، ترفع هاتفها الجوال بيمناها إلى أذنها، وجهها ينم عن توتر، تعاود الاتصال، تضغط على الأرقام بعصبية ونزق، ترفع الجوال إلى أذنها، تهتف: "ألو...ألو"، تنهض، تروح وتجيء أمام المقعد بعصبية، كأنها في بيتها، غير مبالية بوجوده أمامها، تصيح :"يا إلهي، ماذا أفعل؟"، ترمي بنفسها على المقعد، تضع رأسها بين يديها.

ينهض بهدوء، يتقدم منها، يمد إليها يده بجواله، يتكلم:

. يا آنسة، خذي جوالي، تفضلي.

ترفع رأسها، تنظر إليه، الدموع في عينيها.

. تفضلي، اتصلي، تفضلي.

تتناول منه الجوال، يتركها ويرجع إلى المقعد.

أصابعها تعبث بالجوال، حركتها مضطربة، أناملها راعشة، تنهض تقترب منه، تتكلم بلطف:

. أرجوك، اتصل أنت، سأعطيك الرقم، ما عدت قادرة على الاتصال، تسمح لي بالقعود إلى جانبك؟

. تفضلي.

ينتحي إلى طرف المقعد، تقعد قريباً منه، تناوله الجوال، تمسح دموعها.

. الرقم؟

تملي عليه الرقم، يضغط على الأزرار، يرفعه إلى أذنه، يأتيه النداء الآلي: الهاتف مغلق، أو خارج التغطية.

أصابعها تلامس أصابعه، ترفع الجوال إلى أذنها، النداء يتكرر، تعيد إليه الجوال، وهي تقول:

. أشكرك، أتعبتك معي، لا فائدة.

تهم بالنهوض، فيقول لها:

. لا تيأسي، سنحاول مرة ثانية.

يعيد الاتصال، يتكرر النداء نفسه.

تضع الجوال على أذنها، تسمع النداء نفسه، تغلق الجوال وتناوله إياه.

. أنا آسفة ، أنا على موعد مع صديقتي منى، كان وعدُنا اللقاء هنا في الحادية عشرة، أخوها محامٍ، وعدتني بأخذي إليه، أريد توكيله، والساعة الآن تقترب من الحادية عشرة والنصف.

تصمت هنيهة، ثم تضيف سائلة:

. عندك صديق من المحامين؟

. ما مشكلتك؟

. قصة طويلة، لا أريد إتعابك معي.

. احكيها.

. لا أعرف كيف سأحكيها؟ خائفة، حائرة، مترددة.

. احكي، ولا تخافي.

تنطلق في الكلام وهي تدنو منه:

ـ ما مر سنة على زواجنا حتى بدأ زوجي يغيب عن البيت، موظف، معاون مدير، عنده دوام إضافي، واجتماعات، وسهر، وأصدقاء، يرجع بعد منتصف الليل، حكاية معروفة، ينام ويوليني ظهره، لا كلمة، ولا قصة، ولا حديث، ماذا أحكي لك؟ بصراحة، يرجع لاحول له ولا قوة، ولا رغبة ولا أي شيء، أخجل من الكلام، أشتهي أن نتعشى مرة مع بعض، دائماً يقول تعشيت عند أصحابي، وأنا طول النهار وحدي في البيت.

تصمت، تمسح دموعاً ترقرقت في عينيها، ثم تتابع الكلام:

ـ أختـه قالـت لـي عنـد بـاب المحكمـة: "زوجنـاه، ولـن يطلقـك...روحي انتحري.....سنة وأنت ما قدرت على الحمل....عاقر...ما منك خير"، والله لا أعرف، ماذا أحكي لك؟

وتنهمر دموعها، تحاول منع نفسها من البكاء.
يسألها بهدوء:
. عرضت نفسك على طبيب؟
. والله، مرتين صار الحمل، ولكن ما استمر.
. موظفة؟
. لأ، تركت المدرسة، لم أحصل على الشهادة الثانوية، تزوجنا وأنا في الصف الثاني الثانوي.
. هذا خطأ.
. دمر حياتي.
ـ لا تقولي هذا، أنت في أول حياتك، ادرسي وخذي الشهادة الثانوية وادخلي الجامعة، الدراسة للبنت أهم من الدراسة للشاب، الدراسة هي طريق الخلاص، هي الحياة.
تحاول اصطناع الابتسام، تسأل:
. حضرتك أستاذ؟
. نعم، أنا أستاذ في التاريخ، ولكن الآن متقاعد.
ـ بصراحة، لا تؤاخذني، أنا لا أحب التاريخ، أجد صعوبة في حفظ تواريخ الأحداث.
ـ هذا شيء صحيح، حفظ تواريخ الحوادث من غير ربط بعضها ببعض في تسلسل صعب، على كل حال، أنصحك بالتسجيل لامتحان الشهادة الثانوية بصورة حرة.
. أستاذ، أرجوك، دُلَّني على أحد المحامين.
. للأسف لا أعرف، ولكن سوف أسأل لأجلك.
تنهض، تهم بالمضي، تلتفت لتسأله وهي ما تزال واقفة:
. أستاذ، أنت تأتي كل يوم إلى حديقة السبيل؟
. تقريباً.
. بيتك هنا؟
. نعم، بيتي هناك يطل على دوار الدلة.
ـ أوه، أنا بيتي في حي هنانو، جئت إلى الموعد قبل ساعة، وأنا هنا وحدي أنتظر، صديقتي غدرت بي، وعدتني وما جاءت، كثير من الشبان أزعجوني بنظراتهم، مللت، أشعر بالضجر، ولا أشتهي العودة إلى البيت، أمي ستقول لي ارجعي إلى زوجك، أبي سيقول اصبري، بصراحة كرهت حياتي.
تصمت ثم تضيف سائلة:

ـ هل لديك طبيب صديق؟ بصراحة، زوجي ضربني على رأسي، وكل يوم تأتيني مرتين أو ثلاث مرات نوبة صرع، أرجوك خذني إلى طبيب تعرفه.

تمسك بيده، وهي تقول:

ـ ضع يدك هنا على رأسي، واقرأ لي من القرآن الكريم.

تصمت، ثم تتكلم:

ـ أحياناً يقول الناس عني مجنونة، والله أنا عقلي سليم، مثلما قلت لك، أحياناً تأتيني نوبة صرع...يا ليت بيتي هنا قرب حديقة السبيل، حتى أقعد هنا ولا أرجع إلى البيت، هنيئاً لك، قلت لي بيتك قريب؟

ـ نعم، يطل على حديقة السبيل، إذا نظرت هنا من بين هذه الأشجار رأيت شرفة منزلي.

ـ أشتهي فنجان قهوة وقعدة في الشرفة.

تتلفت حولها، كمن تبحث عن أحد، تتكلم:

ـ هنا في حديقة السبيل بائع قهوة جوال، يحمل دلة قهوة، مر أمامي مرتين، هممت بطلب فنجان قهوة، ولكن خجلت، ليته يمر الآن.

ـ كان بودي دعوتك إلى البيت لشرب فنجان قهوة، لكن، للأسف، زوجتي ليست في البيت.

تصمت، تتحرك في موضعها، تلتفت يمنة ويسرة، تعلق:

ـ يا إلهي، سأجن، أريد فنجان قهوة، خذني إلى البيت، حتى ولو لم تكن زوجتك في البيت، أنا سأعد لك أجمل قهوة.

تدنوي منه أكثر، تضع يدها على كتفه، تلح:

ـ خذني إلى البيت.

الآن حان الوقت المناسب لدعوتها إلى البيت، هي تنتظر مثل هذه الدعوة، فليكن، سيعد لها القهوة بنفسه، أو سيدعوها هي لتعدها في المطبخ، يقف إلى جانبها، تسأله عن مكان البن، يناولها الفنجانين، يلمس أناملها، يضمها إلى صدره، يأخذ في تقبيلها، سوف تتمنَّع، ثم تستسلم، لا، لا يريد أكثر من قبلة، كان مهذباً مع سلمى، لم يكن رجلاً، لا شك في أنها احتقرته، ظنته عنيناً، لن يفوت هذه المرة الفرصة، سلمى هي السبب.

لا تكن أحمق، ضيعت الفرصة مع سلمى، لا تضيعها مع هذه، زوجتك ليست في البيت، ولكن ماذا لو عادت ورأتها معك في الشقة؟ خذها إلى الشقة القديمة، في منطقة الملعب البلدي، مفتاح الشقة ليس معك، هو في الشقة الجديدة، كم أنت أحمق، حقيقة أنت أحمق، غضبت حين وصفتك بالحمق، ما عودت نفسك من قبل على مثل

هذه المغامرات، ولكن، تبدو هذه مجنونة، لاحظ ارتعاش أصابعها، ولكن ماذا ستفعل لو جاءتها نوبة الصرع في الشقة؟

ويعلو نداء المؤذن في جامع الرحمن القريب من حديقة السبيل.

يفتح عينيه، لا أحد إلى جواره في المقعد، ولا أحد في المقعد أمامه.

ينهض، يرى بائع قهوة يقترب منه، وهو ينادي قهوة، قهوة، يتسرب إلى روحه صوت الأذان:

. الله أكبر....الله أكبر.

انزلاق على درج الجامع

يدخل إلى البيت، يده ملفوفة بضماد، ومشدودة إلى عنقه بقماش أبيض.
زوجته تدهش:
. ماهذا؟ أين وقعت؟
. على درج الجامع.
تضحك، تقهقه، ثم تمنع نفسها من الضحك بصعوبة، وهي تقول:
. لا تمزح.
. والله.
. كنتَ تسير على الرصيف، وما رأيت درجات الجامع فتعثرت بها.
. لأ، ذهبت إلى جامع الرحمن، أديت صلاة الظهر، وأنا خارج من الجامع زلت قدمي، وسقطت على الدرج.
. لا أصدق؟!.
ـ هداني الله، يهدي من يشاء وقت يشاء، وأنا على المقعد في حديقة السبيل، أسترخي في شمس نيسان، أخذتني غفوة، صحوت على صوت المؤذن، كأنني أول مرة أسمع صوت الأذان، سرت في جسمي قُشَعريرة، أسرعت إلى الجامع وصليت.
. والله عقلي لا يصدق ما أسمع.
. وهل يصدق عقلك إذا قلت لك ارتكبت جريمة؟
تضحك أكثر وأكثر، ثم تعلق:
. أعرفك، طول عمرك ما فكرت لا بجريمة ولا بصلاة.
. طول عمري ما فكرت بجريمة، نعم، هذا صحيح، وكنت أفكر دائماً بالصلاة، ولكن لا أصلي، واليوم ذهبت إلى الجامع فصليت، ما رأيك؟.
تصمت، ثم تعلق:
. لا بد من سبب دفعك إلى الصلاة.
يرد عليها بجد:
. هل من الضروري وجود سبب مادي مباشر؟.

ـ أعرفك دائماً، وأنت أستاذ التاريخ، كنت ترد كل حدث إلى سبب مادي محسوس ومباشر.

ـ نعم، هذا صحيح، كل ظاهرة وراءها سبب، بل أسباب قريبة مباشرة ظاهرة، وأسباب أخرى بعيدة غير مباشرة خفية، ووراء كل هذه الأسباب أسباب وأسباب، وبها نفسر الأمور، ولكن من هو مسبب هذه الأسباب؟ من هو المحرك الأول لهذه الأسباب كلها؟ أليس وراءها كلها إرادة الله؟.

أم جميل تعلق:

. ما كنت أعرفك على هذه الدرجة من الإيمان.

. الحمد لله، بعد ثلاثين سنة من الزواج استطعت معرفة زوجك.

ويصمت ثم يضيف:

. السبب الأول هو، يا عزيزتي، أَمْرُ الله لنا بالصلاة.

أم جميل تعلق ببشاشة وسرور:

. أسأل الله لك الثبات.

تصمت ثم تضيف:

. نحن مدعوون إلى الغداء عند جارتنا أم وائل، وأنت تعرف هذا، وهي تنتظر.

. اعتذري منها، يدي مكسورة.

. سننزل، ونرى ردة فعل أبو وائل على كسر يدك، سيضحك، ولن يصدق.

. يعرفني لا أصلي، ولا شك سيعلق.

يهبط على الدرج، وهي تتأبط ذراعه، تسأله:

. والآن حدثني: كيف هو شعورك بعدما صليت ووقعت؟

. وأنا أدخل إلى المسجد أحسست أنني أترك وراء ظهري الدنيا لأدخل في عالم آخر، خلعت حذائي، أحسست أني أخلع ماضيَّ كلَّه والقهر والمعاناة، واحتواني فضاء الجامع الهادئ الساكن، طوال الطريق من حديقة السبيل إلى الجامع كنت أصغي إلى الأذان، استمعت إليه من قبل آلاف المرات، ولكنني كنت أصغي إليه هذه المرة بشكل مختلف، أسير على إيقاعه، أقصد إليه، ألبيه، حين لامس الماء وجهي وأنا أتوضأ، أحسست بمياه العالم كله ببحاره وغيومه وأمطاره وأنهاره، ارتعش جسدي وخفق قلبي، وحين غسلت قدمي أحسست بشيء يتغلغل عبر كياني كله، وبين المصلين أحسست بهدوء لا مثيل له، أكاد أسمع همس النجوم وألمس حركة النور في العالم.

يقف على الدرج قليلاً، ثم يتكلم:

ـ صدقيني، ياشيرين، حين وضعت جبيني على الأرض ساجداً لله وودت لو طال السجود وددتُ لو يطول ويطول وددت لو أبقى ساجداً فلا أرفع رأسي، أنا بين

يدي عزيز مقتدر، لن أهاب بعده أي شيء، لا المرض ولا المصائب ولا الموت، ولن أرتجي سواه، منحني قوة لا حدود لها.

أم جميل تتكلم:

. هنيئاً لك يا أبو جميل، هذا عطاء من الله.

ـ روحي حلَّقت عند بارئها، نسيت تعب الدنيا وشقاءها، وددت لو أحلِّق لو أطير، تمنيت لو أصلي في مكة المكرمة أمام الكعبة المشرفة.

أم جميل تذرف الدموع، وتتكلم:

. ما عدت أشتهي من الدنيا أي شيء . يا أبو جميل . غير أداء فريضة الحج.

يقف مرة ثانية، يلتفت إليها، ثم يتكلم:

. سأخبرك، أرسلت إلى ولدي جميل صورة عن جواز سفري وجواز سفرك، كي يحصل لنا على فيزا لأداء فريضة الحج.

. لم تخبرني من قبل؟!

. كنت سأتركها لك مفاجأة، بعد أسبوعين يأتي ومعه فيزا لزيارة المملكة والإقامة فيها سنة، حصل عليها قبل إنهاء عقده، سنؤدي فريضة الحج، إن شاء الله.

. علينا إذن شراء الحقائب.

ـ لا تستعجلي، بيوم واحد ننزل إلى السوق ونشتري كل شيء، انتظري حتى يصل بالسلامة، وحتى يقترب موسم الحج، ما زلنا في أواخر رجب.

أم جميل تقف، تمسح دموعها من الفرح، ثم تلتفت إلى أبو جميل تسأله:

. وكيف وقعت؟

يضع يده على كتفها، وقد اقتربا من دار أبو وائل:

ـ وأنا أغادر المسجد وأضع قدمي في الحذاء أحسست أنني أعود إلى أعباء وأثقال وهموم ودارت بي خيالات وأفكار وتذكرت شقائي وسعيي طوال عمري من مدرسة إلى مدرسة وركضي وراء الراتب وانتقالي من دار إلى دار وحلمي بشراء دار أستقر فيها، في تلك اللحظة عرفت، كل ذلك التعب مجرد وهم، هكذا كانت الأفكار تراودني، وأنا أضع قدمي في الحذاء، ولكن وقعت، لا أعرف كيف، وفجأة غاب كل شيء، هو الموت، هو النوم، كأني أدخل في غيمة بيضاء، أحسست بضيق في صدري كأنني أختنق، رأيت وجوهاً تطل علي من فوق وسمعت صوتاً يقول: ارفعوا رأسه، ثم بدأت أحس بألم في يدي.

. الحمد لله على سلامتك.

يقول لها وهي تهم بقرع جرس الباب:

. انتظري، لا تقرعي الباب، والله يا شيرين، لم أقل: لماذا ياربي وقعت؟ بل قلت بيني وبين نفسي: هذا امتحان ليصحَّ عزمي وليصدق إيماني، اعتبرت هذا الوقوع منحة إلهية، اعتبرتها إشارة للقبول، أنا المقصِّر أدركت حقيقة الإيمان وحلاوته.

أم جميل تتكلم:

ـ أنت يا أبو جميل رجل طيب، وعندك من قبل استعداد، وكنت دائماً أنصح لك، وكنت دائماً تقول: سيأتي يوم أصلي فيه، والحمد لله، ها قد جاء هذا اليوم.

. صدقيني . يا شيرين . لو سقطتْ عليَّ قذيفة أمام باب الجامع لما ندمت، بل لعلي أفرح، سأكون متُّ بعد أدائي ولو ركعة واحدة، وبعد معرفتي متعة الإيمان وحلاوته.

قليل من الضحك

أبو وائل يفتح الباب يستقبل جاره وزوجته، يدهش، يهتف:

. ما هذا يا أبو جميل؟ من دفعك وأوقعك على الأرض؟ لا تقل لي أم جميل هي السبب؟

أبو جميل يتكلم:

. قلت لك لا تذهب إلى الحلاق، لو بقيت معي ما كانت كسرت يدي، لكن على كل حال، الحمد لله.

أم وائل تتكلم:

. الحمد لله على سلامتك، إن شاء الله الكسر بسيط.

أم جميل تتكلم:

. ذهب ليصلي في الجامع، وهو خارج من الجامع، وقع على الدرج.

أبو وائل يرقص ويهتف:

ـ أبو جميل ذهب إلى الجامع ليصلي؟ غير معقول؟ لا أصدق؟ الجامع، الجامع، الجامع، ياعيني على الجامع، لأ ،لأ ، لا أصدق، هذا أبو جميل، كان يمشي على الرصيف، وأمامه بنت حلوة، تعثر بدرجات الجامع.

أم وائل تتكلم:

ـ على كل حال الحمد لله على السلامة، تفضلوا إلى غرفة الطعام، المائدة جاهزة، نأكل ونتكلم.

غرفة الطعام تضم الأسرتين.

أبو وائل يتكلم:

. الآن، يا أبو جميل، حدثنا بصدق وصراحة، ولاتقل لي أم جميل هي ضربتك على يدك، أو طلبت منك الصعود على السلم، ولا تقل ذهبت إلى الجامع، أريد الصدق، أين وقعت وكيف وقعت ولماذا وقعت؟

أبو جميل يضحك، ويتكلم:

ـ لأ، أم جميل لا علاقة لها، صدقني، أنا أهم بالخروج من باب الجامع، وضعت رجلي على أول درجة، وفجأة، وقعت، ما أحسست بشيء، أغمي علي، ثم

انتبهت، وأنا ملقى على الرصيف أسفل الدرج، والرجال من حولي، وأحدهم يرفع رأسي.

أبو وائل يقول مازحاً:

. الحمد لله، أنا ما ذهبت معك، كنت وقعت مثلك.

أم وائل تعلق:

. لأ، كنت ساعدتَه، بل، لو رحت معه، ما كان وقع.

أبو وائل يسأل:

. ولكن ما سبب وقوعك؟

أم وائل تتكلم:

. كان يفكر في عودة الدكتور جميل.

أبو وائل يتكلم:

ـ لأ، أنتِ يا أم وائل ما عرفتِ، أنا أعرف، مرت أمام الجامع صبية، والتفت إليها، ووقع.

أبو جميل يرد:

. أهذا ظنك بي يا أبو وائل؟ الله يسامحك.

أم وائل تسأل:

. وذهبت إلى مشفى الرازي وصورت يدك؟

أبو جميل يتكلم:

. أنا نهضت، ما أحسست بغير ألم بسيط في يدي، وأردت الرجوع إلى البيت، ولكن أحد الرجال نصح لي بالصعود إلى المشفى الملحق بالجامع، وألح علي، وصعد معي، وفي المشفى صوروا رأسي ويدي، الحمد لله الرأس ما فيه أي شيء.

أبو وائل يقاطعه:

. غير معقول، رأسك ما فيه أي شيء؟ أين ذهب الدماغ؟

أم وائل تعلق:

. ليس هذا وقت المزاح.

أبو جميل يتكلم:

. المهم، يدي فيها كسر بسيط، ووضعوا لي الجبيرة مع الجبس، وأعطوني دواء للالتهاب، وهذا الرجل ما تركني، أوصلني بسيارته إلى البيت.

أبو وائل يتكلم:

ـ أنت، يا أبو جميل، طول عمرك كنت لا تصلي وما وقعت، وأول ما بدأت بالصلاة وقعت وانكسرت يدك، اسمع نصيحتي، لا تفكر بالصلاة بعد اليوم، ولا تذهب إلى الجامع.

الجميع يضحكون، أبو جميل يعلق:
. الحمد لله، أسأل الله تعالى القبول، لا شك، عندي ذنوب كثيرة، أسأل الله تعالى العفو والمغفرة، ولعل هذه المصيبة تخفِّف من سيئاتي.
أبو وائل يعلق:
ـ ذنوبك يا أبو جميل وسيئاتك لا تخفِّف منها هذه المصيبة الصغيرة، أنت بحاجة إلى مصيبة أكبر.
ويستغرق الجميع في الضحك.
ولكن أم جميل تعلق:
. في حدود علمي، أبو جميل ما عنده ذنوب كبيرة ولا سيئات.
أبو وائل يعلق:
. هذا في حدود علمك، ولكن بالتأكيد هناك سيئات في الخفاء، لا علم لك بها.
أبو جميل يتكلم:
. مرة ثانية، هذا ظنك بي يا أبو وائل، سامحك الله.
أم وائل تسأل زوجها:
. وأنت يا أبو وائل متى ستبدأ بالصلاة؟
. قصدك متى ستكسر يدي؟
وينهضون عن المائدة، أم وائل تدعوهم إلى غرفة الجلوس لتناول الشاي.
وهم يحتسون الشاي، أبو وائل يتكلم:
. أريد مشاورتكم في أمر، بحضور زوجتي أم وائل، بصراحة، أخي في بيروت عنده شقة في الجبل، مفروشة، ومطلة على البحر، دعانا للنزوح إليها، ووعد بتأمين عمل لي في إحدى الجرائد، بصفة مدقق للقسم الإنكليزي، ومترجم، فما رأي الأخت أم جميل وما رأي الأخ أبو جميل؟
أم جميل تتكلم:
. الرأي لكم.
أم وائل تتكلم:
. أنا بصراحة، ومن قبل، عرضت على أبو وائل بيع الشقة والنزوح إلى بيروت، ولكنه رفض، قال لن أهاجر مرتين، سورية الآن بلدي، وأظنه حكى لكم عن هذا من قبل، الآن الفرصة مواتية، لا نبيع الشقة، ولا ننزح ولا نهاجر، لكن نجرب العيش في بيروت شهرين ثلاثة أو سنة، ثم نعود إلى حلب، شقتنا موجودة.
أبو جميل يتكلم، وهو يحتسي الشاي:
ـ أنا مع الأخت أم وائل، أنا شخصياً إذا قدم لي مثل هذا العرض قبلت على الفور، أتمنى لو كان لي أخ مثل هذا الأخ، عنده شقة ولو في الصين.

أم جميل تقاطعه لتعلق وهي تضحك:

. الصين ما عادت بعيدة يا أبو جميل.

أبو جميل يتابع كلامه:

. أنا طول عمري ما غادرت سورية، حتى لبنان بجوارنا مازرتها، طبعاً، الأمر لا يعني التخلي عن الوطن، ولا النزوح منه، الأمر مجرد رغبة في السفر وتجديد الحياة.

أبو وائل يتكلم:

ـ لمَّا خرج والدي من فلسطين، حمل معه مفتاح البيت، وقال المسألة ستنتهي في شهر أو شهرين، ونرجع إلى ترشيحا، لا هو رجع، ولا أنا رجعت، ولا ابني رجع، أنا قلت من قبل: سأموت هنا في حلب، أو في ترشيحا، لن أغادر، والله حتى شقتنا المتواضعة في مخيم النيرب ما كنت أريد تركها.

ويصمت ثم يضيف:

. وبعد ذلك كله، كيف أغادر حلب وأترك أخي أبو جميل؟

أم وائل تعلق:

. الحقيقة نحن أنسنا بصحبتكم، وأحسسنا بارتباط جديد بحلب وسورية كلها، من قبل تعرفنا على عدة أسر من حلب، ولكن صحبتنا معكم تختلف.

أبو جميل ينظر إلى ساعة يده، يتكلم:

. اسمحوا لي، أنا سأهاجر إلى شقتي.

أبو وائل يتكلم:

. مللت من الجلسة بسرعة، منذ قليل أنا قلت لن أغادر حلب من أجل أخي أبو جميل.

أبو جميل يتكلم:

. شكراً أخي أبو وائل، أعرف ذلك، ولكن اقترب موعد صلاة العصر، سأصعد إلى الشقة لأتوضأ، ثم سأنزل إلى الجامع للصلاة.

أبو وائل يتكلم:

ـ يمكن قبول الصلاة هنا، بدلاً من النزول إلى الجامع، وعندنا طبعاً ماء، يمكنك الوضوء.

أبو جميل يرد:

. الصلاة تُقْبَل في أي مكان، أرض الله كلها مسجد، ولكن الصلاة في المسجد أمتع، على كل حال، إذا وافقتَ أنتَ على الصلاة معي، سنصلي هنا معاً في البيت، وتأتم بنا زوجتي وزوجتك.

أبو وائل يرد مازحاً:

ـ لأ، أخي، اذهب أنت إلى الجامع، أنا الآن لن أصلي، أنا سأصلي في أول رمضان.

أم جميل تتكلم:

ـ أنا أقترح أن نصعد أنا وأنت يا أبو جميل إلى شقتنا، نصلي العصر في البيت، أنت متعب، من الضروري أخذ قيلولة للاستراحة.

*

فور مغادرة أبو جميل وأم جميل، تلتفت أم وائل إلى زوجها تقول له وهي تصطنع الغضب:

. لماذا حكيت لجارنا أو جميل وزوجته عن فكرة النزوح إلى بيروت؟

. أريد المشاورة.

. ولكنك اتخذت قرارك من قبل.

. للاستئناس.

أم وائل تضيف:

ـ وأنت من قبل حكيت لهم عن بقائك في حلب، ورفضك الهجرة مرة ثانية أو النزوح، لماذا تحب تكرار الكلام وإعادته؟

. لتثبيت الموقف، ولماذا أنت غاضبة؟

. لا أحب هذه التصريحات المباشرة، ولا أحب إعلان المواقف.

. لا أقصد الإعلان عن المواقف، أحياناً يكرر الإنسان الكلام للتأكيد، أو للتسلية وملء الوقت، هل من مانع؟ وعن أي شيء سنتحدث؟ هو مجرد كلام.

. ما كنت أعرفك تحب كثرة الكلام وإعادة الحديث، وخاصة معي، عادتك دائماً: كلمة واحدة ويقضى الأمر.

ـ طبعاً أنت زوجتي، ولا ضرورة للتباحث والنقاش وكثرة الكلام، ولا ضرورة للإعادة والتكرار، كلمة واحدة تكفي.

أم وائل تمضي إلى المطبخ بصمت.

من داخل المطبخ يأتيه صوتها مازحة وهي تغسل الصحون:

. لأ، من الآن فصاعداً سيكون بيننا، أنا وأنت، كلام وحديث وجدل ونقاش، كل موضوع سنناقشه بالتفصيل.

الروح

أبو جميل يصعد الدرج إلى شقته منكسر الخطوات، يجر نفسه على الدرج جرّاً. يتوضأ، يصلي العصر مع زوجته، ثم يأخذ المصحف، ويمضي به إلى الشرفة، يقرأ في القرآن الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)

تدخل أم جميل إلى الشرفة، تسأله:

. تشرب أي شيء؟

أبو جميل يغلق المصحف، يضعه على حافة الشرفة، يتكلم:

. شكراً، لا أريد شرب أي شيء.

تصمت، تظل واقفة، تسأل:

. أقعد معك؟

بعد قليل من الصمت، يمسح دموعه، يهمس:

. اتركيني وحدي.

تصمت، تسأله:

. إلى هذا الحد أنت متأثر؟ كل يوم نسمع قصص انفجارات واشتباكات وشهداء، هل تعرف تلك السيدة؟

. تألمت بسبب غربتها.

. هذا هو قدرها، جاءت من لبنان لتموت هنا، يقول تعالى:"وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ".

أم جميل تتكلم بلطف:

. يرحمنا ويرحمها الله.

أبو جميل يعلق:

ـ أشد ما يؤلمني هو تحوُّل الإنسان إلى مجرد خبر، ثلاثة شهداء من أبناء الوطن، وسيدة لبنانية سائحة، أليس لها اسم أو عمل، وما أدراهم أنها سائحة؟ قد تكون عالمة آثار أو باحثة اجتماعية، جاءت لتدرس الواقع الاجتماعي أو تنقب عن الآثار، وقبل هذا كله هي زوجة وأم وعندها أب وإخوة ولها أولاد، الفرد هو الأمة، والأمة هي الفرد، وخسارة فرد واحد تعني خسارة الأمة كلها.

. وويل للأمة التي لا تعرف قيمة الفرد، ولا تقدِّر حجم خسارته.

. نعم، نعم، هذا ما يؤلمني، هذا هو الواقع في كل البلاد العربية، أو كل بلاد العالم الثالث، وهذا هو التاريخ؟ مجرد أخبار؟ عمر يختصر في كلمتين، ولد، مات، هذا هو الإنسان؟ حتماً كانت تلك السيدة مثلاً تحمل حقيبتها وتخرج من الفندق وتريد ركوب سيارتها لتغادر إلى بيروت للقاء زوجها وأولادها، هل الحياة مجرد حلم؟ ربما كانت تفكر بكتابة سيرة حياتها لتملأ المجلدات.

. أبو جميل، أنت غير طبيعي، ما قصة هذه المرأة؟

ـ لا شيء، قلت لك، لا شيء، أنا فقط أجد فيها العظة والعبرة، وأفكر في عظماء التاريخ ورجالاته، وأقول لنفسي: كل ما كتب عنهم لا يكفي.

أم جميل تتكلم بهدوء:

. على كل حال، هذه هي صحائفكم، أنتم أساتذة التاريخ، مزورة، زائفة، أو هي على الأقل مختصرة، أو ناقصة، الصحائف الحقيقية هي صحائف الأعمال، وهي عند الله ثابتة، كاملة، لا يغيب عنها كبيرة ولا صغيرة، وهنالك الجزاء الأوفى، ما جدوى أن يقال في الدنيا عن الإنسان عظيم أو بطل، وهو في الآخرة عند الله خلاف ذلك؟

أبو جميل، يتكلم بهدوء:

. صدقت يا أم جميل، هنيئاً لك، ماشاء الله طول عمرك تقية وصالحة.

. وأنت قلبك طيب ونقي، والحمد لله هداك الله اليوم، لا حاجة بعد اليوم للقلق.

ـ اذهبي، خذي قيلولتك، استريحي، أنا سألحق بك بعد قليل، أنا سأكمل تلاوة سورة القمر.

أم جميل تهم بالمغادرة، تلتفت ترى المصحف على حافة سور الشرفة، تتكلم:

. نسينا أنا وأنت يا أبو جميل.

. ماذا نسينا؟

. نسينا شراء الأصص البلاستيكية لوضعها على حافة السور، هنا في الشرفة.

. عدَلت عن الفكرة، لأنها ستحجب عنا رؤية الحديقة، ولا تخافي، لن يدخل إلى شرفتنا أوشقتنا طائرة بوينغ حتى لن تدخل رصاصة، اطمئني.

ويصمت، ثم يضيف:

. وبصراحة سأقول لك، قبل يومين سألت صاحب محل الخضرة والفاكهة قرب الجامع عن محل قريب لبيع أصص الزهور، فدلني على بائع في الشارع الثالث وراء جامع الرحمن، عنده مشتل للزهور، ولكن، سامحيني، قلت لنفسي، كانت زوجتي تتحسس من أمي لعنايتها بأصص الورد والزهور، ولذلك عدلت عن الفكرة، لأجلك.

أم جميل:

. سامحك الله يا أبو جميل، هذا هو ظنك في زوجتك؟ ومن قال: كنت أتحسس من أمك؟ هذا وهم.

. غداً سأملأ الشرفة بالزهر.

أم جميل ترد بحسم:

. لأ، ما عدت أريد الزهر، أنا بدأت أتحسس منك.

أم جميل تغادر الشرفة إلى الداخل.

لا يمكن أن أرتاح إلا إذا بحت لها بكل شيء، هل أصارحها؟ هل أعترف؟ هل أحدثها عن سلمى؟ ضميري يؤنبني، أسأل الله المغفرة لي ولها، لا أشك الآن في نقائها وصدقها وبراءتها، ولكن أسأل نفسي: كيف يستطيع المجرم أن ينام على جرائمه؟ كيف يسكت من قتل أو سرق أو اعتدى على عرض؟ ألا يكلم نفسه؟ ألا يجن؟ لا يمكن لصورتها أن تفارق مخيلتي، كأنني أراها الآن! يا إلهي ما أقرب الآخرة من الدنيا؟ وكم نظنها بعيدة؟ رحماك يارب، الآن عرفت، نحن لا نعيش بالروح التي تحرك الجسد فقط، نحن نعيش بروح أخرى، روح القلب، روح الوجدان، روح العقل، بل قل روح الإيمان، هذه تحرك العقل والروح والوجدان والضمير، وتلك تحرك الجسد، كانت روحها من غير شك طاهرة، ليرحمها الله.

أبو جميل ينهض، ينادي:

. أم جميل.

تسرع إليه قادمة من الداخل، تسأل:

. هل تريد أي شيء؟
. تعالي اقعدي.
تقعد على كرسي قبالته، في غرفة الجلوس، يلتفت، ينظر إلى حديقة السبيل، يتجنب النظر في عينيها، يهمس:
. أم جميل، سامحيني.
. سامحتك، من أجل أمك والزهر، سامحتك، والله سامحتك.
. لأ، من أجل موضوع آخر.
. شغلت بالي، ما هذا الموضوع؟
يلتفت، ينظر في عينيها، يتكلم:
. ضميري يؤنبني، ما استرحت، سامحيني من كل قلبك.
. على أي شيء سأسامحك؟
. تلك المرأة اللبنانية...
. عدنا إليها؟ ما قصتها؟
ـ هي التي دعتني إلى الغداء، تناولت الغداء معها في كفر جنة، والأمر كله مصادفة.
أم جميل تدهش، تنهض، تسرع إلى الشرفة، تقف في الباب، تلتفت إليه، تصرخ، وقد وضعت يديها في خصرها:
. والله، ثم والله، لولا الخوف من الله، لرميت نفسي من الشرفة، أنت! أنت يا أبو جميل رحت مع المرأة إلى كفر جنة وتغديت معها! ومن هي؟ وما المناسبة؟ وأخفيت عني وماصارحتني؟ وبعد هذا العمر؟ وبعد عشرة ثلاثين سنة.
أبو جميل يقف مدهوشاً، أم جميل تخرج إلى الشرفة توليه ظهرها، تستند إلى حافتها، تضع رأسها بين يديها وتجهش في البكاء.
أبو جميل يلحق بها، يضع يده على كتفها، تلتفت:
. خسارة، وألف خسارة يا أبو جميل، ما توقعت هذا منك!
أبو جميل يمسح دموعها، يقبل وجنتيها، يضمها إلى صدره، يتكلم:
. حبيبتي شيرين، والله الأمر كله مصادفة، من غير ترتيب ولا تخطيط.
أم جميل تتكلم وهي تنهنه باكية:
. هو ذنبي أنا، أعرف، أنا شجعتك على الذهاب إلى دار الكتب الوطنية.
أبو جميل يطوق خصرها، يمشي بها إلى الداخل، وهو يتكلم:
. أقسم بالله، يا أم جميل، لم تمس يدي يدها، حتى ما صافحتني ولا صافحتها، والمرأة الآن صارت عند بارئها، أرجوك، سامحيني وسامحيها، أنت امرأة مؤمنة، وأنت لك بي ثقة كبيرة، وأنا...

أم جميل تهدأ قليلاً، ترفع يد أبو جميل عن خصرها، تقف قبالته، مواجهة، تتكلم معاتبة، وهي تمسح دموعها:

ـ ولماذا لم تصارحني حين سألتك؟ لماذا لم تقل أنا في كفر جنة مع سيدة لبنانية؟

. حرصت على مشاعرك.

ـ أنا أثق بك، وأعرف من هو زوجي، هل تتذكر يوم دعتك وزارة التربية إلى اجتماع في دمشق من أجل تعديل المناهج، وسافرت معك في الحافلة زميلتنا مدرسة التاريخ الآنسة ابتسام، ورجعت معك، وحكيت لي وقلت لي بلسانك: ارتاحت إليَّ، وكانت تقعد دائماً إلى جواري، هل نسيت؟ وأنا ما شككت فيك، أعرفك، كنت أتمنى لو صارحتني وقلت لي أنا مع سيدة لبنانية في مطعم بكفر جنة، كنت تقبلت الأمر وقلت هو أمر عادي.

ـ هذا أمر عادي الآن بعد ما عرفتِ، وبعد ما استشهدت المرأة، لو صارحتك في ساعتها لما كان الأمر مثل ما قلت، كنت تفاجأت، ولعبت بك الظنون، والأمر حدث مصادفة، ومن غير توقع ولا حساب، والآن صارحتك.

ـ ولو لم تمت، لما صارحتني ولما أخبرتني، ولكنت رحت في زيارة إليها في لبنان.

. لا والله يا أم جميل، حتى لو لم تمت، لكنت صارحتك، أنا لا أخفي عنك أي شيء، وأنا طول عمري ماسافرت، ولن أسافر إلا وأنت معي.

أم جميل تمسح آخر دمعاتها، تسأل هامسة، وهي تمزح:

. أستحلفك بالله، قل لي: ما قبلتها؟

أبو جميل يضحك:

. هل هذا ظنك في زوجك؟ قلت لك والله ما مست يدي يدها.

. وكيف تعرفت عليها؟

ـ سأحكي لك بالتفصيل، ولكن تعالي إلى المطبخ لأصنع لك أنا فنجان قهوة، وأحكي لك.

أبو جميل يحكي لها بالتفصيل، وهو يعد القهوة، تعلق:

ـ ويلي، كيف فعلت هذا؟ ولو رآك أحد من عفرين، لقال: أبو جميل يخون زوجته.

. المطعم ما فيه أحد غيري أنا وهي.

. والخدم؟ وصاحب المطعم.

. كلهم من ميدانكي.

أم جميل تسأل، وهي تبتسم ساخرة:

. ولماذا ما لمست يدها وما قبلتها أو مارجعت معها إلى الفندق ونمت معها؟

أبو جميل وأم جميل يحملان قهوتهما ويمضيان إلى غرفة الجلوس، يجلسان متجاورين، أبو جميل يضع يده على يد أم جميل، يلمس يدها بلطف، ويتكلم:

. أم جميل، أنا والله طول عمري ما خنتك، ولن أخونك.

. ولماذا؟

. طول عمري ما ارتكبت فاحشة، أخاف الله.

. لا من أجلي؟

. من أجل الله أولاً، ثم من أجلك.

تمسح دمعتين ترقرقتا في عينيها، تعلق:

. أبو جميل، أنا أعرفك، ولكن هذا امتحان من الله.

أبو جميل يضيف:

. صدقيني، هي سيدة محترمة، باحثة، وزوجة وفية لزوجها، وأنا لا أشك أبداً في وفائها وصدقها.

تضع يدها على يده، تقول:

. أبو جميل، التعب واضح في عينيك، من الضروري أخذ قيلولة.

ينهض، تمسك يده، يمضيان معاً إلى الداخل.

أنا فى انتظارك

أبو جميل وهو يدخل إلى الشقة يسمع أم كلثوم تصدح:

أنا في انتظارك خلّيت، ناري في ضلوعي وحطّيت
إيدي على خدّي وعدّيت، بالثانية غيابك ولا جيت

يسرع إلى غرفة الجلوس، أم جميل تحس بخطواته، تغلق المسجل، تنهض، وهي تمسح دموعها.

أبو جميل يضمها إلى صدرها، يمسح بيده على رأسها، يربت على ظهرها.

. ولدي جميل، يا أبو جميل، اشتقت إليه.

وتجهش بالبكاء.

يمسح دموعها، يقبل رأسها، يمسك بيدها، ويهمس:

. انتظرنا عشر سنين، بقي بضعة أيام، صلِّي لله، وادعي له بسلامة الوصول، نحن اليوم في ٢٠ نيسان بعد عشرة أيام في ٣٠ نيسان أو في الأول من أيار يصل جميل بإذن الله.

أم جميل تتكلم:

ـ لكن، سمعت بإيقاف السعودية رحلات الطيران من السعودية إلى سورية وبالعكس.

ـ هذا غير صحيح، الرحلات من دمشق إلى كل عواصم العالم وبالعكس، مستمرة، وهناك رحلات كثيرة مماثلة إلى اللاذقية.

يلتفت، يرى صورة كبيرة لجميل في إطار ذهبي مثبتة على الجدار المقابل لأم جميل.

وقبل أن يسأل، تتكلم أم جميل:

. جارتنا أم وائل سألتني عن صورة لجميل، أرادت رؤيته، عرضت عليها مجموع صوره منذ الطفولة، أُعجِبَتْ بهذه الصورة، أنا أخذتها إلى المصور وطلبت منه تكبيرها، واخترت أنا لها هذا الإطار.

أبو جميل يعلق:
. لكن لا ضرورة لهذا كله، ولدنا غداً نراه شخصياً، هو أجمل من ألف صورة.
ثم يضغط على المسجل، وهو يقول:
. تعالى لنستمع معاً إلى بقية الأغنية.

اتقلب على جمر النار، واتشرد ويَّا الأفكار
النسمة، أحسبها خطاك، والهمسة أحسبها لغاك

أم جميل تغلق المسجل، تهمس:
. يا ريت مادخل كلية الطب، ولا تخصص، ولا سافر إلى أمريكا ولا السعودية، ياريته كان من الأولاد الأغبياء الفاشلين، ويبقى معنا، ولا يسافر.
أبو جميل يتكلم:
. تعالي نذهب إلى مطعم القمة لنتناول الغداء.
ـ لا مطعم القمة، ولا حديقة السبيل، ولا حتى أم وائل، نفسي لا تشتهي أي شيء.
أبو جميل يقول لها:
. أنا سأعد لك القهوة، اسبقيني إلي الشرفة.
أبو جميل يحمل القهوة.
وهما يرشفان القهوة، أم جميل تتكلم، وهي تبتسم:
. أم وائل، جارتنا، اقترحت علي شراء زينة وأعلام وأضواء صغير ملونة، نزين بها الشقة، لا ستقبال ولدنا جميل.
أبو جميل يرد بهدوء:
. الأوضاع العامة يا أم جميل غير مناسبة، الناس في كرب وضيق، وما من بيت إلا وفيه مصيبة.
ـ نحن سنضع الزينة داخل الشقة، لن نضعها على الشرفة ولا في مدخل العمارة، ولا على الدرج.
. ما تغيَّر شيء، الأمر هذا هو.
. والله عودة ابننا بالسلامة فرحة كبيرة، ومن حقنا الفرح.
أبو جميل يعلق:
. لا معنى للفرح في هذه الأيام.

في ظهيرة اليوم التالي يرجع أبو جميل وأبو وائل إلى البيت، يحمل كل منهما بضعة أكياس فيها فاكهة.

فور دخول أبو جميل إلى البيت ينادي:

ـ أم جميل، تعالي، خذي، والله تعبت، هلكت من حملها على الدرج، أبو وائل ساعدَني، الله يعطيه العافية، يدي مكسورة.

لا يأتيه أي جواب، ينادي مرة ثانية، ولا جواب. يتجه إلى الشرفة. وإذا هي قاعدة في الشرفة، صامتة لا تتكلم. يدخل إلى الشرفة، يفاجأ:

. أوه، ماهذا؟ شيء رائع.

تنهض، لتقول:

ـ هذه وردة بيضاء، هي أنت، وهذه وردة حمراء، هي أنا، وهذه وردة صفراء فاقعة هي هيفين، وهذه وردة شمعية اللون هي ولدنا الدكتور جميل.

يدهش، يجد نفسه أمام أربعة أصص فخارية، في الجهة الشمالية، تجاه شارع تشرين أصيصان، وفي الجهة الشرقية تجاه شارع فيصل أصيصان، كل أصيص تحفة فنية، مطلي بخزف زجاجي متألق، وفي كل أصيص شجيرة ورد كبيرة، نامية بوحشية مدهشة، وفي كل شجيرة ثلاث وردات أو أربع متفتحات، وكل وردة كأنها بركان عطر متفجر، هي موسيقى صاخبة، تضج بالحياة.

. شيء رائع يا شيرين، شكراً لك، ذوقك مدهش، بالأمس كنا نتحدث عن الورد واليوم أراه يملأ الشرفة، ما عدنا بحاجة للنزول إلى حديقة السبيل.

. وبالأمس اتهمتني بالتحسس من أمك، واليوم أملأ لك الشرفة، لأذكرك بأمك، يرحمها الله، ولأؤكد لك أني كنت أحبها، ولا أتحسس منها، وأفكر في شراء قفص فيه كناري، ولكن لا أعرف المحلات التي تباع فيها الكناريات.

. جارتنا أم صلاح تبيع الكناريات، أنت حكيت لي.

. إذا طلبت منها القفص والكناري، لن تأخذ ثمنه، أنا أعرف، هي فقيرة وكريمة.

أبو جميل يعلق:

. اتركي فكرة القفص والكناري، أرجوك، لا أحب الأقفاص، أحب الكناريات، لكن لا أحب الأقفاص، وها نحن نسمع تغريدها كل صباح من حديقة الجارة، إذا شئت

ضعي على حافة الشرفة فُتات الخبز لتري العصافير تحط بحرية على الشرفة، ولكن من أين اشتريت الأصص والورود؟ وكيف حملتها إلى الدور الثالث؟

. أنتَ حدَّثْتَني عن المشْتل، قبل عدة أيام، هل نسيت؟ وأنت حددت لي موقعه، الشارع الثالث وراء جامع الرحمن، من الجهة الشرقية، والرجل حملها بنفسه إلى البيت ووضعها بنفسه في الشرفة، وهو نصح لي بالأصص الفخارية، هي أجمل، وملائمة للورد، الأصص البلاستيكية تؤذي الجذور.

. سلمت يداك يا أم جميل، ولكن لماذا ما وضعتها هكذا على طول الشرفة تجاه الغرب؟

. حتى لا تضيق الشرفة.

ويرن هاتف أم جميل الجوال، وإذا جارتها أم وائل تدعوهم إلى فنجان قهوة.

أبو جميل يعلق:

. هذه المرة نحن سندعوها، لترى الورود.

أم جميل ترد بلهجة مختلفة:

ـ لأ، لا أريد، أرجوك، ستصيب الوردات بالعين، فتذبل وتحترق، أو تغار فتذهب فتشتري مثلها، أنت تعرف، المرأة تغار حتى من بنتها.

أبو جميل يدهش، يعلِّق:

ـ ما هذا الكلام يا أم جميل؟ هذا شيء جديد لم أسمع منك مثله من قبل، أعرفك سمحة وكريمة، وطول عمرك ما اعتقدت بالحسد ولا العين الصيابة، وطول عمرك ما حكيت عن الغَيرة، وبعد هذا أم وائل أعز من أختك، ما هذا التغير؟

ترد بمرح:

ـ الإنسان ابن بيئته، الحي الجديد والعمارة والمنطقة هذه بيئة جديدة ولها تأثيرها.

. لا، لا، لا أقبل بهذا الكلام، هذا مُزاح، ونحن، ما مر غير شهرين على نزولنا في هذه المنطقة، أو أقل، سنقطف وردتين لجارتنا أم وائل وزوجها أبو وائل.

أم جميل تحتد وتصيح بطريقة مبالغ فيها:

ـ لا والله، هذه الوردات لا يقطفها أحد، وقلت لك، إذا رأتها أم وائل سوف تحسدنا وتغار.

. سنقول لها قطفناها من حديقة السبيل.

أم جميل ترد بجدية مصطنعة:

. هيا لننزل، لن نقطف أي وردة ولن نكذب، وبعد ذلك ما المناسبة لتقديم الورد لها؟ هات؟ قل لي؟

أبو جميل ينزل على الدرج مع أم جميل وهو يقول لها:

ـ لأ، أنت اليوم متغيرة، عصبية، وحادة المزاج، وصوتك مرتفع، أمرك غريب، يا أم جميل.

. لا، أنا طبيعية، طبيعية تماماً، الآن سترى عند أم وائل، وتعرف.

*

في الشرفة عند أم وائل يفاجأ أبو جميل بوجود أربعة أصص، هي توائم الأصص الموجودة في شرفته، شجيرات الورد فيها كأنها هي نفس شجيرات الورد في شرفته، الورود المتفتحة كأنها هي الورود نفسها، حمراء وبيضاء وصفراء فاقعة وشمعية اللون.

أبو وائل يتكلم:

. هل رأيت يا أبو جميل؟ أم وائل وأم جميل كل واحدة أوقعت زوجها في مقلب.

أبو جميل:

. هو مقلب الورود، ليتنا نقع كل يوم فيه.

ثم يلتفت إلى أم وائل ويعلق مدهوشاً:

ـ الأصص والشجيرات والورود عندنا وعندكم متطابقة مئة بالمئة، كأنها توائم حقيقية، لا يمكن العثور على نقطة اختلاف.

أم وائل تتكلم:

ـ والله يا أبو جميل، البائع أمضى ساعة وهو ينتقي لنا الأصص والشجيرات والورود المتطابقة، كنت أنا وأم جميل في أشد الحرص على انتقاء كل شيء، قلت للبائع عن أم جميل: هذه أختي وسلفتي، وزوجها شقيق زوجي، ونحن نسكن في عمارة واحدة، وشقتها فوق شقتي، لا نريد إلا الأصص والشجيرات والورود المتطابقة.

أبو جميل يتوجه إلى زوجته، ويعلق:

. لكن، مع ذلك، أنا أغار من ورود جارتنا أم وائل وأحسدها عليها.

أم جميل تسأل مدهوشة:

. ولماذا الغيرة والحسد؟

أبو جميل يرد:

ـ الأصص عند أم وائل مصفوفة بجوار بعضها على طول الشرفة باتجاه الغرب، ووضعها بهذه الطريقة أجمل، كأنها معزوفة موسيقية، ويمكن رؤيتها من داخل غرفة الجلوس.

أم جميل تعلق:

. حاضر، أنا الآن فوراً سأصعد إلى الشقة لأصف الأصص بجوار بعضها على طول الشرفة.

أم وائل تتدخل، تعلق وهي تضحك:

ـ لا يا أم جميل، أنا لا أقبل، لا أسمح لك بصف أصص الورود عندك مثل صفها عندي.

أبو وائل يلتفت إلى أبو جميل ويقول له:

. كان الله في عوني وعونك يا أبو جميل، اتفقت أم جميل وأم وائل علينا، لا بد من التسليم لهما.

أبو جميل يتكلم:

. الحقيقة أنا المسؤول عن هذا كله، لأني يوم أمس قلت لأم جميل: نسينا شراء الأصص، كنا نفكر من قبل بشراء أصص بلاستيكية كبيرة، ووضعها على حافة الشرفة.

وتتكلم أم جميل:

ـ لأ، الحقيقة، الفضل لأختي أم وائل، من أسبوع أو أكثر، وهي تقول لي: سنشتري الورود والزهور ونملأ الشقة بالزينة والأضواء والأعلام، بمناسبة عودة الدكتور جميل، وأنا أقول لها: الجو العام للبلد كلها لا يناسب، هناك أسر منكوبة وأسر نازحة وشهداء وجرحى، مصائب كثيرة، لكن أمام إلحاحها اقتنعت بشراء أصص الورد، نعم، وأنت أمس ذكرتني بالأصص، ودَلَلْتَني على المشتل لبيع الزهور، فاقتنعت بفكرة شراء هذه الشجيرات، الحقيقة، النفس ما عادت تشتهي أي شيء، ولكن من أجل جميل.

أم وائل تدخل قادمة من المطبخ تحمل القهوة، تعلق:

. نسأل الله وصوله بالسلامة.

عشر دقائق في حديقة السبيل

بعد يومين، أم جميل وأبو جميل ينزلان معاً إلى حديقة السبيل.
يمرَّان أمام اللوحة المتأرجحة فوق الصيدلية المغلقة.
أم جميل تعلِّق:
. من أربعة أشهر رأينا اللوحة وهي عالقة بمسمار واحد، يؤرجحها الهواء، حتى الآن لم تقع، والصيدلية مغلقة.
أبو جميل يتكلم:
. أول مرة قلتِ عنها مثل قلعة حلب، ومرة ثانية شبهتها بآثار تدمر؟ واليوم مثل أي آثار؟
. اليوم أنا متوترة، لا تسألني أرجوك.
عند باب الحديقة يعترضهما عجوز يمدّ لهم يده اليسرى بالسؤال، يده اليمنى مقطوعة عند الرسغ، موضع القطع ظاهر، حيث يظهر الجلد المتجعد، وهو يحسر القميص عن يده، أم جميل تفتح حقيبتها، تضع في يده اليسرى مبلغاً ما.
في مدخل الحديقة، وعلى الرصيف، تقعد صبيَّة دون الثلاثين، تفرش منديلاً تناثرت فيه بضع ليرات معدنية، وفي حضنها وليد نائم لا يزيد عمره عن بضعة أشهر، وثديها مدلوق من فتحة ثوبها.
أم جميل تناولها ورقة نقدية، تضعها بين طيات ثوب الوليد، بعد أن يتجاوزاها، تقول أم جميل لزوجها:
. بالله عليك قل لي: ماذا تجد أنت وأبو وائل في حديقة السبيل، لا بد كل يوم من النزول إليها؟
. لا نجد غير الشيوخ والعجائز من مثلنا.
. وما هذه الصداقة التي نشأت فجأة بينك وبين أبو وائل، كأنك تعرفه من مئة سنة؟
. أنا عجوز، وهو عجوز مثلي، والرجل طيب، وأنا انقطع عني كل أصدقائي، وأنا انقطعت عنهم، تكلمنا من قبل على هذا الموضوع، لا أريد تكرار الحديث عنه، وتذكَّري، عشنا خمس سنين في منطقة الملعب البلدي ما استطعنا فيها تكوين صداقة

مع أحد، لا أنا ولا أنت، غير معرفتي السطحية بأبو سليم، وما هو جارنا في نفس العمارة، هو جار في عمارة مقابلة، ولا تنسي، أنت أيضاً، بسرعة كبيرة أصبحت أم وائل كأنها صديقتك من ألف سنة، لا مئة.

وقبيل وصولهما إلى البركة ترى على الطرف الأيمن بائع دمى وألعاب للأطفال، فرش بها الأرض، وعلى الطرف الأيسر ترى أكثر من عشر أراكيل كرستالية فاخرة وأخرى معدنية متألقة وإلى جانبها منضدة صفت عليها علب المعسل بأنواعه المختلفة، وثمة شاب أمام موقد فيه جمرات من الفحم حمراء تشع باللهب.

أم جميل تتأمل المشهد مدهوشة، والشاب يلح عليهما بالنداء:

. أركيلة خانم، أركيلة أستاذ، أطيب معسّل بالتفاح والكرز.

عندما يصبحان أمام البركة تضع يدها على صدرها، وتهتف:

. يا إلهي، هذه هي البركة؟

أبو جميل يقول:

. نعم هذه هي البركة، ماذا حصل؟

ـ كم كانت جميلة، رقيقة المياه شفافة، أرضها مفروشة بالسيراميك الأزرق الفاتح، الماء فيها بلون السماء، وفي الوسط نافورة صغيرة، يتقافز الماء منها ويسقط مثل المطر الخفيف، كانت حافاتها واطئة وهي من حجر أصفر أملس ناعم كالمخمل، لا أرى الآن سوى الحفائر في أرضها، وحافاتها مكسرة، وفي وسطها أنابيب رفيعة وأخرى ثخينة كأنها أوردة وشرايين أو أمعاء مدلوقة.

أبو جميل يعلق:

. أنا رأيتها هكذا من أربعة أشهر، من أول بحثي عن شقة لنا في هذه المنطقة، دخلت إليها، فرأيتها على هذا الوضع، الإدارة تجري فيها تصليحات، قبل عدة سنوات جهزت بمضخات وصمامات ونوافير تعمل بمصاحبة الموسيقى، لكن تعطلت، هذه الآن تصليحات.

ـ وهل تسمي هذه تصليحات؟ ومنذ أربعة أشهر ما انتهت التصليحات؟ وأين العمال؟

ـ والله أنا يا أم جميل ما تنبهت إلى هذا كله، لا أنا ولا أبو وائل، قلنا لاشك هناك خطة للتصليح، ولا بد سوف تُنَفَّذ اليوم أو غداً.

. هذا تدمير يا أبو جميل، لا تصليح، وفي ظني هو بفعل قذيفة، أو قذائف.

أبو جميل يشير إلى أحد المقاعد، ويتكلم:

. أنا أقعد هناك دائماً على هذا المقعد فوق الهضبة، وهو يشرف على الحديقة، وأرى أمامي الإيوان بأعمدته الرخامية، والأولاد يلعبون داخله، وكل ولد ينادي ويصيح،

ويتردد صدى أصواتهم، هو أجمل مقعد في الحديقة، ومن مكاني فيه أرى شرفة بيتنا، ولكن يقعد الآن عليه شاب مع خطيبته.

أم جميل تشير إلى مقعد آخر، فيتجهان إليه، ويقعدان عليه.

أبو جميل يشير إلى لوحة معدنية صغيرة، مثبتة بوساطة قضيب معدني فوق العشب، ويقول لأم جميل:

. اقرئي المكتوب على اللوحة.

. "ممنوع الجلوس فوق العشب".

. ما ملاحظتك؟

ـ ملاحظتي؟ لا أرى العشب، أرى القش الأصفر اليابس، وأرى الرجال والنساء جالسين فوقه.

ـ لم تلاحظي الخطأ في التعبير، الصواب: ممنوع القعود فوق العشب، فعل جلس يستعمل مع من هو متكئ، أما قعد، فيستعمل مع من هو واقف، فيقال قعد.

أم جميل تضحك، وتعلق:

ـ أضحكتني، وإن كنت غير مشتهية الضحك، نسيت خطأ البشر بقعودهم وجلوسهم ومشيهم فوق العشب، ولم تلحظ غير هذا الخطأ اللغوي، وما هو في الحقيقة خطأ، وألف مرة قلت لك: دلالات الألفاظ تتطور بالاستعمال، وعلى كل حال، هم لا يجلسون على العشب، هم يجلسون على قش أصفر يابس، أنا أعرف، أنت تريد استفزازي والتفاصح علي.

ـ لا والله، يا أم جميل، أردت مداعبتك وتسليتك، عن أي شيء سنتحدث؟ هل أحكي لك عن نابليون بونابرت وكليبر وسليمان الحلبي؟

. لأ، أرجوك، مللت حديثك عنهم.

وتصمت ثم تضيف:

. هل تعرف؟ يا أبو جميل، ربما من عشر سنين لم أزر الحديقة، أو أكثر، ومر أكثر من شهرين، ونحن نسكن بجوار الحديقة، والحديقة أمامنا، وما نزلت إليها.

. وكيف رأيتها؟

. تغيرت.

. للأفضل؟

. لأ، لأ، ما لاحظت من كلامي؟ واضح، للأسوأ.

ـ ولكن أنا لا أرى أي شيء من السوء فيها؟ المقاعد زادت، والأشجار هي الأشجار.

. يا إلهي، كانت حديقة السبيل غير ما هي عليه اليوم، ما توقعت رؤيتها على هذا الشكل، كانت كبيرة، وأحس باتساعها ورحابتها، اليوم أحس بها صغيرة، صغيرة

وخانقة، وماهذا الزحام؟، كأننا في يوم عطلة أو عيد، أو كأن المدينة ضربها زلزال فنزل الناس كلهم إلى الحديقة.

ولد دون العاشرة يقف أمام أم جميل، ينظر إليها، عيناه جامدتان لا تطرفان، طرف فمه مائل، يشير إلى أم جميل بيديه، تدرك أنه أبكم، تفتح حقيبة يدها، تناوله قطعة سكر، يتناولها بأصابع راعشة، ثم يركض.

أم جميل تتكلم:

. من الغريب انتشار الأراكيل، حتى بين الشبان والصبايا، فور دخولي الحديقة شممت رائحة المعسِّل، الإنسان يأتي إلى الحديقة ليملأ رئتيه بالهواء النقي، لا بدخان الأركيلة، ولا حظ معي تسريحات شعر الشباب، حقيقة شيء مقزّز، تشمئز منه النفس، لا ذوق ولا جمال، الواحد منهم طول وجهه ثلاثة أشبار، ويرفع شعره إلى فوق شبرين.

أبو جميل يتكلم:

. والله أنا شاهدت هذا، ولكن ما أثار اهتمامي، وما أحسست بشيء، على كل حال، كل عصر له زيه في الثياب وتسريحة الشعر، وهذه كلها أمور شكلية وتتغير.

ـ وفي الأرض وعلى المرج وتحت المقاعد زجاجات الماء الفارغة والمناديل الورقية وأعقاب السكائر وعلب السكائر والأوراق، ماهذا؟ لا نظافة ولا عناية؟ وأكثر ما أزعجني تجوال باعة القهوة في أرجاء الحديقة! لا أعرف هل تُشرب هذه القهوة؟

وتصمت، ثم تسأل:

. هل تذكر كيف كانت حديقة السبيل؟ أنا أذكر يوم اصطحبني والدي معه إلى حلب، وكنت في العاشرة، أخذني إلى الطبيب، وبعدها جاء بي إلى حديقة السبيل، كان هناك في الطرف الشرقي مهجع حجري جميل للغزلان...

أبو جميل يقاطعها، يعلّق ممازحاً:

. ما شاء الله، زوجتي مدرسة اللغة العربية ولا تعرف اسم بيت الغزلان.

ـ أرجوك أبو جميل، أنت كلما رأيتني متوترة طاب لك المزاح، أعرف، هو كِناس، ولكن سأقول حظيرة، مهجع، بيت، سأقول قصر الغزلان، هل يعجبك هذا؟

ـ هذا من حقك، فأنت مدرسة اللغة العربية، ولكن المعاجم لا تسمح لك ولا مجمع اللغة العربية.

ـ مرة ثانية، أنت جعلتني أضحك، وأنا غير مشتهية الضحك، أنا أسألك: هل نستعمل اللغة كما يقول المعجم؟ وأي معجم؟ عد إلى لسان العرب، ستجد بعض الكلمات لها عشرات المعاني، بين حقيقة ومجاز ومعنى قديم ومعنى متطور، نحن نستعمل الألفاظ بمعانيها المتداولة، لا بمعانيها المعجمية، ونستعمل الألفاظ وفق

حالتنا النفسية ووفق انفعالنا، وفق الموقف ووفق المقام، بل وفق المعنى الذي نريد، ونحملها مشاعرنا وعواطفنا وانفعالاتنا، حتى معناها يختلف وفق النبرة ووفق السياق.

أبو جميل يقاطعها:

. شكراً يا أم جميل، شكراً، أنت أعطيتني درساً في اللغة، وأثبت لي حقيقة عن جدارة: أنت مدرسة اللغة العربية.

. أنت ورطتني، وأنا اندفعت.

وتصمت، ثم تتكلم كمن يتابع حديثاً انقطع:

. كان هناك قصر للغزلان، هل يعجبك هذا؟ مبني بالحجر الأصفر، على شكل دائري، ومحاط بسور من الدرابزين الحديدي المزخرف، وكان فيه أربع غزالات أو خمس، جننت لما رأيتها، وكان في الطرف المقابل قفص حديدي كبير للطواويس.

وتصمت، تلتفت إلى زوجها، تسأل ممازحة:

. وهل تريد أي اسم آخر غير القفص؟

أبو جميل يفكر، ثم يعلق:

. هو قفص كبير، أنا سأسميه قلعة.

أم جميل تتكلم:

. وقفت مع أبي أمام قصر الطواويس، ننتظر من الطاووس فتح ذيله، ولما فتحه أدهشني المنظر، كم أحببته، ولا أنسى: أحد الأشخاص كان يريد نتف ريشة من ذيله، ولا أعرف، بعد ذلك وجدت في بيتنا بعفرين ثلاث ريشات لطاووس، حزنت، سألت أبي: هل نتفتَها أنت من ذيل الطاووس بحلب؟ قال: لأ، يا بنتي، اشتريتها من بائع، ولكن، بصراحة، لم يعجبني صوت الطاووس، أنت ابن حلب، تذْكر هذا أفضل مني.

أبو جميل يتكلم:

ـ أنا كنت أحب الطاحونة الهوائية في مدخل السبيل، وهي مركَّبة على بئر لسحب الماء منه، وبعدها قرأت عن حديقة السبيل، في إحدى الموسوعات، الحديقة يا أم جميل ترجع إلى عام ١٨٩٦ أنشئت في الأصل خارج مدينة حلب في عهد الوالي العثماني رائف باشا، ثم جرى توسيعها في عهد محافظ حلب الأمير مصطفى الشهابي، وتم افتتاحها في شهر شباط عام ١٩٤٦ مع استقلال سورية.

أم جميل تتكلم:

. أنت كل همك التاريخ، ذاكرتك تاريخية، أنا ذاكرتي جغرافية، أنا أتذكر دائماً الأماكن التي زرتها، وخاصة في صغري، لا أنسى مثلاً الغزالات، ولا أتوقع اليوم وجود غزالات، وربما خرب مهجعها كِناسها قصرها، والله ماعدت أعرف أحكي.

أبو جميل يضحك، ويعلق:

ـ قصر الغزالات موجود، وهو هناك، أصبح الآن حظيرة تُرَبَّى الآن فيها الأرانب، وقلعة الطواويس موجودة، ولكن هي الآن مجرد قفص يعيش فيه قرد، انظري، الناس يتجمعون حوله، هل نذهب للفرجة عليه؟

أم جميل تضحك ساخرة:

ـ بعد طائر الطاووس تريدني أتفرج على القرد؟

ـ وهناك في الإيوان المسقوف، حيث يلعب الآن الأولاد ويتصايحون، كانت الفرقة الموسيقية تأتي صباح يومي الجمعة والأحد لتعزف موسيقا يتردد صداها في أرجاء الحديقة، وما كان يسمح بدخول الباعة ولا المتسولين ولا العربات.

أم جميل تعلق:

ـ هذا اسمه، فيما أظن، يا أبو جميل: الشاذروان، لا الإيوان، الإيوان، هو غرفة في صدر الدار مسقوفة ولها ثلاثة جدران فقط، تكون مفتوحة على فناء الدار، ويقع على كل جانب منها غرفة، هذا هو الإيوان، وكما نسميه نحن: الليوان، أما الشاذروان فهو بناء مدور مفتوح من أطرافه كلها ومحاط بأعمدة تحمل السقف.

أبو جميل يعلق:

ـ أحسنت، يا أم جميل، الآن أثبتِّ مرة ثانية وعن جدارة أنك مدرسة اللغة العربية.

ـ للأسف، كلامنا النظري على اللغة، أفسد علينا استمتاعنا بالواقع الحقيقي الذي نعيشه.

ـ لا يا أم جميل، لا، لا تقولي هذا، اللغة زادت من متعتنا وأكسبتنا معرفة.

أم جميل تسرح في الكلام:

ـ على كل حال أنا لا أنسى يوم زرنا حديقة السبيل أنا وأنت أيام الخطبة، ما كان أحلاها من أيام وما أحلاها في تلك الأيام من حديقة، ثم زرناها في الأيام الأولى من زواجنا، وأنا لا أنسى قعودنا على حافة البركة، وجاء المصور والتقط لنا عدة صور، لا أنسى، كانت حافة البركة كما قلت لك ناعمة كالمخمل، أحس الآن بالأشجار شاخت، ومن باب الحديقة حتى مقعدنا هنا، ما رأيت قطعة مرج أخضر، العشب كله أصفر يابس، ونحن في نيسان، لا في الصيف، ولا رأيت أي مساحة ولو صغيرة من الورود أو الزنابق أو الأزهار، نحن الآن في موسم الورد، كل ما رأيته أكياس النايلون السوداء والبيضاء، وعلب السكائر الفارغة والشباب يفترشون العشب الأصفر ويلعبون بورق الشدة، وفي أياديهم خراطيم الأراكيل.

أبو جميل يعلق:

ـ شعبنا متخلف، لا يقدِّر الحديقة ولا الورد، يدوس فوق العشب ويقعد عليه.

ـ مؤسف هذا الإهمال، الإدارة تتحمل المسؤولية، لا تتهم شعبنا يا أبو جميل، الإدارة هي المسؤولة، لو وضعت سلات للمهملات، لو منعت الباعة من الدخول إلى الحديقة، أين الحراس، أين عمال النظافة؟ الحديقة بحاجة إلى مهندسين زراعيين يعنون بالأشجار والعشب والزهور، بحاجة إلى حدائقيين مختصين، أين الإدراة؟ أرجوك، لا تتهم شعبنا، والله لو توافرت للحديقة إدراة حقيقية صادقة مخلصة تحب العمل وتتابع الأمور، لرأيت الحديقة مثل الجنة.

أبو جميل يرد:

ـ هذا كله غير صحيح، شعبنا هو المسؤول، سأحكي لك، لتقتنعي، مررت مصادفة أنا وأبو وائل أمام قفص القرد، أكثر الذين تجمعوا أمامه للفرجة عليه كانوا من الصبايا والنساء، وأصوات الضحك تعلو، احزري ما هو سبب ضحكهم؟

. كان القرد يقلد.

. القرد كان كان كان...ماذا أقول لك: كان يلعب بعضوه.

أم جميل ترد بحزم:

. مع ذلك، أنا أحمِّل الإدارة المسؤولية، لو وضعوا في القفص طائر الطاووس؟ أما كان أجمل؟ أو على الأقل: لو صنعوا قفصين ووضعوا في هذا القرد وفي الآخر طائر الطاووس.

ـ أنا متأكد، لو وضعوا قفصين في الأول الطاووس وفي الثاني القرد، لرأيت أكثر الناس متجمعين أمام القرد، ولما وجدت أمام الطاووس إلا القليل.

. هذا طبيعي يا أبو جميل.

. كيف هو طبيعي؟ هذا فساد في الذوق.

. لأ، يا أبو جميل، كل الناس يمكنهم الضحك، لكن لا يستطيع تأمل الجمال إلا قليل منهم.

. غير معقول؟

. الطاووس جميل، والجمال يحتاج إلى تأمل وطول تفكير وهدوء، يحتاج إعمال العقل، وهو عملية فردية، أما القرد فهو مضحك، والضحك عملية بسيطة سريعة يستجيب لها الكبير والصغير، لا يحتاج الضحك إلى تأمل وتفكير، الضحك بطبيعته عمل جماعي، صدقني النكتة نفسها إذا سمعها فرد وحده لا يضحك بقدر ما يضحك إذا ماسمعها مع جماعة ورأى الجماعة كلها تضحك.

أبو جميل يتكلم بلهجة مختلفة:

. دعينا من هذا كله، سأنادي البائع، لنشرب فنجان قهوة.

ـ لا والله، لا أذوقها، رأيت بائع القهوة في مدخل الحديقة، ورأيت أصابعه المتسخة وأظفاره الطويلة، يا إلهي! كيف يشرب الناس مثل هذه القهوة؟ حتى رائحتها زكمت أنفي، أنا كرهت كل شيء في الحديقة.

أبو جميل يتكلم:

ـ والله، كنت أمر بكل هذا وأراه، ولكن ما فكرت فيه.

ـ وهذا هو الفرق بين رأى وأبصر، أو هو الفرق في الحقيقة بين العيش في الواقع، والوعي به، كثير من الناس يعيشون في الفقر وفي الجهل وفي الظلم، ولكنهم لا يحسون بالفقر ولا بالجهل ولا بالظلم، وما أحوجنا إلى الوعي.

وترسل زفرة، ثم تتكلم:

ـ ويا ليت الحديقة وحدها تغيَّرت نحو الأسوأ، كل شيء يسير نحو الأسوأ، الدنيا كلها تغيرت، إذا كانت حديقة السبيل وهي أجمل مكان في حلب، صارت إلى هذه الحال، فكيف حلب؟

ـ يا أم جميل، الدنيا بخير، تفاءلي.

ويمر ولد في العاشرة حافي القدمين متسخ الثياب يحمل مجمرة معدنية فيها قطع فحم صغيرة تتوهج، يمضي ليوزعها على الأراكيل المنتشرة في أرجاء الحديقة.

أم جميل تتكلم:

ـ انظر، انظر، أي تفاؤل تدعوني إليه؟ هذا الطفل مكانه في المدرسة، يلعب ويتعلم ويسمع الموسيقى، ترى هل يعرف فيروز؟ هل يحفظ النشيد الوطني؟ هل يذهب إلى المسجد؟ أي مستقبل ينتظره؟ أي مستقبل ينتظر البلاد كلها؟

ـ يا أم جميل، نحن جئنا إلى الحديقة لنتسلى، ولنستريح، لا لنضع هموم الدنيا كلها فوق رأسنا، قومي حتى نرجع إلى البيت.

أم جميل تنظر في ساعة يدها، تعلق:

ـ الحقيقة، ضاقت بي روحي، فقلت نذهب إلى حديقة السبيل لنستريح، ما توقعت رؤية هذه المشاهد المزعجة، هذه ما هي حديقة السبيل التي كنت أعرفها أيام زمان.

يمر صمت ثقيل، يتكلم أبو جميل:

ـ أم جميل، أنت عندك شيء أزعجك، ما هي مسألة حديقة ونظافة وتسريحة شعر، أنت عندك موضوع آخر، احكي، صارحيني.

تصمت. أبو جميل يتكلم:

ـ شقتنا خمس غرف، والشرفة مطلة على حلب كلها، مثلما قال أبو سامر، وضاقت نفسك؟ عندك كلام، قوليه.

ـ نعم، اليوم المديرة طلبت منّا إجراء امتحان شفهي في كل حصة لأكثر الطالبات، وخاصة الطالبة التي يظهر عليها الشرود أو النعاس والخمول.

. هذا شيء عادي.

ـ لأ، الأمر غير عادي، هو الخوف من تعاطي المخدرات، تم القبض قبل يومين على بائع سكاكر وقطع العلكة أمام إحدى الثانويات بحلب، وهو يبيع المخدرات.

ـ أي ثانوية؟

. لم تذكر المديرة اسم الثانوية، ولا يهمنا اسم الثانوية، تهمنا الحالة المشكلة.

. كل دول العالم تعاني من مشكلة المخدرات، وهذا أمر معروف، وما هو سر.

. ولكن في مثل هذه الظروف؟

. في مثل هذه الظروف تنتشر المخدرات أكثر. طبعاً الاعتراف بوجود الظاهرة لا يعني الإقرار بها، قولي يا أم جميل: ماذا نفعل؟ ليت المشكلة تقف عند المخدرات، المشكلة أكبر، بدأنا نحس بالعجز، كل شيء مشكلة، وكل مشكلة أكبر من التالية، أي واحد منا ما هو قادر على فعل أي شيء، لا أعرف ماذا أقول؟، صار المواطن اليوم ثمنه رصاصة، لا يعرف متى تصيبه ولا أين ولا كيف، ولا أحد يعرف لماذا؟.

أم جميل تنتفض، تتكلم بصوت متقطع، والغصة تخنقها:

. اليوم إحدى المدرسات ما جاءت إلى المدرسة، بنتها في الصف الرابع، نزلت قذيفة على المدرسة، استشهد ثلاث عشرة طفلة مع المعلمة، عدا الجرحى، بنتها ...بنتها يا أبو جميل، طفلة مثل الوردة، جاءت بها مرة إلى مدرستنا .....يا إلهي...

وتجهش ببكاء مختنق.

. حسبي الله ونعم الوكيل.

ـ كنا نرى هذا في التلفزيون، ونتأثر، ولكن اليوم نعيش الحالة، اليوم إحدى الزميلات، ومن المحتمل غداً أنا.

. لا سمح الله.

. وأرى الناس في المقاهي والمطاعم والأسواق وعند باعة الذهب وفي المحلات التجارية، كل همهم أحدث الأزياء وآخر المسلسلات ومسابقات الغناء والأراب أيدول، طموح كل شاب هو الغناء والظهور في التلفزيون، كأنه لا شيء يجري من حولهم؟

أبو جميل يتكلم:

. يا أم جميل، الحياة أقوى من الموت.

. لأ، هذا غير صحيح، هذه ما هي الحياة.

تنهض مستاءة، ينهض في إثرها، يرسل زفرة، يتكلم:

. أنا مثلك، أسمع، وأرى، وأحس، وأعيش، ولكن ماذا نفعل؟

. كأننا قبل يوم القيامة، كأن الساعة اقتربت، كأن الناس لا يعرفون الله، كأنهم ينكرون وجوده، فهم يفعلون كل ما يحلو لهم، ماذا أقول؟

أبو جميل يتكلم:

. لأ، لا أحد ينكر وجود الله، كلهم يؤمنون بالله، وكلهم يعرفونه، ولكنهم ينسونه، تذكري قوله تعالى:"نسُوا الله فأنساهم أنفسَهم".

. وماذا سنفعل؟

. لن نفعل أي شيء، نرجع إلى البيت، نطمئن عليه، قبل ما تسقط فوقه قذيفة.

أم جميل تعلق:

ـ الحقيقة، ما عدنا نشتهي الحديقة ولا المطعم ولا الشارع ولا الشرفة ولا حتى البيت.

. ولذلك بدأ الناس بالنزوح.

ـ طبعاً، النزوح أمر غير صحيح، لكن لا ينزح إلا المضطر، هل يبقى تحت القذائف ليهبط البيت فوقه، ويموت تحت الأنقاض؟

يقترب منهما رجل هرم، تجاوز الثمانين، قصير هزيل نحيل، محدودب الظهر، يرتدي بدلة عسكرية شتوية مهترئة، على الجانب الأيمن من صدره أغطية زجاجات معدنية وأخرى بلاستيكية، وعلى الجانب الأيسر ملاعق صغيرة وأخرى كبيرة، يقف أمامهما، يحييهما بيد راعشة، ثم يأخذ في الكلام، من فم تساقطت أسنانه، وارتخت شفتاه، فهو يمج الكلام مجاً، محاولاً التحدث بعربية فصيحة:

ـ سلام عليكما أيها الزوجان الكريمان، أرحب بكما في إمبراطوريتي الشاسعة الواسعة، وأحييكما، هذه هي مملكتي وقد ورثتها عن أبي الذي ورثها عن أبيه والذي ورثها أيضاً عن أبيه والذي ورثها أيضاً عن أبيه وهكذا إلى ما قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام، وأنا أحافظ على الديموقراطية فيها مثلما حافظ عليها الآباء والجدود، هذه المقاعد كلها ملك لكم، اقعدوا حيث شئتم، أنا لا مقعد لي فيها، والأشجار كلها لكم، أنا لا أملك فيها أي شجرة، فقط السماء لي والأرض، عيشوا بسلام فيها آمنين، أبوابها مفتوحة للداخلين والخارجين، لا جوازات سفر ولا بطاقات هوية، ولا رسوم، انظروا إلى رعايا مملكتي، يتحركون فيها بحرية حيث يشاؤون.

أم جميل تضحك، تسأله:

. مواطنون أم رعايا؟

يرد بحسم:

ـ هم رعايا، لأنني أنا راعيهم الأول، ولكن أنبهكم، عند الباب الشرقي وحش مختبئ في باطن الأرض، يمد رأسه من الجدار، رأسه رأس سبع، يفتح فمه ويندلق منه الماء، يريد إغراق الإمبراطورية، ولكنها لا تغرق، هو لا يعرف، تحت رأسه

حوض حجري يبتلع كل ما ينصب فيه من الماء، إياكم والخروج من هذا الباب، اخرجوا من الباب الرئيسي، والسلام عليكم.

يدق قدمه في الأرض، يختل توازنه، يكاد يسقط، يقدم إليهم التحية بيد نحيلة راعشة، ثم يوليهم ظهره، ويمضي.

أم جميل تضحك، تسأل:

. من أين ظهر لنا هذا المجنون؟

ـ صدقيني يا أم جميل، ما رأيته من قبل ولا مرة، كل يومين أو ثلاثة أنزل أنا وأبو وائل إلى حديقة السبيل، منذ شهرين، منذ نزولنا في الشقة الجديدة، لكن ما رأيته ولا مرة، لا أعرف من أين جاء.

ـ هذا حظي أنا، ما عدت أشتهي حديقة السبيل، الإطلالة عليها من الشرفة، ورؤيتها من بعيد أجمل من الدخول إليها، والتعرف عليها من قرب.

ـ هذا هو قانون المعرفة، خذي التاريخ مثلاً، إذا نظرنا إليه من بعيد نظرة شاملة، رأينا التطور العلمي والتقدم الحضاري، وإذا اقتربنا منه أكثر، وقرأنا التفاصيل رأينا كل ما هو غير سار، قومي لنعد إلى الشقة، البيت أجمل.

أبو جميل يمسك بيد أم جميل، ينهضان معاً، ويسيران متجهين نحو البيت.

أم جميل تتكلم:

ـ تعال لنخرج من الباب الشرقي من الحديقة، أريد العمل عكس ما نصح لنا المجنون، أريد الفرجة على رأس السبع والماء ينصب من فمه، عندما زرت الحديقة وأنا طفلة مع أبي كما حدثتك، حملني أبي، ووضع فمي تحت فم السبع وقال لي: اشربي، يا إلهي، كنت خائفة، لم أشرب.

ـ هو أقرب إلى بيتنا، وإذا خرجنا منه نتجنب المرور تحت اللوحة المتأرجحة فوق الصيدلية، لا أعرف لماذا لا ندخل منه أنا وأبو وائل، نحن لا ندخل إلا من الباب الرئيسي ولا نخرج إلا منه، والباب الشرقي أقرب إلى البيت.

. أنت تأخذ بنصيحة الرجل المجنون، تخاف من السبع.

أمام السبع تقف أم جميل ذاهلة، تعلق:

. يا إلهي، ماء آسن، روائح كريهة، العفن الأسود والطحالب الخضراء تعلو وجه السبع، الديدان تملأ فمه، ما هذا؟ عجِّل بنا، يا أبو جميل، عجِّل.

على المقعد بجوار الدرجات الملتفة حول رأس السبع والصاعدة إلى المدخل الشرقي لحديقة السبيل امرأة في الأربعين، إلى جانبها شاب دون عمرها، شاحب الوجه، حليق شعر الرأس، واللحية، والشاربين، في رأسه وفي خده الأيمن أثر جرح بالسكين، عيناه متورمتان، المرأة تدخن سيكارة، وجهها مطليٌّ بأصباغ كثيرة، الأحمر على شفاهها صارخ، تلوك علكة.

أم جميل تلمحها، تجذب يد زوجها، وتعلِّق:

ـ ليتنا خرجنا من الباب الرئيسي، المرور تحت اللوحة المتأرجحة، خير من المرور أمام رأس السبع المتعفن.

. وأنا لا أعرف متى ستسقط تلك اللوحة المشؤومة.

. تحتاج إلى نفخة ريح.

. أو إلى رصاصة طائشة.

طيف الإمبراطور العجوز

أبو جميل يفتح عينيه، يتلمس الفراش، أم جميل ليست إلى جواره، ينهض، ينظر إلى الساعة، هي حوالي السادسة صباحاً، من غير المتوقع استيقاظها في هذا الوقت، تستيقظ عادة عند السابعة، تشرب معه القهوة وتغادر إلى المدرسة في السابعة والنصف، واليوم دوامها بعد الظهر، في مثل هذا اليوم تنام إلى التاسعة، يسرع إلى الشرفة، يراها جالسة وحدها.

. صباح الخير حبيبتي، شغلت بالي.

. لا تقلق، الأمر عادي.

يجر كرسياً يقعد قبالتها.

. ماذا أيقظك؟

. لا شيء.

حديقة السبيل معتمة، الأشجار أشباح تتمايل، الأفق الغربي مسدود، شارع النيل صامت، نائم، ما من ضوء، السماء بدأت تستقبل أطيافاً من القبس الخافت للشعاعات الأولى للفجر من الأفق الشرقي المحبوس وراءهم بالعمارات، صمت ثقيل.

. هل أعد لك القهوة.

. لا، تعال نرجع إلى النوم.

. لا سنقعد، قولي لي أرجوك: هل أزعجتك أنا في شيء؟

تضحك، تعلق:

. ليتك أنت، لا هو.

. من هو؟

تصمت، يضع يده على يدها، يتكلم:

. من هو؟ من أزعجك؟ قولي.

تضحك، تتكلم، وهي تمسح دموعها:

. لا شيء يستأهل الكلام، سندخل لننام.

. لن ننام، من أزعجك؟

ـ ذلك العجوز المجنون الإمبراطور الذي شاهدناه في حديقة السبيل، رأيته في الحلم، وهو، لا أعرف ماذا أقول.

. قولي!

. أخجل.

. ماذا كان يفعل؟

تضحك، تبكي، تمسح دموعها، تتردد:

ـ والله أخجل، والله ما بقصدي، سامحني يا أبو جميل، شيء مقرف، رأيته، رأيته، وهو يتعرى نهائياً، ويحاول الاعتداء عليَّ.

يسألها بجنون:

. وهل اعتدى عليك؟

أم جميل تضحك:

. قلت لك هو حلم، ماذا؟ هل جننت؟ هو حلم.

. وهل؟

. لا أعرف؟

. قولي.

تنهض، تمضي إلى الداخل، تسرع إلى الحمام تتقيأ، أبو جميل يلحق بها، يعطيها منشفة تغسل وجهها، يسندها، يعود بها إلى الشرفة.

. اقعدي، استريحي، سامحيني أنا حقيقة أحمق، ثار غضبي، وهو مجرد حلم، سأعد لك فنجان قهوة.

يعود إليها بالقهوة، وهو يعلق ممازحاً:

ـ الآن عرفتك يا أم جميل، أحببت هذا الرجل العجوز المجنون، وامتلأ قلبك بالغرام، ورأيت طيفه في المنام، ولكن لا يعقل، قبل ساعتين أمضينا معاً وقتاً ممتعاً، ثم اغتسلنا وصلينا الفجر، ونمنا بأمان واطمئنان.

يصمت، يرشف القهوة، يداعبها:

. لعلك ما ارتويت، أغلب هذه الأحلام مرجعها إلى الحرمان.

تضحك، وتعلق:

. أوه، أبو جميل، ماهذا الكلام، على العكس أنا تعبت حد الإنهاك.

. إذن، رغبت في المزيد.

. لا تجعلني أندم لصدقي معك وصراحتي، لا تصرح النساء عادة للأزواج بهذه الأمور.

ـ أعرف، أعرف صدقك وصراحتك، حبيبتي شيرين، ولكن أنا أحاول تفسير الحلم.

. لا تحاول تفسيره، حاول النسيان.

يرشف قهوته، ثم يعلق:

. الآن عرفت، أنت كان عندك في حديقة السبيل تقزز من ذلك الرجل ونفور، وشعرت بالذنب، ولذلك في الحلم عطفت عليه، فأقبلت عليه، للتكفير عن ذنبك.

أم جميل تضع الفنجان من يدها، تضحك، تعلق:

. أبو جميل، ماذا بك؟ شغل الحلم تفكيرك كله، وبعد هذا أنا لم أُقْبِل عليه، ولم أَقْبَلْه، أنا حتى في الحلم نفرت منه، أرجوك اترك حكاية الحلم.

تنهض، وهي تقول له:

. أنا سأذهب لأنام.

أبو جميل يعلق ممازحاً:

. طبعاً من حقك العودة إلى النوم، حتى تستكملي الحلم.

أم جميل ترجع إلى الشرفة، تقف قبالة أبو جميل، تضع يديها في خصرها، وتسأل بشيء من الغضب:

. متى سننتهي من سيرة الحلم؟ قل لي ماذا أفعل؟ أنام؟ أقعد؟ اليوم دوامي في المدرسة يبدأ بعد الظهر، ماذا أفعل؟ قل لي أرجوك؟

تصمت، ثم تضيف:

ـ تذكرت، سأزور ثانوية معاوية، ثانويتي القديمة، سأسلم المديرة دفتر سجل العلامات، لتعمل عليه المدرسة الجديدة، وسأصوره قبل تسليمه للمديرة، أريد الاحتفاظ بأسماء طالباتي للذكرى، وسأسأل مدرسة التربية الإسلامية ومدرسة التربية وعلم النفس عن تفسير الحلم.

أبو جميل ينهض، يطوق خصرها بذراعه، يشدها إليه، وهو يقول:

ـ تعالي شيرين، لا تسألي أي إنسان، أنا سأفسر لك الحلم، سأنسيك الأحلام كلها.

أم جميل تتفلَّت منه، تمضي إلى الداخل، يلحق بها.

نور الصباح يشعشع يملأ الكون حياة، وفي داخل غرفة النوم يرخي أبو جميل الستائر على النوافذ.

*

حوالي العاشرة أم جميل تهم بالخروج إلى الثانوية، أبو جميل يقول لها:

. ماذا سأفعل؟ والله لا أعرف، أحس بالضجر والملل.

. اذهب إلى سوق الخالدية لشراء ما نحتاج إليه.

. والله مللت، كل شيء عندنا، الثلاجة مملوءة بالطعام، يكفينا يومين.

. انزل مع أبو وائل إلى حديقة السبيل.

ـ كان بودي النزول معه إلى الحديقة، لأحكي له عن الحلم، وأسمع تفسيره، جارنا أبو وائل يحسن تفسير الأحلام.

. لا، أرجوك، كيف ستحكي له عن الحلم؟ شيء مخجل.

. لن أقول له أنتِ صاحبة الحلم، سأقول امرأة رأت ذلك الحلم.

. لا، أرجوك.

ـ اطمئني، لن أنزل إلى الحديقة ولن أمر بأبو وائل، صدقيني، كرهت حديقة السبيل بعد رؤية الامبراطور العجوز، ومن قبل مللت منها ومن أبو وائل ومن اللوحة المتأرجحة فوق الصيدلية، لا أعرف متى ستقع وأستريح منها.

وعند الباب، يقف قبالتها، يسد الباب، كأنه لا يريدها أن تغادر، يقول لها:

ـ بصراحة، يا أم جميل، أحس بالفراغ، أشعر بالملل، حياتنا رتيبة، مملة، لا شيء فيها، إذا أراد نجيب محفوظ، الله يرحمه، كتابة رواية عن حياتنا، لا شك ستكون روايته سخيفة مملة ولا شيء فيها، مثل حياتنا.

ـ غريب هذا الشعور يا أبو جميل، قبل الفجر أمضينا أنا وأنت أجمل وقت، وقبل ساعة عشنا مرة ثانية أحلى وقت؟ إذا أردت سأبقى معك، ولن أذهب إلى الثانوية.

أبو جميل يتراجع من أمام الباب، يقول لها:

. لأ، اذهبي.

ـ الحمد لله، حياتنا هادئة مستقرة، لا شيء يعكرها، هل تريد سقوط قذيفة فوق العمارة حتى تمتلئ حياتنا؟ هل تشتهي النزوح من الحي والعيش في غرفة بمدرسة أو تحت الشجر في الريف أو في خيمة على الحدود؟ أبو جميل، احمد ربَّك، أنت في بيتك، وسعيد مع زوجتك، وهانحن استحممنا اليوم مرتين، ولا نشكو من علة ولا مرض، ماذا تريد أكثر؟

. أفكر في زيارة أختي في الكلاسة، اشتقت إليها، أرغب في الاطمئنان عليها.

. المعبر مغلق منذ عشرة أيام، والقذائف تنهمر منذ يومين على حي الكلاسة.

. متى ستكون عودتك؟

. كالعادة قبل الرابعة بقليل.

. أرجوكِ، لا تتأخري، أحس بالضيق، سأنتظرك لأسمع تفسير زميلتك للحلم، لا أعرف لماذا يحب الإنسان الأحلام، ويخشاها.

أم جميل ترجع بعد الرابعة، تجد المائدة جاهزة وأبو جميل ينتظر، وهما أمام المائدة يتناولان الطعام، يتبادلان الحديث.

. هاتي، احكي لي، كيف فسرت الحلم مدرسة التربية وعلم النفس؟

. لا تستعجل، سأحدثك أولاً عن استقبال المديرة لي، فور دخولي من باب الإدارة نهضت، غادرت مكتبها، وأسرعت إلى استقبالي، تعانقنا، وتبادلنا القبل على الوجنات، ثم دعتني إلى الجلوس في مقعد مقابل مكتبها، وجلست هي في مقعد مقابل لي، مثلما يفعل كبار المسؤولين، وأخذت تكرر الترحيب بي والسؤال عن صحتي، وتؤكد شوقها إلي، وتؤكد حب الطالبات لي، وتقول: كل طالبة ترغب في معرفة عنواني الجديد لتزورني، وكذلك كل المدرسات، بالمناسبة، هناء خانم، وكانت عينَ المديرة على المدرسات، انتقلت بعدي بشهر، المديرة هي نفسها طلبت نقلها إلى ثانوية أخرى، اكتشفت تؤامرها عليها، كانت تكتب التقارير ضدها، الحقيقة، يا أبو جميل، إذا انتقل الإنسان من مكان عمله، ثم جاءه للزيارة فقط، لا لأي غرض آخر، لَقِيَ من التكريم والترحيب والحب ما هو غير متوقع، مما كان لا يلقى مثله من قبل وهو في موقع عمله، والله، يا أبو جميل، كنت إذا دخلت عليها، أنا أو أي زميلة أخرى، أسلم عليها، فلا ترد السلام، تتظاهر بالكتابة على ورقة أمامها، بعد دقيقتين أو أكثر، تلقي القلم من يدها، وترفع رأسها، وتتظاهر بأنها لم تنتبه لحضوري، وتهز رأسها كأنها تسأل ماذا أريد، ولا تقول تفضلي اقعدي، هذا هو سلوكها مع كل المدرسات، لا معي أنا وحدي.

أبو جميل يقاطعها:

ـ قلت لك حدثيني عن تفسير الحلم، أنت ذهبت إلى ثانويتك القديمة لسؤال مدرسة التربية وعلم النفس عن تفسير للحلم، ولا أعرف لماذا لم تفكري بسؤال مدرسة التربية وعلم النفس في ثانويتك الجديدة، هنا في شارع النيل؟

. اسمع، سأحكي لك عن كل شيء، ولا تمل ولا تقاطعني.

. ولكن

. قلت لك لا تقاطعني، تناول طعامك، وأنا سأحكي لك، وسأتناول طعامي، لا تقلق، أشعر بمتعة الطعام أكثر وأنا أتكلم...معرفتي بالمدرسات في ثانويتي القديمة، ثانوية معاوية، عمرها أكثر من خمس سنين، وأنا أعرف كل واحدة، وكل واحدة تعرفني، ومن الممكن ببساطة سؤال أي واحدة عن تفسير الحلم، لكن معرفتي بالمدرسات هنا في ثانوية شارع النيل معرفة جديدة، عمرها شهر ونصف، لا يمكن الحديث مع أي واحدة عن هذا الموضوع، على كل حال اسمع، قلت للمديرة سأدعوك وأدعو الزميلات لدى عودة ابني الدكتور جميل، وفوراً سألتني: هل خطبت له؟ قالت لها، أتمنى القيام بهذه المهمة الشاقة، ولكن ابني سيختار بنفسه، ثم يكلفني بخطبة من اختارها، وحكت لي هي عن ابنتها، هي طالبة في السنة الأولى بكلية التربية، وقد فاجأتها ابنتها حين قالت لها، ستأتي أم أحد زملائي للخطبة فما رأيك، وأكدت لي المديرة استياءها، وعبرت عن رغبتها في زوج لابنتها أفضل من زميل لها في كلية التربية ما يزال مثلها في السنة الأولى ولا عمل عنده، وشككت هي في صدق ذلك الشاب، وشككت أنا في قصة الخطبة كلها، لعلها تريد ترشيح ابنتها لكي أخطبها لابني.

أبو جميل يقاطعها:

. يا أم جميل، أنت ذهبت لتفسير الحلم لا للخطبة والزواج.

. أعرف، ولكن زيارة المديرة كانت مفيدة، اسمع، حدثتني عن رغبتها في تكليفي بتدريس أربع ساعات في الصف الثاني الثانوي، في الوقت الذي لا تتوافر فيه أي ساعة إضافية لأي مدرسة في كل ثانويات حلب، وتضطر بعض المدرسات إلى تكميل النصاب بمادة التربية الإسلامية.

ـ الحمد لله، راتبي وراتبك يكفينا، ولست بحاجة إلى الساعات الإضافية، وغداً يصل ابنك جميل، ويملأ حياتنا، ولا يبقى عندك وقت للخطبة له كما قلت لك، وسينصح لك بالاستقالة، أو الإحالة على التقاعد.

. لا، سأبقى على رأس عملي، تعرفني أحب التدريس أكثر منك.

. على كل حال بعدت عن الحلم وتفسيره.

ـ والله لا أحد يعرف تفسير الأحلام، كل التفاسير خرافات وأوهام، اسمع ماذا قالت لي مدرسة التربية الإسلامية السيدة بهيجة: قالت هذا من عمل الشيطان، وعلى المرأة التي رأت الحلم استغفار ربها، ولا تصارح زوجها ولا تحكي له، أو تطلب منه العفو والسماح، الحقيقة، كنت أظنها أذكى من ذلك، لكن هذا هو أفقها.

. وماذا قالت لك مدرسة التربية وعلم النفس؟

ـ حدثتها، وقلت لها هو رجل عجوز قذر الثياب، متسخ، متهدم، فقالت لي: المرأة صاحبة الحلم مفرطة في العناية بالنظافة، أو زوجها مفرط في العناية بالنظافة، ولذلك رأت في الحلم الرجل على تلك الحالة.

أبو جميل يعلق، يضحك:

ـ تفسير ذكي، ومقنع، حقيقة أنت مفرطة في العناية بالنظافة، ولا أنسى أمك رحمها الله، كم كان بيتكم في عفرين بالغ الترتيب والنظافة.

. على كل اسمع، وبينما أنا والمديرة نشرب القهوة، وهي مرتاحة إلى حضوري، دخل الآذن، وقال للمديرة: مدرسة التربية الإسلامية ترغب في زيارتك، وصمت ثم أضاف موضحاً: سألتني عن الأستاذة أم جميل، فقلت لها هي عند السيدة المديرة، وتشير المديرة إليه بيدها دليل الموافقة، وقبل وصوله إلى الباب، تناديه فيرجع، فتقول له: ضع فنجان قهوتي على المكتب، وتنهض، لتقعد فوق كرسيها الجلدي البرَّام، متخذة موضعها وراء المكتب، ودخلت مدرسة التربية الإسلامية، السيدة بهيجة، حيتنا، ثم التفتت إلي قائلة: اعذريني أنا لا أعرف تفسير الأحلام، ولكن اتصلت بشيخي، مدَّ الله في عمره، وحكيت له عن حلم تلك المرأة، فقال ظهور رجل مكشوف العورة على المرأة يعني تقدم رجل لخطبتها، إذا كانت غير متزوجة، أو أرملة، أو تقدم شاب لخطبة ابنتها إذا كان عندها ابنة، وإذا لم يكن عندها ابنة فهذا بشير بحملها بذكر، ثم صمتت، وأضافت، واعذريني يا أم جميل، لا إثم على تلك المرأة صاحبة الحلم، ولا ذنب، ولكن الاستغفار مطلوب في كل الأحوال، ثم حيَّت وخرجت، وما دعتها المديرة إلى الجلوس.

أبو جميل يعلق:

ـ تفسير مقبول، وهو يعني قدوم ولدنا جميل من السفر بإذن الله، وإن كنت شخصياً لا أثق بمثل هذه الأنواع من التفسير، لأنها تتعلق بالنبوءة والكلام على الغيب، والغيب لا يعرفه إلا الله، ولكن يبقى هناك سؤال ينقض هذا التفسير، وهو لماذا تنفر المرأة من ذلك الرجل إذا كان يعني قدوم زوج أو صهر أو ولد ذكر؟ كان من واجب تلك المرأة، أي أنت يا أم جميل، الفرح بهذا العجوز والإقبال عليه، وبعد ذلك كله لماذا هو عجوز؟

وتتكلم أم جميل وهي ما تزال تتناول الطعام:

ـ أنا أخطأت، لم أوضح لمدرسة التربية الإسلامية حقيقة الرجل، لم أقل هو عجوز، وفي لباس عسكري مهترئ وساخر، ولم أقل لها إني نفرت منه.

أبو جيل جميل يقاطعها:

ـ اسمعي، هنا يجب التفكر قليلاً في الأخبار والمرويات والحكايات، وإعادة النظر، أنت لم تنقلي لمدرسة التربية قصة الحلم النقل الوافي الكافي، ولم تقولي لها

عن نفسك صاحبة الحلم، وبأي صورة نقلت هي الحلم للشيخ لا نعرف، وهكذا يجيء التفسير بعيداً عن حقيقة الحلم بثلاث مراحل، فأي تفسير هذا؟

ـ على كل حال، دهشت المديرة من كلام مدرسة التربية الإسلامية، وسألتني عن الأمر، فحدثتها عن الحلم، ووضحت لها أنه عجوز وفي زي عسكري مهترئ ساخر.

. أحسنت، وماذا قالت المديرة؟

ـ ظلت في موضعها وراء مكتبها، فكرت قليلاً، ثم قالت لي: هذا الحلم تعبير عن الواقع الذي نعيشه، ولكن أود سؤالك، وهنا سألتني: هل تمكن الرجل من المرأة؟ هل نالها؟ وهنا بصراحة قفز الدم إلى وجهي، وشعرت بارتباك، ولكن، سيطرت على نفسي، وقلت لها: لا أعرف بالضبط، لأن المرأة لم تذكر لي هذا.

ويقاطعها أبو جميل:

. نعم، أنا أسألك الآن هذا السؤال؟ هل فعل؟

أم جيل تغص باللقمة، تنهض عن المائدة، وهي تصرخ:

ـ أبو جميل، هل عدنا إلى الجنون، هو حلم، حلم، حلم، كم مرة قلت لك هو حلم، وافترض الأسوأ ماذا يعني؟

وتدخل أم جميل في بكاء حاد، وتكاد تتقيأ اللقمة، أبو جميل يسرع إليها، يدق على ظهرها، يساعدها على بلع اللقمة، يقبل وجنتها، يناولها كأس ماء، وهو يقول:

. شيرين، حبيبتي، سامحيني، لا تنسي أنا زوجك وأنا...

. لذلك تخطئ المرأة عندما تصارح زوجها.

. شيرين، حبيبتي، سامحيني أرجوك.

تلقي بنفسها في مقعد عريض، تمسح العرق عن جبينها، تنظر في عيني أبو جميل، تضحك، وتتكلم:

. تعال اسمع تفسير المديرة.

. لأ، تعالي أنت اسمعي تفسير أبو وائل.

. ويلي، وهل حكيت له عن الحلم؟

. قلت لك، أبو وائل مختص بتفسير الأحلام، طبعاً لم أقل هو حلم زوجتي، قلت هو حلم امرأة قريبة لي.

كيف فسر أبو وائل الحلم؟

. وكيف فسرته المديرة؟

. قل لي أنت أولاً.

أبو جميل يقعد إلى جوارها، يطوقها بيده، يقول لها:

. تلك المرأة تحب زوجها ولو شاخ وهرم.

تضحك، تعلق:

. لأ، هذا غير صحيح، وهذا ما هو تفسير أبو وائل، هذا هو تفسيرك أنت، ولا تنس: تلك المرأة نفرت من ذلك الرجل، ولم يتمكن منها.

. ما قلت لي هذا من البداية.

. والله هذه هي الحقيقة.

. إذن، تلك المرأة ستنفر من زوجها ولن تحبه إذا شاخ وهرم.

أم جميل تنهض من جوار زوجها، تمسك كأس الماء، تهدده مازحة:

. والله سأرشقك بهذا الماء إذا لم تقل لي ما هو تفسير أبو وائل؟

أبو جميل يغطي وجهه بيديه، يضحك، ويتكلم:

. قال أبو وائل عن تلك المرأة: تحب القوة والعنف والبذاءة والفحش في الرجل ولا تحب اللطف والرقة والتهذيب.

. غير صحيح.

. والله هذا هو تفسير أبو وائل.

. وما دليله؟

. ارتداء العجوز الزي العسكري وكشفه عن عورته.

تطرق، تصمت، ثم تتكلم:

ـ الآن تذكرت، وأضافت مدرسة التربية وعلم النفس فكرة أخرى، غير فكرة النظافة، قالت: لعل تلك المرأة ملت من العقل والانضباط والتهذيب وهي ترغب لا شعورياً في الانطلاق والتحرر والجنون.

. أنا أقبل بهذه التفسيرات، فهي متعلقة بتجارب الماضي، ومبنية على التحليل النفسي، ولا ترى في الحلم رؤية مستقبلية أو نبوءة، ولكن نسيت تفسير المديرة؟ قلت لي سألتك: إن كان ذلك الرجل العجوز قد فعل ما يريد أو لم يفعل، وأنت ماذا قلت لها؟.

أم جميل تتكلم:

. قلت لها: ما تفسيرك إذا فعل؟ وما تفسيرك إذا كان لم يفعل؟ طبعاً أنا حكيت لها عن ارتداء ذلك الرجل العجوز الزي العسكري المزيف والمهترئ وعن كونه أقرب إلى الجنون.

. وماذا قالت؟

. أجابتني بجد: هذا الحلم انعكاس عن الواقع الذي نعيشه، وصمتت، ثم قالت وهي بين الثقة والاضطراب: هذه المرأة هي نحن، هي الأمة العربية، وهذا الرجل هو رمز المستقبل، وحتى لو لم يحقق ما يريد، فهو قد هم بالفعل، أي بدأ وسوف يحقق، هو رمز الأمل بالمستقبل.

. كيف سيكون رمز المستقبل وهو شيخ عجوز؟ هذا غير منطقي.

ـ لا تستعجل، يا أبو جميل، المديرة صمتت، ثم قالت: لأ، لأ، هذا الرجل العجوز الخرف المأفون، ما هو رمز المستقبل، هذا الرجل رمز الاستعمار الموشك على الزوال والذي ما يزال يباهي بقوته الزائفة، وتلك المرأة العزيزة الشريفة الأبية هي رمز الأمة العربية في صمودها أمام المستعمر ومؤامراته وتصديها له وممانعتها.

أبو جميل ينهض، يتجه نحو المطبخ، أم جميل تلحق به، تحمل الصحون، أبو جميل يتكلم وهو يغسل يديه:

ـ أم جميل، أنا زهقت من الحلم ومن تفسيره، أنا أسألك: هل حدثت المديرة ومدرسة التربية الإسلامية ومدرسة التربية وعلم النفس عن رؤية تلك المرأة ذلك الرجل حقيقة في الواقع قبل رؤيته في الحلم؟

. وهل حدثت أنت أبو وائل عن ذلك؟

. لأ، وأنت؟

. وأنا كذلك، ما حكيت عن رؤية العجوز في الواقع قبل رؤيته في الحلم.

. إذن، كل التفسيرات لا معنى لها.

. أقترح الاتصال بقناة فضائية مختصة بتفسير الأحلام.

أبو جميل ينشف يديه وفمه، ويتكلم وهو راجع إلى غرفة الجلوس:

ـ عندك عشر فضائيات، بأي فضائية سنتصل؟ يكفي اليوم تفسير المديرة ومدرسة التربية وعلم النفس ومدرسة التربية الإسلامية وتفسير شيخها الجليل، هذه أربعة تفاسير، ولا تنسي تفسير أبو وائل وتفسيرك وتفسيري، وهل المفسر في القناة المختصة بالتفسير مختص حقيقة. أم جميل؟ بعد هذا كله هل أنت مقتنعة بمسألة التفسير للحلم؟

. والله كنت أمزح.

. للأسف، نحن شعب مهووس بالأحلام وتفسيراتها، لاحظي معي، أمضينا اليوم كله نبحث أنا وأنت عن تفسير للحلم، وحلب من حولنا تُدمَّر.

أم جميل تتكلم، كمن هو نادم، أو كمن يتذكر شيئاً:

. أبو جميل، نسيت، سأحكي لك، بعد خروجي من الثانوية، ثانوية معاوية بربع ساعة، كنت وصلت إلى آخر شارع إسكندرون في تقاطعه مع شارع الجميلية، سمعت صوت انفجارات، كانت قريبة، كأنها ورائي، ثم علمت بسقوط عدة قذائف أمام المصوِّر ديكران، مقابل فلافل النزهة، حيث تتقاطع أربعة شوارع، وسمعت الناس يتحدثون عن استشهاد أكثر من عشرة أشخاص، بينهم نساء وأطفال، عدا الجرحى.

أبو جميل يعلق:

. في تلك المنطقة بالذات يا أم جميل جرى استشهاد شابين اثنين في شهر أيار من عام ١٩٤٥، في أثناء المشاركة في مظاهرة خرجت من ثانوية المأمون ضد المستعمر الفرنسي، واسم الشابين مخلَّد في لوحة بجوار محل فلافل النزهة، أحدهم على ما أذكر من بيت القدسي اسمه أحمد، والآخر من بيت حاووط واسمه عبد العزيز، ولا يزيد عمرهما عن السابعة عشرة ...حسبي الله ونعم الوكيل، نسلم أمرنا لله، لا نستطيع فعل أي شيء، هذا هو العجز، ولذلك نرى الأحلام ونركض وراء تفسيرها.

. والله يا أبو جميل أنا لا أصدق الأحلام ولا أقتنع بتفسيرها، طبعاً عدا ما ورد في القرآن الكريم من قصص الأحلام، فهذه أمرها مختلف، هي خاصة بالرسل والأنبياء، صدقني، أنا كنت فقط أتسلى.

. أصدقك ياشيرين، وأنا مثلك، لا أصدق الأحلام، ولا أصدق تفسيرها، ولكن من المؤسف، نحن المثقفين، نمارس عادات نحن أنفسنا غير مقتنعين بها، نمارسها بحكم العادة، لأن المجتمع يمارسها، مع رفضنا لها.

يصمت، يرسل زفرة، ثم يضيف:

. هوس شعبنا بالأحلام له دلالة كبيرة، يا أم جميل، نحن لا نملك الحاضر ولا المستقبل، ولذلك ما عندنا غير الأحلام.

أبو جميل ينهض، يذهب نحو الشرفة ويرجع، يقف أمام أم جميل، يهمس:

ـ أم جميل، أنا عندي تفسير واقعي وعملي للحلم، تفضلي إلى داخل غرفة النوم، لنحقق الحلم في الواقع.

أم جميل ترد مدهوشة:

. ماهذا يا أبو جميل؟ اليوم استمتعنا في الصباح مرتين، والنفس، في هذا الوقت العصيب، والله، ما عادت تشتهي أي شيء.

ـ هذا غير صحيح، في حالة الخطر، يقوى التعلق بالحياة، نحن نؤكد قوة الحياة.

أم جميل تسأل بحدة:

ـ أمرك غريب يا أبو جميل، سامحني إذا سألتك، هل هذا عن رغبة حقيقية واشتهاء؟ أم هو عن إحساس بالقهر؟

أبو جميل يلقي بجسمه في المقعد، يسترخي ثواني قليلة، ينهض بعصبية، يتجه إلى الشرفة، يوليها ظهره، يتكلم:

. ليتك لم تسألي.

هاتف من رجاء

أبو جميل وأم جميل في شقتهما بعد يومين يتابعان التلفزيون ويتناولان العشاء في غرفة الطعام.

أم جميل تقول:

. أنت قبل يومين قلت: لن أتابع الأخبار بعد الآن، قلت: كلها زائفة.

أبو جميل يرد:

. لم أقل زائفة، قلت غير كافية، واليوم أقول: سأتابع الأخبار ساعة بساعة، وفي كل فضائيات العالم، غيرت رأيي، هل هناك ما يمنع من تغيير الرأي؟

أم جميل تضحك، وترد معلقة:

. يمكنك تغييره في كل ساعة.

. نعم، في كل ساعة يغير الإنسان رأيه، لأنه ليس هناك حقائق مطلقة يستند إليها الإنسان ويطمئن، هي مجرد معطيات، هم يعطوننا إياها، ونحن نظنها حقائق.

المذيع يقرأ النشرة الإخبارية:

"قذائف في محيط جامع جمال عبد الناصر في حي الكلاسة وقذائف على ساحة الأحرار".

. أختي يا أم جميل، قولي: ماذا أفعل؟

. لا نستطيع فعل شيء، غير الدعاء، يحفظها الله.

يرفع الجوال ويتصل بها:

ـ أهلاً أم صالح... أين أنت؟.. مع الأولاد في الدور الأرضي عند الجيران...يحفظكم الله.

أبو جميل يروح من غرفة إلى غرفة ويجيء، يخرج إلى الشرفة، يمضي إلى المطبخ، أم جميل تفتح المصحف وتأخذ في تلاوة القرآن الكريم سائلة المولى أن يحفظ حلب.

تنهض، تعد كأساً من مغليِّ اليانسون، تقدمه إلى أبو جميل، وهو في الشرفة، تقول له:

. سلِّمِ الأمرَ لله، "فهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين".

بعد ساعة تتصل أخته به:

ـ أبو جميل، قذيفة سقطت في الغرفة الجنوبية، وسقط الجدار، سقطت جدران الغرفة، صارت الغرفة مفتوحة على الشارع.

. غداً مع الفجر، خذي سيارة أجرة، ضعي فيها كل الأولاد، سأكون في انتظارك في شقتي بالملعب البلدي، لا تحملي أي شيء، الشقة فيها كل شيء.

أم جميل تتكلم:

ـ لماذا لا تذهب إلى بيت أبو حسين؟ هو أخوها مثلما أنت أخوها، داره في حلب الجديدة أوسع من دارنا هذه، وما عنده غير ولدين.

. هي عندها خمسة أولاد، وهي حامل بالولد السادس، وزوجة أخي لا تتحملهم، في شقتنا بالملعب البلدي تستطيع العيش مرتاحة، وإن كانت صغيرة، ولا تنسَيْ: أخي أبو حسين فَقَد كل شيء، كان أكبر تاجر دواليب في حلب، واليوم يعيش على راتب ابنه المهندس، بعد ما نزلت قذائف على دارنا في الفرافرة وأحرقت كل ما خزن فيها من دواليب، حتى الدار نزلت حجارتها حجراً على حجر.

. وأخوك كامل، يمكنها العيش معه.

ـ أخي كامل ترك داره ودكانه في حي المعادي، ونزح إلى تركيا، نزلت قذيفة أمام دكانه، وعدة قذائف في محيط داره، قعد شهرين في غازي عنتاب، وما وجد أي حلاق ليعمل عنده، انتقل إلى مدينة أورفه، ما زال يبحث عن محل حلاقة ليعمل فيه مثل أجير، وهو من قبل معلم، وأخي محمود نزح إلى اللاذقية، زوجته من اللاذقية، وهو يعمل هناك في محل عمه، والد زوجته.

ويصمت ثم يضيف:

. على كل حال، نحن وسّع الله علينا، وعندنا دار فارغة، ولسنا بحاجة إليها.

ـ بعد أسبوع يصل ابنك، وسيبدأ عمله، وهو يحتاج إلى عيادة، ونحن تركنا الشقة له، ولم نؤجرها.

. ابننا لن يعمل في العيادة، ولا يحتاج إلى عيادة، سيعمل في المستشفيات.

. ولماذا لم نؤجرها من قبل؟

. الحمد لله لسنا بحاجة إلى أجرة الدار، وعندي راتبي التقاعدي وراتبك، وعندنا في البنك حوالي المليون، وجميل بعد أسبوعين مثلما قلت سيرجع إلى حلب ومعه عشرة ملايين، وعنده في رصيده في البنك حوالي الخمسين مليون، سيدخل بها في شراكة مع أي مستشفى ليعمل فيه، ويمكنه شراء شقة كبيرة وتحويلها إلى مستشفى.

ويصمت قليلاً، ثم يضيف:

ـ تصوري لو نزلت قذيفة على شقتنا، إلى أين سنذهب؟ ما لنا غير إخوتك في عفرين نذهب إليهم.

. ولكن أختك كانت....

يقاطعها:

ـ أعرف، كانت لا تحبك، وكانت تسعى إلى تزويجي من امرأة ثانية، نعم كانت...وكانت ....وكانت، ولكن بيتها أصابته قذيفة، ومنطقتها خطرة، وزوجها تركها، هل نرميها في الشارع، هل نتركها تتسول على باب الجامع، أعرفك مؤمنة وتقية، ونحن أنعم الله علينا، وفي هذه الظروف التسامح ضروري، أختي أنا إذا لم أحملها، من سيحملها؟

ويصمت ثم يضيف:

ـ أعرفك مؤمنة أكثر مني، قبل أيام قليلة رأيت في التلفزيون مشاهد لأطفال فقدوا أسرهم، فقلت: ليتنا نأخذ أي ولد لنربيه، أو ليتنا نستضيف أسرة نازحة، أنت بفمك قلت: شقتنا في الملعب البلدي فارغة، يمكن استضافة أسرة صغيرة، وهذه أسرة أختي سوف نستضيفها.

تعلق:

ـ يستطيع زوجها استئجار شقة، هو تاجر كبير يعمل بين حلب والحسكة في تجارة الأقمشة.

يرسل زفرة ثم يتكلم:

. زوجها مجرد وسيط، ما هو بتاجر كبير ولا صغير، يحتاج تاجر في الحسكة إلى قماش ليصدره إلى العراق، فيوصيه، فيشتري له ما يحتاج إليه من حلب، والتجار هنا في حلب لهم ثقة فيه، وفي السنتين الأخيرتين كان يأخذ من تجار الحسكة ثمن البضاعة ولا يدفع لتجار حلب، تراكمت عليه المبالغ حتى بلغت ثلاثة ملايين، تجار حلب رفعوا دعوى عليه، ووضعوا إشارة حجز على داره، ومن الممكن بيعها في أي وقت بالمزاد العلني لاسترداد الديون.

. وماذا فعل هو؟

ـ لم يفعل أي شيء، لا يسأل عن أختي، ولا يتصل بها، ولا يرسل إليها أي شيء من أكثر من سبعة أشهر، هرب إلى العراق أو تركيا، لا أعرف.

. وماذا فعلت أختك؟

ـ ماذا ستفعل؟ هكذا هي المرأة في مجتمعنا، ضعيفة، حتى الآن لم تخبر إخوتها، حتى أنا لم تخبرني، وماذا سيفعل إخوتها إذا أخبرتهم؟ أنا عرفت من ابنها، وعن طريق أحد الأصدقاء.

. حسبي الله ونعم الوكيل.

. ومن الممكن بيع الشقة بالمزاد العلني في أقرب وقت، لاسترداد الديون، ويمكن رميها مع الأولاد في الشارع، وهي الآن على كل حال مهددة بأن تكون مع أولادها مباشرة في الشارع.

ويصمت هنيهة ثم يضيف:

ـ وشقتنا ولله الحمد موجودة، ونحن غير محتاجين إليها، وأنا أدعوها إلى السكن في الشقة طبعاً لأنها أختي، ولكن صدقيني، لو وجدت أي امرأة في مثل وضعها، وكانت عندنا شقة غير محتاجين إليها، لدعوتها إلى السكن فيها.

وتسأل:

. أي امرأة، غير أختك؟

ـ نعم أي امرأة، إذا كانت ظروفها مثل ظروف أختي، وكان عندنا دار نحن غير محتاجين إليها، هل في هذا أي مشكلة؟

يصمت، ثم يضحك، ويعلق:

. آه، الآن فهمت قصدك، لو لم تكن أختي، طبعاً كنت تزوجتها.

تعلق:

. الحمد لله الذي رزقنا هذه الدار وأنت فوق الستين.

. لا علاقة للعمر بالأمر، يستطيع الرجل الزواج وهو في الثمانين، ولو لم يكن عنده شقة إضافية، ولكن قولي: الحمد لله الذي رزقنا هذه الشقة، ولم نعد نحتاج إلى تلك الشقة في هذه الظروف الصعبة على البلد كي نساعد أهلنا وإخوتنا.

عشر ساعات إلا قليلا

في الصباح ينطلق إلى شقته الصغيرة، في منطقة الملعب البلدي، يراه جاره أبو سليم، يحييه، ثم يقول له:

. دلال العقارات في الحي يسأل عنك، عنده مستأجر يبحث عن شقة مفروشة، هو نازح من المنطقة الشرقية، يمكن تأجير شقتك بعشرين ألف ليرة، فرصة لا تفوت.

يرد عليه:

. أختي سوف تسكن في الشقة.

يتصل بها عبر الهاتف الجوال، يسأل عنها، يخبرها أنه في الشقة ينتظرها، تجيبه:

. غادرت مع الأولاد الساعة السادسة فجراً، لن أصل حتى الرابعة، نحن سنلف وندور عبر البادية إلى حماه، ومنها إلى حلب، ارجع إلى البيت، فور اقترابي من حلب سأتصل بك.

لا يطاوعه قلبه، يظل في الشقة، يرتبها، يشتري أطعمة كثيرة، ومؤونة، يملأ الثلاجة، ويقعد أمام التلفاز، يظل ينتظر، وهو يتابع الأخبار.

في الشريط الأخباري يرد خبر نسف مئذنة الجامع الأموي بحلب.

في الساعة الثانية تتصل به أخته، تخبره أنها على وشك الدخول إلى حلب، يؤكد لها أنه في الشقة ينتظر.

في الثالثة والنصف تدخل أخته مع أولادها.

تحكي له عن القذائف وعن دمار الغرفة الجنوبية في شقتها، كما تحكي له عن مشقات الطريق، ثم تؤكد:

. عشر ساعات حتى أصل من الكلاسة إلى الملعب البلدي، كنت أمشيها على قدمي فأصل في عشر دقائق.

يتفقد الأولاد، عمر وسناء وهناء ومحمد، يسأل:

. أين صالح؟

تنفجر باكية، تشهق، وهي تحاول الكلام:

. أخذوه يا أبو جميل، أخذوه.

يسأل مدهوشاً:
. من أخذه؟
. والله لا أعرف.
. كيف؟ وأين؟
رجاء تتكلم، وهي تشهق، لا تستطيع الكلام:
. مررنا بأرض ما فيها لا بيت ولا طريق ولا علامة، لا أعرف أي منطقة، أربع سيارات بيك آب اعترضت الباص، طلع علينا في الباص ثلاثة رجال مسلحين، لباسهم غريب، وجوههم مغطاة، لا ترى حتى عيونهم، لا أعرف، رأوا بطاقات الهوية، نزَّلوا معهم من الباص خمسة شباب وأخذوهم، وبين الشباب الخمسة صالح.
. ومشى الباص؟
. راحوا بسياراتهم البيك آب، ومعهم الشباب، كيف ظهروا كيف غابوا لا تعرف، كأنهم فص ملح وذاب.
تغطي وجهها بيديها، وتصيح:
. صالح راح يا أبو جميل، راح.
يضمها إلى صدره، يربت على ظهرها، ويردد:
. سلِّمي أمرك إلى الله، سيرجع صالح، سيرجع.
رجاء تنتحب باكية، تشهق، تتكلم:
. واحد من المسلحين التفت قبل نزوله من الباص، وقال بلهجة غريبة: اقرؤوا على أرواحهم الفاتحة، اعتبروهم من الآن شهداء، كأن هذا المسلح غير سوري، أو حتى غير عربي.
أبو جميل يعلق:
. لا تصدقيهم، سيرجع هو وكل الشباب، إن شاء الله.
. ولكنه هدَّد بقتلهم.
. بعد يومين يرجع إليك، اطمئني، هؤلاء مرتزقة، ليسوا بحاجة إلى مقاتلين، هم بحاجة إلى أموال، هم بحاجة إلى فدية.
. ويلي، وكيف سأدفع لهم؟ وأنا ما عندي ولا قرش.
. اطمئني، فور معرفتهم بوضع والده، سيتم التخلي عنه، وبالتأكيد أوضاع أهل باقي الشباب ما هي أفضل، أنا متأكد، سيرجع، هو وكل الشباب المخطوفين، لا تقلقي.
وتبوح له بأن زوجها لم يسأل عنها منذ سبعة أشهر، ولم يرسل لها أي ليرة، وترجح أن يكون قد تزوج في الحسكة، وأنها تعيش من أجرة ولدها صالح، فهو يعمل

أجيراً في الفرن، راتبها لا يكفي، ويؤكد لها أنه كان يعرف ذلك لكنه لم يرد أن يحرجها، ثم تخبره أنها ستضع مولودها بعد أسبوعين.

وتسأله:

. متى سيرجع ابنك الدكتور جميل؟

. الأسبوع القادم.

تدعو له الله أن يصل إليه ابنه بالسلامة، وتؤكد اعتذارها عما كان، ثم تضيف:

ـ بعد أسبوع أو عشرة أيام تهدأ الأمور، فأرجع إلى بيتي، ولو كانت الغرفة الجنوبية منه هدمت كلها، الحمد لله، بيتي لم يخرب كله، خراب غرفة واحدة لا يهم.

. لا تفكري في هذا الأمر، ابني لا يحتاج للشقة، سيعمل في المستشفيات.

هي لا تعرف أن بيتها كله قد خرب، ولا تعرف أن زوجها في العراق أو تركيا، ما تزال تظنه في الحسكة وسيرجع يوماً، ولا تعرف أن الدار كلها قد وضعت عليها إشارة حجز، ويمكن أن تباع بين ليلة أو ضحاها.

يمنحها عشرين ألف ليرة، ثم يعطيها بطاقته المصرفية، ورقمه السري، ويقول لها:

. يمكنك أن تسحبي راتبي كله، أو دفعات منه من أي صندوق مصرفي، وهذه هي البطاقة، هذا راتبي التقاعدي، هو لك ما حييت، أو حتى يرجع زوجك، وابنك صالح سيرجع إن شاء الله، وسيدرس حتى يتقدم لامتحان الشهادة الثانوية، وسأساعد عمر ومحمد على الانتقال إلى مدرسة المتنبي، مدير المدرسة زميلي، سأكلمه في الأمر، والمدرسة هنا قريبة، وأنت اذهبي إلى وظيفتك في مؤسسة البريد، هي أقرب إليك من الكلاسة، ولن تحتاجي بعد اليوم إلى المخاطرة بالمرور في المعبر.

تُطْرِق خجلاً، تذرف الدموع وهي تشهق، مردِّدة:

. الله يرزقك ويديمك.

الأولاد يلتفون حول خالهم، يقول لهم:

. يا أولاد لا تزعلوا أمكم، اسمعوا كلمتها.

يودعهم، ويمضي.

*

أبو جميل يرجع إلى البيت، يصارح زوجته بما فعل، أم جميل تذهل، وتقول:

. حتى راتبك التقاعدي تخليت لها عنه؟

. وكيف ستعيش؟

. هذا غير معقول؟ عندها راتبها، هي موظفة في البريد.

ـ نعم، هي موظفة في البريد، على أساس الشهادة الإعدادية، وهل سيكفيها راتبها مع خمسة أولاد؟ هل هذا معقول؟ وما هو المعقول؟ قولي لي؟ زوجها أكل أموال

الناس، وعليه ديون ثلاثة ملايين، وأكثر من سبعة أشهر وهو لا يسأل عنها، ثم يهرب إلى العراق أو تركيا، ولا أحد يعرف بالضبط أين هو؟ وستوضع إشارة حجز على الدار ثم تباع بالمزاد العلني وتُرْمَى المرأة مع أولادها في الشارع، وتسقط فوقها القذائف ونتركها للموت أو للشارع؟ هل هذا هو المعقول؟ قولي لي ما هو المعقول؟ وفوق هذا كله، عصابة مسلحة تخطف ابنها؟ هل هذا هو المعقول؟

تصمت، ثم تقول:

. لا أحد يفعل ما فعلته أنت.

. وهل ما فعلته حرام أو جريمة أو إثم؟

تصمت، تذهب إلى المطبخ، تعد له فنجان قهوة، ثم تقول:

. والله يا أبو جميل لا أكاد أصدق، لو حكى لي أحد هذه الحكاية، لما صدقته، أنا أمام أحد احتمالين، إما أنت مَلَك من السماء، أو ارتكبت في شبابك المعاصي والفواحش والكبائر وتريد التكفير عن ذنوبك، وإلا فلا أحد يعمل عملك.

أبو جميل يضحك، يعلق:

. لا يا أم جميل، هل هذا هو ظنك في زوجك؟ مرَّ على زواجنا أكثر من ثلاثين سنة، عرفتني فيها حق المعرفة، وحدثتك فيها عن حياتي كلها، وبحت لك بكل شيء، هل هذا هو ظنك بي؟

ويصمت، ثم يضيف وهو يضحك:

. هاتي كتاب ابن الجوزي، عن أخبار الحمقى والمغفلين، وأضيفي قصتي إلى قصصهم، واذكري اسمي بينهم.

أم جميل، تلقي برأسها على صدر أبو جميل، تطوقه بيدها، وهي تقول:

ـ سلامتك يا أبو جميل، أنت سيد الأذكياء، الله يحفظك ويديمك، ويعيد إلينا ابننا جميل بالسلامة.

يشدها إلى صدره، يمسح رأسها بيده، يقبل جبينها.

أم جميل تتكلم بهدوء:

. ولكن، يا أبو جميل، كيف سنعيش؟

أبو جميل يضحك، ويقول:

ـ رجعنا إلى القصة نفسها، لا تنسي، جميل في زيارته لنا أودع لي في البنك ستة ملايين، اشترينا هذه الشقة وفرشناها، وما زال في رصيدنا في البنك حوالي المليون، يكفينا عشر سنين.

. وبعد أسبوع يصل جميل، أين سيعمل؟

ـ عدنا إلى القصة، سأعيد عليك للمرة العاشرة، سجلي عندك، جميل سيأتي ومعه كل تعويضاته ومكافآت خدمته لعشر سنين، سيكون معه ما يعادل عشرة

ملايين، نقداً، وعنده في رصيده حوالي الخمسين مليون، سيشتري شقة ويحولها إلى مستشفى، أو سيدخل في شراكة مع أحد أصحاب المستشفيات، والله هذا الكلام حكيته من قبل عشر مرات، وأنت نسيت.

أم جميل تعلق:

. صدِّقني أنا أسمع هذا الكلام أول مرة، ربما أنت حكيته لأبو وائل، أو لأختك، على كل حال أنا لا أفهم ما يجري، طول عمرنا لم نختلف.

أبو جميل يضحك ويعلق:

. هذه المرة هاتي كتاب ابن الجوزي لأسجل اسمك أنت فيه.

أم جميل تتكلم:

. صدقت، ليتنا ما اشترينا شقة بخمس غرف، ليتنا بقينا في شقة بغرفتين، كنا نعيش على الحلم، وعندما اقترب الحلم من التحقق ليصبح حقيقة في الواقع بدأ العذاب والشقاء، حقيقة الحلم أجمل من الواقع.

ويتكلم أبو جميل بنبرة مختلفة:

. آه، نسيت! عندي لك خبر، سيزعجك من غير شك.

. ما هو؟

ـ الطبيب عادل، الذي زرته لما أصابتني الحساسية، ورفض أَخْذَ أجرة المعاينة...

ـ أعرفه، وأعطاك الدواء من عنده، وأعرفه كان يعالج المرضى يوم الجمعة بالمجان، ويعطي الفقير ثمن الدواء، ماذا؟ هل قُنِص؟

ـ لأ، الحمد لله، لكن أخبرني جارنا أبو سليم بنزوحه منذ أسبوع، هاجر هو وأسرته إلى الجزائر.

. خسارة، طبيب ذكي وفهيم.

. حتى أبو علي مصلح الساعات، ومحله تحت عيادة الدكتور، نزح، قال، كما حكى لي أبو سليم: ماعاد أحد يصلح ساعته، ما عاد أحد يهتم لا بالوقت ولا العمر.

ـ الحقيقة ملّ الناس من حساب الدقائق والساعات، هي تمر ولا يتغير شيء، كل إنسان ينتظر التغيير، لذلك ماعاد الناس بحاجة إلى ساعة تقيس الدقائق والساعات، صار الناس بحاجة إلى ساعة كبيرة تقيس الفترات والمراحل والعصور.

وتصمت ثم تضيف:

. تذكرت الساعة الكبيرة المركونة في دار والدك، الله يرحمه، وكان يحرص دائماً على ضبطها، وكانت مركونة في صدر الإيوان، داخل صندوقها الخشبي المُطَعَّم بالعاج والصَّدَف، كنتُ أحياناً أشبهها بالتابوت، وأحياناً أشبهها بالعروس.

. صدقت، كان والدي، الله يرحمه، يحب حركة بندولها النحاسي الكبير، لكن أنا كنت أمل منه وأضجر.

. ترى أين هي الآن؟

. أوه، لا شك، أخي أبو حسين باعها من زمان.

أم جميل تضيف:

. ولا أنسى التقويم المعلق إلى جوارها، ووالدك، الله يرحمه، يسألني دائماً: اقرئي لي بنتي في الرزنامة، وأحياناً يقول الرزمانة، كم بقي للعصر، ليتوضأ ويذهب إلى الجامع للصلاة، كأنه ما في الدار غيري أنا، وبصراحة، كنت أحياناً أضجر، وأنا أعرف، كان يحبني أكثر من باقي الكنات، حتى أكثر من بنته رجاء.

. شيرين، الله يرضى عليك، لا تذكريني بالماضي، أنا كرهت كل الماضي.

. هذا لأنك كنت طول حياتك أستاذ التاريخ.

*

عند الحادية عشرة قبل منتصف الليل يدوي انفجار كبير، يسرع أبو جميل إلى الشرفة، يرى سيارة قرب الرصيف أمام باب العمارة، وهي تحترق.

يسرع بالنزول إلى الشارع، يرى جاره أبو وائل، يتعرف على جاره أبو صلاح.

هي سيارة الأجرة التي يعمل عليها أبو صلاح، سقطت عليها مباشرة قذيفة.

لا أريد التاريخ

فور عودة أم جميل من المدرسة، تقول لزوجها:
. تعال أبو جميل، اقرأ قصيدة كتبتها إحدى طالباتي.
وتفتح حقيبة يدها، تستل منها ورقة، تناوله إياها، وهي تقول:
. اقرأ، وأنا سأعدّ المائدة لتناول الغداء.
يعلق:
. المائدة جاهزة، تفضلي، أنا جهزتها قبل وصولك، وكنت أنتظرك.
يقعدان إلى المائدة، يناولها الورقة، يقول لها، اقرئيها أنت بصوتك.
تتناول منه الورقة، وتعلق:
ـ طبعاً هي ليست قصيدة بالمعنى المعروف، لا وزن لها ولا قافية، هي مما يسمى الآن الشعر الحر، أو قصيدة النثر، ولكنها من طالبة في الصف الثالث الإعدادي، وطالبة في مثل هذه السن تكتب مثل هذه الكتابة؟ هذا شيء غير عادي.
يقاطعها:
. اقرئي أسمعيني، وبعد ذلك علقي.
أم جميل تتكلم:
. القصيدة كتبتها أمس طالبة عندي في الصف الثالث الإعدادي، كما قلت لك، واسمها ميساء قطّان، بمناسبة نسف مئذنة الجامع الأموي قبل يومين، وهي مؤرخة بـ ٢٠١٣/٤/٢٤ مثلما يؤرخ الشعراء الكبار قصائدهم.
. وما عنوانها؟
. "سلام عليك يا جدتي".
. عنوان جميل.
أم جميل تتكلم:
. ابدأ أنت بتناول الطعام، وأنا سأقرأ عليك، اسمع:
"أنت أمي، أنتِ جدتنا الكبرى
حملتِ إرث السنين

وفي تجاعيدك الصخرية حفر الزمان تاريخنا
وحول سموك الشاهق حامت حمامات السلام
وكنت دائماً تنثرين على الأكوان
رذاذات الروح والإيمان
من حولك الدور تلتف كالأحفاد
وتدور من حولك الأسواق وتضج بالحياة
مثل نهر يسقي الحياة
تقولين للأزواج في مساكنهم عيشوا بالحب
مع زوجاتكم مع الأولاد مع الجيران
وتهتفين بالباعة والمشترين في الأسواق
كونوا متحابين متسامحين
لا تغشوا ولا تكذبوا ولا تفرطوا في الربح
ولا تغلوا في الأسعار
ثم تهتفين بالجميع
دعوا البيع واللهو
وتعالوا إلى الصلاة
طهروا أرواحكم واقتبسوا النور
ثم عودوا إلى الحياة
هذه أنت سامقة عالية على مر الأجيال
لست حجارة
بل أنتِ قلبٌ ونورٌ وروح
أنتِ حب وأمان وسلام
تمدّين ظلك الحنون فوق البيوت والأسواق
تنشرين الحب والسلام والإيمان
فوق ابنتك: حلب الشهباء
أي عربيد اغتالك؟
أي أُحَيْمِر عَقَرَك؟
أي فاحشة ارتكبتْها تلك اليد التي امتدت إليك؟
أي شقي هذا الذي قتل أمه؟
أي بائس هذا الذي اغتال جدته؟
أنت الأم وأنت الجدة؟
لكن، لن ينطفئ النور

وسيظل الأذان يعلو
وسيظل الحب
وسوف يعم السلام.
أبو جميل يعلق، وهو يمضغ اللقمة:
. أنا لا أفهم الشعر، هذا مجرد كلام في كلام، وهو كلام جميل، ولكن ما هو قصيدة ولا هو شعر، هو خاطرة، والمئذنة نسفت منذ حوالي السنة، على ما أذكر في أول الشهر العاشر من العام الماضي ٢٠١٢، فما المناسبة لكتابة قصيدة عنها اليوم؟ وبعد ذلك هي طفلة في الصف الثالث الإعدادي، كيف تتكلم على أُحَيْمِر عاد الذي عقر ناقة صالح؟ لا شك عندي، أبوها ساعدها، أو أمها.
أم جميل تضع الملعقة من يدها، تتوقف عن مضغ اللقمة:
ـ أبو جميل، الآن أصبحت لا تفهم الشعر؟ الآن تقول عن هذا ما هو شعر؟ والقصائد التي كنت تكتبها لي في أيام الخطبة؟ هل أحضرها لأقرأها لك.
أبو جميل يضحك، يتكلم:
. لا بأس، هي خاطرة جميلة، طفلة كما قلت في الصف الثالث الإعدادي تكتب مثل هذا الكلام، هو شيء جميل، يدل على وعي، يدل على إحساس، يدل على حب للسلام، على كل حال، هل سمعت؟ نسفوا اليوم باب القلعة، قلعة حلب، هذا الباب الأثري الرائع.
. خسارة نسف المئذنة، وخسارة نسف باب القلعة، وخسارة نسفك الشعر.
أبو جميل يضيف:
. يا أم جميل، اتركي الآن الكلام على الشعر، أنا معك، وأوافقك، خسارة كبيرة تدمير الآثار والمعالم الحضارية، ولكن لا تنسي البيوت التي دمرت، والناس الذين نزحوا إلى الدول المجاورة وهم يعيشون تحت الخيام، والذين نزحوا إلى المناطق الآمنة، أو شبه الآمنة، ولا تنسي الشهداء، والله دمار القلعة كلها ودمار الجامع الأموي كله ودمار كل مساجد حلب أهون عندي من مقتل طفل صغير، هل نسيت تلك الطفلة ابنة المدرِّسة التي حدثتني عنها؟ هل نسيت مئات القتلى والجرحى؟ بل الألوف؟ ولا أقول قتلى، أقول: شهداء، وكل شهيد له أم وأب وأخت وعنده زوجة وأولاد، وكل شهيد هو طاقة وقوة وعطاء وبناء للوطن، ما هي المسألة مسألة ألف شهيد، هي مسألة ألف يد عاملة وعقل مفكر، وما هي مسألة ألف طفل، هي مسألة ألف إنسان سيكبر ويتزوج وينجب، نحن نذكر الأرقام وننسى ماذا تعني الأرقام، أُسَر بكامل أفرادها دفنت تحت الأنقاض، ماذا تفعله قصيدة لأكبر شاعر؟
أم جميل تعلق:

. التعبير عن الواقع ضروري، والشعر وثيقة من وثائق التاريخ، لا يمكن إنكار التاريخ ولا يمكن إنكار الشعر.

أبو جميل يضع الملعقة من يده، ويعلق:

ـ أم جميل، أرجوك، لا تذكري التاريخ ولا الوثائق ولا الشعر، كل التاريخ زائف وكل الوثائق مزورة وكل الشعر كاذب، كافور الإخشيدى اهتم بالنهضة العلمية، بنى المساجد والمدارس والسُّبُل، وقرَّب منه العلماء، والمتنبي شوَّه صورته في التاريخ، أنا أتبرأ من التاريخ كله، ومن الشعر كله.

أم جميل تبتسم، وتعلق:

. أرجوك لا تغضب، تناول طعامك.

أبو جميل يحس بالامتعاض، يصمت، يتكلم مغيراً لهجته:

. على كل حال أرجوك، اتركينا من الشعر ومن التاريخ ومن كل شيء.

أم جميل تصمت، ثم تضيف وهي تسأل مداعبة:

. كل الشعر كاذب؟ وكل الوثائق مزورة؟ وكل التاريخ زائف؟ جاوبني؟ قل؟

أبو جميل يتوقف عن مضغ اللقمة، يسأل:

. ما قصدك؟

. لا شيء.

. لأ، عندك كلام، قولي.

. هل نسيت؟ سألتك عن الشعر الذي كنت تكتبه لي أيام زمان؟

يضع يده على صدره، ويرد بدهشة مصطنعة:

. أنا؟ أنا طوال عمري ما كتبت الشعر.

. والكلام الذي كتبته لي، أيام الخطبة، وما قبل الخطبة.

. آه تذكرت، هو مجرد كلام محته الأيام.

. لأ، الأيام لا تقدر على محو شيء مخبوء في الصدر.

يعلق وهو يبتسم:

. أنا نسيته.

. وأنا لن أنساه.

تنهض، تهمس:

. انتظر ثواني قليلة.

تمضي إلى غرفة النوم، ترجع بصندوق، أبو جميل يعلق:

. أوه، هذا الصندوق المطعَّم برقائق العاج والصَّدَف، هدية من جدتك، كم خبأتِ فيه أساورك الذهبية، ليتنا ما بعناها.

. لا تنس، نحن بعناها من أجل جميل، حتى يتابع دراسته في دمشق، على كل حال، أنا أخبئ فيه الآن ما هو أغلى عندي من الذهب.

. هاتي الصندوق، حتى أرى ما فيه.

تفتحه، تضعه أمام عينيه، يعلق مدهوشاً:

. يا إلهي، وريقاتي، اصفرت مع الأيام، أكثر من ثلاثين سنة، ظننتك مزقتها أو أحرقتها.

. وكيف أمزقها؟ أو أحرقها؟ وهي وثائق، وفيها عمري وعمرك.

. أعرف، كل ما فيها كلام بكلام، ماهو شعر، ولا هي وثائق، هاتي حتى أقرأها أنا.

يمد يده ليأخذ ورقة، تغلق الصندوق، تحتضنه إلى صدرها، وتتكلم:

ـ لا والله، لن أسمح لك، ستمزقها، أعرفك، لا تحب الوثائق، اسمع، الآن سنتناول الطعام، ثم نفتح الصندوق في غرفة الجلوس ونقرأ الأشعار، أو إذا شئت نحقق في تلك الوثائق.

صندوق الأشعار القديمة

في غرفة الجلوس أم جميل إلى جوار أبو جميل، وأمامهما منضدة صغيرة، فوقها إبريق الشاي، وكأسان في كل كأس وريقات نعنع أخضر.

أبو جميل يصب الشاي.

أم جميل تفتح صندوق الأشعار القديمة.

أبو جميل يعلق:

. هذا كله أيام الجاهلية الأولى، هو مثلما قلت لك: كلام في كلام، كلام تلميذتك اليوم أصدق منه وأجمل.

. لا تحكم عليه سلفاً، سأقرأ عليك.

. لن أسمع.

ـ اسمعني، سنتسلّى، هذه قصيدة قصيرة، عنوانها"ثغرك النديان"، اسمع ماذا كنت تقول لي:

نارٌ توقَّدُ في الحشا
أشعَلَتْها عيناك
أطفئيها بحلو الرضاب

*

أيقظتِ في صدري طيوراً ظمأى
فزقّيها بثغرك النديان
كي ترتوي وتستريح

*

بلفتة منك
رف شعرك على وجهي
فرديه عني
أو غطيني به
كي أنام

*

بسمة في زاوية ثغرك
رعشت لها ضلوعي
فامسحي عليها بالشفاه
كي تطمئن

*

كل الطيور تقفز إليك
كل الطيور تودُّ لو تحط على شفتيك
آه، لوتعرفين فن الصيد
وكيف تمسكين بالطير
لتمسحي على ريشه الناعم
وتمسكي بمنقاره
وتزقيه من رضابك ليرتوي
آه لو أطلقتُ كل الطيور
وتركتها تحط عليك

أبو جميل يضحك ويعلق:

ـ كان يجب تسميتها: "ثغري العطشان"، ويبدو لي المقطع الأخير قصيدة مستقلة، يجب أن يكون عنوانها: "طيوري العطشى"، وكأنه ما كان عندي في تلك الأيام شاي أرتوي به مثلما عندي في هذه الأيام.

أم جميل تتكلم:

. أرجوك، اسمع، ولا تعلق، اسمع هذه القصيدة:

لا أجمل من أن تمزحي
وأن تفصحي
وأن تفضحي
وأن تجرحي
لم يبق شيء لم تقله عيناك
أو لفتة الجيد
أو همسة الكحل
عبق أناملك
بحة صوتك
رأيت كل شيء فيك وعرفت كل شيء
من قبل أن تبوحي

فبوحي
وعيشي ربة خصب وعطاء
فلا أجمل من البوح والعطاء
*
في أعماقي لك دفتر
خربشي عليه بأصابعك
مزقيه بأظافرك
أو فامسحي عليه بالعيون
وداعبي أوراقه
وارسمي عليه كل الحروف
اكتبي أبجدية المرأة
*
لا شيء أجمل من يدك
وهي ترسم في الهواء حكايات ومواويل
وتروي عن الحزن والتاريخ والبشر
جسدي لك الهواء
فارسمي عليه ما شئت
سيكون رسمك الأجمل
*
كوني أنت لا تخجلي
تكلمي وثرثري وغردي
مثل عصفورة حطت على غصن
انقري كل الثمار

أم جميل تتوقف عن القراءة وتعلق:

ـ في تلك الأيام كان كلامي يعجبك، كنت تقول لي تكلمي ثرثري، في هذه الأيام...

أبو جميل يقاطعها:

. قلت لك لا أحب الوثائق، أرجوك اصمتي، لا تقرئيها.

أم جميل تضحك، تقهقه، تعلق:

. هذا أنت تؤكد ما قلته لك، على كل حال اسمع هذه القصيدة، وعنوانها "جواد من نار"، اسمع:

من نافذة صمتي الوردي

وصبري وقهري
سأحط مثل فارس مدجج بالسلاح
أمتطي صهوة جوادي الوردي
وأقوده إليك
ألا تسمعين الصهيل
ألا تحسين وقع الحوافر
ألا ترين جموح الفرس
لا تغلقي دونه البوابة
ليعدو على أصابعك وعلى كفيك وعلى ساعديك
أحسي نبض العروق فيه
المسي عرفه الأشقر
أطعميه بيدك اللوز والسكر
ثم امتطي صهوته
وانطلقي به نحو الأعلى والأبعد
انظري كم هو قوي وسامق
كم هو عنيد وجبار
كم هو محلق بك نحو الأعلى فالأعلى
ليبلغ بك قمة جبل مكلل بالثلج والنار

أبو جميل يعلق:

. حقيقة، بلغنا القمة، ولكن أراها متوجة بالثلج، ولا نار فيها.

ويدوي صوت انفجار قريب.

أبو جميل يعلق:

. لا تفزعي، هذه موسيقى تصويرية، تناسب هذا الشعر، تابعي قراءة ما عندك من قصائد، هذه الأصوات أصبحت مألوفة، هي إيقاع حياتنا اليومية.

أم جميل تتابع:

. قلت لك لا تعلق، اسمع هذه القصيدة:

لا تغامري
أخشى عليك من انتقامي
أخشى عليك من جنوني
فغادريني بسلام
من قبل أن تعرفيني

*

أنا أهرب منك
ولكن في داخلي كل الحنين
فلنلتق ولنتعارف
ولنغرق في الجنون
وليكن ما يكون
فليس هنالك شيء
بعد الجنون
*
أظن أني قد أبحرت في عينيك
وأظن أنك أبحرت في عيوني
ماعاد في الإمكان
العودة إلى الوراء
ها نحن في قلب المغامرة
فلنغامر
ولنقامر
فما من خسارة
*
ماء محبوس في أعماقي
آلاف الصخور تضغط فوقه
منذ آلاف السنين
وأراك
يتزعزع الصخر
ينبجس الماء
يود لو يصب عليك شلالا
يجرفك
ولكن فجأة
بأمر مني يغيض الماء
يعود الماء المحبوس إلى الأعماق
لا أعرف لماذا؟.

أبو جميل يسأل:
. ما عنوانها؟

. تناقض، حقيقة، أنت دائماً يا أبو جميل متناقض مع نفسك.
. هكذا كل الناس، هكذا هي الحياة، ليل ونهار، سلم وحرب....
أم جميل تتابع:
. اسمع هذه القصيدة:

يمر يوم يمر يومان
يمر شهر تمر أشهر
وأحياناً يمر عام
ولا ألقاك
ثم نلتقي فجأة هنا أو هناك
ما الذي يجمعنا؟ ما الذي يفرقنا؟
نلتقي كما تلتقي أسراب الطيور المهاجرة
تمر ببركة صغيرة
فتعرف أنها مرت بها قبل عام
بل قبل أعوام
وتحط عندها ترتوي منها
هكذا نلتقي
بعد يوم بعد أشهر
ربما بعد عام
من غير موعد ولا اتفاق
نلتقي فإذا في العيون شوقها الأول
أي سر هذا
أي كنز
باق أبداً
كأنه ما مر يوم أو شهر أو عام
أهو الذهب لا يصدأ
أهو الحرير لا يبلى
أهو ديوان شاعر قديم يتجدد
أهو حرف عربي محفور في مئذنة
أهو سراج لا ينضب زيته
كأننا اتفقنا أن يبقى أبداً موقدا
كأننا صغناه من حكاية قديمة
وهكذا كلما التقينا

بعد يوم بعد شهر بعد عام
وجدناه مثلما تركناه يتّقد بهدوء
ونحن نحوم حوله مثل فراشات ملونه
نودّ لو لمسناه
لكن نخشى على أجنحتنا أن تحترق
ونظل نحوم حوله
ونحن نخشى عليه أن ينطفئ
ترى لو التقينا مرة أخرى
بعد يوم بعد شهر بعد عام
هل سنلقي بأجنحتنا في النار
أم هل سنظل نحوم حوله
مجذوبين إلى النور
ونخشى النار؟

أبو جميل يعلق:

ـ سبب كتابة هذه القصيدة على ما أتذكر هو العطلة الانتصافية، غادرتُ عفرين، ونزلتُ إلى حلب، وأمضيت خمسة عشر يوماً، في العطلة كتبت هذه القصيدة.

أم جميل تصفق بفرح، وتهتف:

. رائع، ها أنت تعترف: هي قصيدة، وهي وثيقة، وهي تاريخ، وأنت كتبتها في زمان محدد ومكان محدد، رائع، أنت تقر الآن بالتاريخ والشعر والوثائق.

أبو جميل يرشف الشاي، ويضحك:

ـ مثل المخدرات، قلت لك، الإقرار بوجودها لا يعني شرعيتها، هي ظاهرة موجودة، وعلينا محاربتها.

أم جميل تتابع، وتقول:

. لا بأس، حارب كما تشاء أيها البطل، واسمع الآن قصيدتك:

أعرفك نقية مثل عصفور
أعرفك صريحة مثل عنوان كبير
ولكنك تخفين ما بنفسك
تخبئين سلة ورد بصدرك
تطوين على الكلمات أوراق دفترك
وأنا أعرف ما بنفسك

*

ها قد رفّ في أناملي
عطرك البهي وسرى
في نبضك نشيدي
فميدي وأسمعيني حكاياتك
وخذي مني ورودي
وهاتي حديثاً ما جرى في خاطر
وعانقي شرودي
ولنقتطف معاً زهور الكلام
بوحي وتكلمي وثرثري
أعيدي على مسمعي قصيدك
وارشفي نداء قصيدي
دعيني أثرثر وأخرق حدودي
مللنا من سكوت ومن شرود
فلنغرق معاً في لجة الغرام
ولنكن من بعد فراشة
لا تهتدي بغير نار الهوى
ولنغب في غيهب الوجود

أم جميل تصمت، ثم تعلق:

. هذه القصائد الثلاث كتبتها أنت يا أبو جميل على دفتري المدرسي، يوم كنت طالبتك في الثالث الثانوي، كنت تطلب منا تلخيص كل درس بدرسه، وتجمع الدفاتر، وتصححها، وكنت تقول للطالبات: هذا العمل غير مفروض عليكم، من شاءت فلتلخص الدرس، ومن شاءت فلتتكاسل، هل تتكر؟

ـ وأنت كنت حريصة دائماً على تلخيص كل درس، وعلى تقديم الدفتر وفيه بقايا من عطرك، وعندما كتبت لك هذه القصائد كنت أنت وضعت لي في داخله صورتك وخصلة معطرة من شعرك، لا يمكن أن تنكري، اشربي شايك، بالهناء، ولا تنكري.

أم جميل تضحك، تتابع:

. وأنت كنت في أثناء الدرس تطوف بيننا ولا تقعد على الكرسي وراء المنضدة، وكنت تقترب مني وتنظر في دفتري، وهذه القصائد القصيرة وثائق تشهد عليك، وقد كتبتها بخطك على دفتري، اسمع:

أحياناً أقرِّر ألا أراك
ولكن فجأة

أندفع إليك كي أراك
*
أنت على المقعد أمامي
بأصابعك الناعمة
تعبثين بالقلم
تخطين على الورق كلمات
كالأرانب الصغيرة
أدنو منك
أود لو أنقض مثل نسر
على أناملك الناعمة

وتصمت ثم تضيف:

. وهذه قصيدة لها مناسبة، ناديتني إلى منضدتك، وفتحت دفتري على المنضدة أمامك، وأنا قريبة منك، وأخذت تبين لي أخطائي، وفي اليوم التالي أعطيتني هذه القصيدة، خذ اقرأها بنفسك.

ويمد يده ليأخذها، فتسحب يدها، وتعلق:

. لأ، أنا سأقرؤها، أعرف، أنت لن تقرأها، ستمزقها، اسمع:

أمس كنت بقربي
وقعدنا معاً متجاورين
أحدثك بجد وأنت تصغين بصمت
أشرب من عينيك
أرتوي بعطرك
طائر بداخلي يضرب الجدار
يفرش جناحيه
يمد المنقار
يقفز إليك
يود لو يكسر القضبان
ليحط على ثغرك
وينقر في شفتك
وأنا أخنقه أشد عليه القضبان
وأمضي أحدثك بجد
وأنت تصغين بصمت
كم أحس بالقهر

وتصمت ثم تضيف:
ـ اسمع، هذه القصيدة كتبتها أيضاً في اثناء العطلة الانتصافية، وكنت أنت سألتني: هل من المتوقع نزولك إلى حلب؟ وقلت لك هذا ممكن، وأنت حسبته وعداً، ولما رجعت إلى الدوام بعد انتهاء العطلة أعطيتني هذه القصيدة:

مـــــا زال همـــــس وعـــــدك النـــــاعم
عطـــــراً يتيـــــه فـــــي دجـــــى الحـــــالم

أقبلـــــتِ فـــــي دفـــــق الصـــــبا نســـــمة
مختالـــــــــة بطيبهـــــــــا الفـــــــــاغم

فجَّـــــرْتِ فـــــي صـــــحراء عمـــــري ينـــــا
بيـــــــع حنـــــــان وهـــــــوى عـــــــارم

أيـــــــاميَ الجـــــــرداء صـــــــارت إلـــــــى
واحـــــــات حـــــــب وصـــــــبا باســـــــم

دنيـــــــاي قـــــــد تزينـــــــت بهجـــــــة
وغيـــــــرت مـــــــن لونهـــــــا الغـــــــائم

أرف نحـــــــو زهـــــــرة أرتمـــــــي
فـــــــي نبعهـــــــا بحرقـــــــة الهـــــــائم

وعـــــد أعـــــيش واهمـــــاً فـــــي ظلالـــــه
ولا أحلـــــــــى مـــــــــن الـــــــــواهم

هـــــل نلتقـــــي غـــــداً ألا ليتنـــــا
نبقـــــى معـــــاً فـــــي وعـــــدك الـــــدائم

أبو جميل يعلق:
. لأ، لأ، هذا ليس شعري، هذا ليس أنا.

ـ والله أنت كتبتها، وهناك قصيدة طويلة أجمل، كتبتها في أواخر الصيف، أو في الخريف، وقلت لي: تخيلت بيتك في حلب وأنا أزورك فيه فتستقبلينني بالترحاب، اسمعها، وهي طويلة، وعنوانها "قصيدة إلى الخريف"، وهذه من شعر التفعيلة، مبنية على تفعيلة الرجز مستفعلن، والقصيدة السابقة موزونة، وهي على البحر السريع، اسمع، اشرب شايك، واسمع، ولا تقاطعني أرجوك:

"قصيدة إلى الخريف"

في آخر النهار
زرتك يا حبيبتي
وقد تلألأت مصابيح الشوارع الحزينه
وفي الأفق
تبسم القمر
وغيمة صفراء في لون الخريف
غصت بها مدينة الدخان والغبار والحجر
وفي الرصيف كومة من الورق
ظل جدار وقصور وإشارة المرور
والناس...كل واحد منارة قديمة
في مرفأ مهجور

_٢_

هل تذكرين يا حبيبتي
مع الخريف كان حبنا
في فصله الندي كان وعدنا
هل تذكرين كيف بلل المطر
ثيابنا وجوهنا شفاهنا
وحولنا تبسمت زهور
وغردت طيور
نسائمٌ بليلةٌ بعطرها تغلغلت عبر ثيابنا
معاً تضمنا
فينا سرت رعشة دفء حالم
وفي يدينا همْسُ قلبنا
والشمس في شعاعها الحنون
تلفنا

_ ٣ _
حبيبتي
تبارك الإله
هل أنت طيف
في أي دير قد رعى جمالك الإله
من أي خمرة سقيت يا ندية الشفاه
ومن حباك الجسم والروح
مليكتي، يا ليت لي:
سفينة من ذهب وعاج
مجذافها من جوهر وساج
شراعها من فضة ومرمر
وحملها من لؤلؤ وعنبر
هدية أرفعها إليك يا مليكتي
لكنْ حبيبتي
كل الذي بين يدي: قلبي.
_٤_
وفي المقاعد الرخيه
تموج ألوان بنفسجيه
في الركن دفتر وأزهار
وفي الجدار
منظر بستان
أطياره تسبح في أمان
أشجاره شذى وسيل ألوان
وهمْسُ أفنان
نهر وزهر وسْنَان
حبٌّ وظلٌّ ريّان
وكانت الستائر
أغصان زيتون
والنورُ شوقٌ وحنين
وصوتك الأمين
يمدُّ لي في أفق رحيب
ألف شراع ومناره

فتزهر المرافئ الخضراء في
قلب المسافرين والبحاره
وتزدهي النوارس الفضيه
كأنها غمامه
تبشر القبطان بالسلامه
_٥_
وعندما تحدثينني عن الحب
أغيب في هَمْسات صوتك الحنون
ترفّ في قلبي طيوف
يغمرني دفء لطيف
عطر شفيف
من وردة بيضاء صافيه
في جنة خضراء زاهيه
بلّلَها ندى الخريف
يغفو زماني
يلهو مكاني
أذوب في الهواء
أحل في الضياء
أعود في حديثك الشذي بالحب
همسة حب
ندية فواحة بالنور والضياء
كأنها الرساله
للأنبياء
في ظلمة الجهاله
_ ٦ _
حبيبتي
ما دام قلبي نائماً
بين يديك
مادام صوتك الأمين في عيوني
ما دام في شفاهنا زماننا
ما دام في حديثنا همْسٌ بحبنا
فالعالم الكبير في سلام

والناس كلهم بخير وأمان
فلا حرمنا متعة الحديث في الحب
ما دامت الحياة في القلب
فالحب خبزنا وماؤنا وصحونا وسكرنا
فلْيَحْفَظِ الإلهُ حبَّنا
ولْيَبْقَ أخضراً كما الحياة
وإن طوانا الموت في كآبته
ففي أزاهر الربيع ..في نسائم المساء
في الصيف والخريفِ
في مدامع الشتاء: طعم حبنا
وفي موانئ السفر
أغنية عن حبنا
تحدث النجوم والقمر
والموجَ والشراعَ والسفن
والناسَ والأطفالَ في
مدينة الدخان والغبار والحجر.
_٧_
وتلتقي أكفنا
تندى عيون وترف أجفان
حبيبتي
الحب خبزنا وماؤنا
وفيه صحونا وسكرنا
فليحفظ الإله حبنا
وليبق أخضراً كما الحياة.

أبو جميل يعلق:

. شكراً ياشيرين، أتعبتك، الحقيقة نعم، أقرُّ هذا كله شعري أنا، أو كان شعري، وما هو في الحقيقة بشعر، هو مجرد تعبير، القصائد الثلاث الأخيرات ترجع إلى مرحلة الخطبة، أتعبتك يا أم جميل بقراءتها، وبالمناسبة إلقاؤك جميل.

. شكراً.

. في أثناء إلقائك القصائد كنت أنظر إليك، أراك وأتذكر يوم كنت طفلة، أقصد شابة، بل أؤكد طفلة، نعم، طفلة في روحك وطيبتك ومشاعرك، يوم كنت طالبتي في المرحلة الثانوية، هذه هي أنت، وجهك وعيناك وفمك.

. لم أتغير؟
. تغيرت، تغيرت كثيراً، تغيرت إلى الأجمل، كنت الحبيبة، فصرت الأم والأخت والصديقة والعشيقة، صرت الكل في الكل.
. والحبيبة؟
. وما زلت الحبيبة.
ويصمت ثم يسأل:
. هل هناك قصائد أخرى؟
. نعم، ما يزال في الصندوق بضع وريقات، اسمع هذه القصيدة:

تشرق في ظنوني عيناك
وتسعى وراء صوتك الدافئ أوهامي
فأراك قادمة من أعماقي
أتنسم شذاك فتستيقظ روحي
وينساب في نبضي نشيد
أحس فيه ندى رياك
تبعثين في صحرائي ورداً
وترسلين فيها غزالاً
أرميه بسهم
وأحس بالجرح في ضلوعي
وأصغي إلى نداك
ثم أرتعش كطائر
وإذا راحتي صفر
إلا من ذكراك

*

نلتقي
آلاف الطيور ترف في عينيك
تنطلق تعانق أسراب طيور خافقة بقلبي
وتمضي طيورنا معاً إلى بلاد بعيدة
تشرب من ينابيع تعرفها
ونبقى هنا أنا وأنت وحدنا صامتين
لا نتكلم

*

فجأة نلتقي

الصحراء
بعد سنين من الجدب والظمأ
يجتاحها السيل
هكذا يغمرني دفئك الناعم
تجتاحني عيناك
تهطل في أعماقي بسمتك
فتتفتح أزهار
وتغرد أطيار
وتميس أغصان يسري فيها نسغ كالحرير
وفجأة تغيبين كالحلم
وأبقى في ظمأ
أكان اللقاء حقيقة
أم كان محض سراب

أبو جميل يعلق:

. وهذه القصائد الثلاث أيضاً من مرحلة الخطبة، هل بقي شيء؟

. لا، هناك أوراق عقود الاستئجار للشقق الثلاث التي عشنا فيها، في الجابرية وفي الحميدية وفي الإسماعيلية، وبعض إيصالات الماء والكهرباء.

. خسارة، جمعك بين الشعر والمستندات والوثائق المالية كارثة.

أم جميل تضحك:

. قبل قليل كنت تنكر الشعر والوثائق، والآن تدافع عن الشعر وتستنكر جمعه مع إيصالات الماء والكهرباء وعقود الاستئجار في صندوق واحد.

. أنا رجل التناقضات مثلما قلت.

أم جميل تصب الشاي في كأسه وكأسها للمرة الثانية، وتعلق:

ـ صدقني يا أبو جميل أتمنى نشر هذه القصائد في مجموعة شعرية، وليتني أمتلك موهبة الكتابة لكتبت رواية عن حبنا وضمنتها هذه القصائد.

ـ عندئذ تصبح روايتك مهلهلة مثل الأفلام المصرية القديمة، لا بد من حشر أغنيات فيها ولا علاقة لها بالقصة ولا الفيلم.

ـ أرجوك يا أبو جميل لا تسخر، أنا والله سمعت أحد الروائيين يتحدث في التلفزيون، وقال بالحرف الواحد: قد تتضمن الرواية الحديثة قصائد ووثائق ولوحات، مثلما تضمنت ألف ليلة وليلة الأشعار ومثلما زينت بالرسوم والصور، وأنت في الحقيقة، يا أبو جميل، شاعر، وأنا لا أجاملك، ولو تابعت لكنت من مشاهير الشعراء.

ـ أنا أُصِرّ، وهذا هو رأيي القطعي والنهائي، كل ما أتعبت نفسك في قراءته ماهو الشعر، هو مجرد كلام.

. ولكنه كلام جميل، ويعبر عن مشاعرك وعواطفك نحوي، يعبر عن حبك لي.

. لا حب ولا عواطف ولا مشاعر.

. لا بأس، أنت تكفر بالتاريخ، وتنكر الوثائق، فهل تنكر الحب؟

. نعم، كل ما عبرت عنه في تلك الأوراق أيام زمان، ما هو الحب.

. عن أي شيء كنت تعبر؟

ـ كانت مجرد رغبات ونزوات جسدية، لاحظي كل كلامي كان عن الجسد والاشتهاء والرغبة في الارتواء، بصراحة، طاقة جنسية نضجت، تفتحت، وتطلعت إلى الإشباع.

. والعواطف؟

. كان الجسد هو الطاغي، وعن حاجته إلى الجسد الآخر نشأت العاطفة.

. أنت اليوم تقول هذا الكلام؟

. نعم، اليوم أقول هذا الكلام، اليوم، وأنا في الستين عرفت حقيقة الحب.

. وما هي حقيقة الحب؟

يمد يده إليها، يمسك يدها، يشدها إليه، يقول:

ـ تعالي إلى قربي، تعالى هنا إلى جواري، وأبعدي هذه الأوراق، أعيديها إلى الصندوق أو مزقيها، ما نعيشه اليوم هو الحب الحقيقي، هو الحب، اليوم وقد هدأت رغبات الجسد، اليوم الحب الحقيقي، لا مجرد الحاجة العضوية أو الجسدية، اليوم نملك الأقوى والأبقى والأصح، نملك المودة والرحمة.

أم جميل، تشد على يده، وتعلق:

. كلام جميل، ولكنه كلام العقل، الحقيقة، الكلام الذي في هذه الأوراق أنا في رأيي هو الأجمل.

. وأنت يا أم جميل، أين قصائدك؟

. أنا؟ أنا كنت أهديك الورود والكلمات الحلوة.

. أنا متأكد أنك كتبت أشياء.

. أعطيتك كل ما كتبت، ولكن أنت لم تحتفظ به.

ويصك السمع أزيز رصاص كأنه يمر بالشرفة أو ينطلق منها أو يستهدفها، تنهض أم جميل مذعورة، أبو جميل يقول لها:

ـ الحقيقة، ما بقي أي شيء جميل، والنفس ما عادت تشتهي لا الشعر ولا الغناء، حتى فيروز، وكنت أستمع إليها كل صباح، ما عدت أستمع إليها، ولا أعرف كيف تورطنا اليوم أنا وأنت، وقعدنا نقرأ الشعر، ونتكلم على الحب، ونسينا الجو العام

من حولنا، والله أشعر بالندم، روحي، اسمعي مني يا أم جميل، احرقي هذه الأوراق كلها، لا شعر ولا تاريخ ولا وثائق، حتى ولا حب، هذا زمن الحرب.

أم جميل تحمل الصندوق، تضمه إلى صدرها، وهي تقول:

ـ أحياناً يغني الإنسان من القهر، وكما يقول الشاعر: كالطير يرقص مذبوحاً من الألم، وهذا الصندوق لا أفرط به، سأحتفظ به وبالأشعار، وإذا نزحنا، مثلما ينزح الناس، فسيكون أول ما أحمله معي.

ـ وإذا تهدم البيت فوق رؤوسنا أو احترق؟

ـ أنت متشائم يا أبو جميل، ما عرفتك هكذا، طول عمرك متفائل، لما كانت ظروفنا أصعب كنت تقول: تفاءلي.

ـ نعم، لما كانت ظروفنا الشخصية الخاصة أصعب كنت أدعوك إلى التفاؤل، أما اليوم، فالظروف العامة هي الأصعب، لذلك أنا متشائم.

ويصمت ثم يضيف:

ـ أكرر لك نصيحتي، احرقيها.

أم جميل ما تزال تشد الصندوق إلى صدرها وتعلق:

ـ أرجوك، لا تسخر مني، هي محفوظة في صدري، وهذا هو الأهم، وقد يأتي يوم فأطبعها، وأنشرها.

تفتح الصندوق، وتبحث في عمقه، ثم تهتف:

ـ تعال، اسمع، عثرت على قصيدتين هنا بين فواتير الماء والكهرباء.

تستل وريقة، تقف تنظر فيها، ثم تعلق:

ـ هذه أعرفها، أنت كتبتها في الربيع، وأنا وأنت في كرم العنب، سأقرؤها عليك:

يـا فتنتـي، لا تتركـي حبنـا ... وريقـة شـتْوية ذاويـه

لتنثـري لحـن الهـوى نغمـة ... مثـل الشـذى أو زهـرة فاغيـه

ففـي شـفاهك الربيـع وفـي ... عينيـك أغنياتـه الزاهيـه

في همسك الخجول دفء لأجله ... تغنـي الخمـر فـي الداليـه

نحـن بحبنـا سـقينا الهـوى ... ألحانـه مـن همسـة سـاجيه

فغنـت البـراعم الغافيـه ... ورنَّمـت بحبنـا شـاديه

وانعقـدت مـن هَمَسـات النـدى ... غمامـة سـخية دانيـه

فجـدول مـن طـرب راقـص ... وروضـة مـن مـرح لاهيـه

فلنُنْشِـدِ الألحـان يـا غاليـه ... ولنـنقشِ اسـمَنا علـى رابيـه

فلـيس فـي غـد سـوى نغمـة ... تنشـدها للنـرجس السـاقيه

أبو جميل ينهض، يتكلم:

. أم جميل، أرجوك، هذا ما هو شعر، هذا

أم جميل، تقاطعه:

ـ اسمع، نعم، ما هو بشعر، ولكنه وثائق، هو تاريخ، اسمع، هذه قصيدة تاريخية، لا بد من سماعها، هذه أعرف مناسبتها، كتبتها وأنت غاضب، لأن أمك في البداية لم توافق على خطبتي، وجئت إلى عفرين وأنت تقول لي: أنت لي، أنا سأتحدى حلب وعفرين، قلت لي بالحرف أنا عنيد مثل جبل عفرين، اسمع هذه القصيدة:

سما بي فؤادي للمعالي ... فسرت وحيداً كالنصال

رياح تجافيني وتذرو ... جناي وعمري كالرمال

وشوك عنيد سد أفقي ... وغطى فمالي من مجال

ظلام ولا نجم ووحش ... ولا ملجأ غير السعالي

غريب ولا خلٌّ معين ... ولا صاحب إلا ظلالي

ومالي سوى قلبٍ جموحٍ ... تحيط به مُرُّ الليالي

تحدّى هموماً كالحات ... وشق شعاباً من خيال

رمى بي إلى مأوى نسور ... ومدّ جسوراً للمحال

فما أنا إلا عنف ريح ... وذروة نجم في الأعالي

أسوق عقوداً من لآل ... لبحر شحيح باللآلي

أشع ضياء في ظلام ... ضنين بخيط من هلال

أفيض عطاء للحزانى ... وتبقى تمنّيني سلالي

أعود إلى حب قديم ... أحن إلى حر الرمال

سجاياي من أرضي زكت، في ... هواها نمت، منها خصالي

أسير، وتبقى في ركابي ... معان، تحدّى، لا تبالي

ويسمو فؤادي من جديد ... وأمضي عنيداً كالجبال

أبو جميل يدنو من أم جميل، وهي ما تزال واقفة، تحتضن الصندوق، تضمه إلى صدرها، تتكلم وهي تحذره:

ـ أبو جميل، لا تقترب، لا تحاول، لن أعطيك الصندوق، هذا الصندوق أفديه بعمري.

*

هذا هو أنت يا أبو جميل؟ كيف كنت، وكيف صرت؟ أين الشاب العاشق؟ أين الشاعر؟ أكلتك الأيام، أكلك التاريخ، وهضمك، وكنت تظن أنك أنت من سيهضم التاريخ، لكن، لا بأس، حاول، ابعث روحك، حرك قلبك، جرب، لن يصعب عليك الوزن، ولن تشرد منك القافية، حاول.

*

أبو جميل يتكلم:

. لعينيك، سأكتب الآن قصيدة جديدة.

. الآن؟ وبعد ثلاثين سنة من انقطاع الوحي نزل عليك فجأة؟

أبو جميل يقف قبالتها، يضع كلتا يديه على كتفيها، يحك أنفه بأنفها، يهمس:

. أنت فجَّرْتِ ينابيع الشعر.

تسأل بدلَع:

. فقط قصيدة؟ مجرد كلام؟

يدير ظهره إليها، يتجه إلى غرفة ابنه، وعندها يقف ليقول:

. بعد كتابتها سوف ننام، سنأخذ قيلولة، اسبقيني الآن إلى غرفة النوم.

تسرع إليه، تسد عليه باب غرفة ابنه:

ـ لا، سأحضر لك الأوراق والأقلام، اكتبها هنا أمامي، في غرفة الجلوس في المطبخ في الشرفة حيث تريد.

يعلق مازحاً:

. لا يأتيني الوحي إلا إذا كنت أنا وحدي.

. سأتركك هنا، في غرفة الجلوس وحدك.

يهم بفتح غرفة ابنه، ولكنها تسند ظهرها إلى قبضة الباب:

. لن يأتيك الوحي في غرفة ابنك، أخشى عليك من الفشل فيها، مثلما فشلت في كتابة بحثك عن سليمان الحلبي.

أبو جميل يشعر بالضيق، يتوتر، يحس أن زوجته تحاول منعه من الدخول إلى غرفة ابنه، يفتح الباب ويدخل.

تقذف ذاهلة، تكلم نفسها:

. أنا غبية، كيف وضعتها فوق السرير؟ كان الواجب وضعها تحت السرير، فوراً الآن سيراها، أنا ما توقعت دخوله إلى غرفة جميل.

قليل من الخصام

يخرج أبو جميل من غرفة ابنه غاضباً، وهو يحمل ثلاثة أكياس ورقية ملونة فاخرة، يرفعها أمام وجه أم جميل، يصيح:

. ما هذا يا أم جميل؟

أم جميل ترد بهدوء:

. مجرد زينة قليلة، بسيطة، للبهو، من أجل عودة جميل.

يصيح:

. قلت لك لا أريد الأعلام ولا الزينة ولا الأضواء، الناس تسقط في الشوارع ونحن نعلّق الأعلام والزينات!

أم جميل ترد:

. هذا من حقنا، والناس يقيمون الولائم والأفراح ويسهرون في المطاعم، حتى في مخيمات اللاجئين تقام الأفراح، وأنت نفسك تعشيت مع اللبنانية سلمى، وسافرت معها إلى كفر جنة هل نسيت؟

. أعرفك، عنيدة، الأمر الذي في رأسك لا بد من تنفيذه.

يفتح الكيس الأول ويبدأ بتمزيق الأعلام:

. تفضلي، خذي، هذه أعلامك، وهذه زينتك، خذيها الآن زيِّني بها الشرفة.

ثم يبدأ بتقطيع الأوراق الملونة ويرميها على الأرض:

ـ أعرف، أنت خدعتني، واشتريت الورود، وقبلت بها، ولكن الزينة لأ، وحكينا في الموضوع، وقلت لك لا أريد الزينة، والله لو كنا ما حكينا في الموضوع من قبل، وجئت أنا وفوجئت بالزينة لقلت لنفسي هي أمٌّ ومن حقها الفرح.

أم جميل تتدخل:

ـ وأنت أب، ومن حقك الفرح، واعتبرنا ما حكينا في موضوع الزينة، وجئت وفوجئت بها في غرفة ابنك، كان المتوقع فرحك بها، وشكري لشرائها.

أبو جميل يتكلم وصدره يعلو ويهبط من شدة الانفعال:

. لا، أنا لن أفرح، افرحي أنت، وما فكرتِ وقلت من المتوقع غضب أبو جميل، أنا أعرف، لا يهمك غضبي، ألف مرة أثرتِ غضبي، خذي سأقطع مصابيح الزينة.

يحمل أشرطة المصابيح الكهربائية الصغيرة، ويشد بالأشرطة يحاول تقطيعها:
. هات السكين من المطبخ.
أم جميل:
ـ أرجوك أبو جميل، اترك هذه المصابيح الصغيرة، سنضعها في غرفة النوم، أضيئها لي ولك.
. لن أنام، ولن تنامي معي، ولا أريد المصابيح.
. هل نسيت، يا أبو جميل، منذ قليل قلت لي: اسبقيني إلى غرفة النوم، أنا قادم لكتابة قصيدة لعينيك؟
. لا غرفة نوم، ولا غرفة قبر، لن أنام معك بعد اليوم، سأنام هنا على الشرفة.
. أبو جميل، أخشى عليك من قذيفة.
. لا تسخري مني، أمس قلت عني أحمق، والله لن أنساها.
. والله كنت أمزح.
. اعرف بين الجد والمزاح تروح الأرواح، المزاح يكشف عن المستور والخبايا.
أبو جميل يسرع إلى المطبخ، يحضر سكيناً، ويبدأ بتقطيع الأشرطة:
ـ اسمعي أم جميل، الموضوع ما هو موضوع زينة، الوضوع هو موضوع مخالفتي، وهذا أنا سأكسر هذه المصابيح.
ويرمي بالمصابيح الصغيرة على الأرض ويأخذ في تحطيمها بقدمه واحداً بعد الآخر.
. ومن قبل، خالفتِ رأيي ألف مرة.
. اذكر لي مرة واحدة خالفتك فيها؟
. الآن لا أتذكر، ولكن هذه هي طبيعتك، عنيدة.
أم جميل تضحك، تعلق:
. قل لي، بأي شيء كنت عنيدة؟
ـ أنا اقترحت شراء شقة في حي سيف الدولة، حي هادئ، وخاصة شارع الإذاعة، شارع جديد، ومشرف على شرقي المدينة، كان لي صديق هناك، كنت كلما زرته حلمت بالسكن في شارع الإذاعة.
أم جميل تعلق:
. هل نسيت أبو جميل؟ أكثر سكان شارع الإذاعة نزحوا منه، ومعظم العمارات على الشارع الرئيسي في سيف الدولة دمرت، أو ما عادت صالحة للسكن.
أبو جميل يضيف كأنه لم يسمع شيئاً مما قالت:
. أنا أعرف، أنتِ أردتِ شقة في الجهة الشمالية من حلب، أنتِ قلتِ لي ابحث عن شقة في مساكن السبيل، أو عند جامع الرحمن، أو في شارع تشرين، أنتِ حددتِ

لـي هذا المثلث، وأعجبتك هذه الشقة، ولكن أنا أعرف السبب الحقيقي، أنت أردت القرب من عفرين.

أم جميل تضحك، تعلق:

ـ يا أبو جميل، أنت لا تدرك ما تقول: أنا بيني وبين عفرين ساعة سفر بالسيارة، سواء سكنت في سيف الدولة أو قرب جامع الرحمن.

أبو جميل منهمك في تكسير المصابيح الصغيرة الملونة، وهو يتكلم بعصبية:

. لأ، أنت هنا قريبة من السيارات المسافرة إلى عفرين، هي وراءنا، بعد مساكن السبيل، ووراءنا حي الأشرفية، وأكثر سكانه من أهل بلدك عفرين، أنا أعرف.

أم جميل تضحك، وتعلق:

ـ يا أبو جميل، أنا تركت أهلي وبلدي لأجلك، وأنا كنت لا أسافر إلى عفرين غير في السنة مرة، في عيد النيروز.

يحتد بعصبية:

. أم جميل، لا تمنِّي عليَّ، كل زوجة تترك أهلها وبلدها وتلتحق بزوجها لتعيش معه، ونسيت، أنت فرضت رأيك على جميل، أنا نصحت له بالانتساب إلى كلية الصيدلة، وأنت فرضت عليه رأيك.

ـ يا أبو جميل، هذا شيء من الماضي، أنا ما فرضت رأيي على جميل، أنا نصحته، وأنت نصحته، وهو اختار بحرية، هذه رغبته، ومجموعه أهَّله للدخول إلى كلية الطب، أنت تحب نبش الماضي.

. وهل نسيت؟ أنا أستاذ التاريخ.

. وهل نسيت أنت؟ أكثر من مرة كفرت بالماضي والتاريخ.

وتصمت ثم تضيف:

. كسِّر كل شيء، فداك، لا أريد غضبك.

. أنت لا يهمك الحقيقة لا غصبي ولا رضاي، لا يهمك غير رأيك الشخصي.

أبو جميل يمضي إلى الشرفة، يطل منها على الشارع، وهو يكلم نفسه.

أم جميل تحضر من المطبخ مكنسة، وتبدأ بجمع الزجاج المكسر وهي تتكلم بصوت عال ليسمعها أبو جميل:

. والله يا أبو جميل، لو كنت أعرف مقدار غضبك ما كنت اشتريت أي شيء.

أبو جميل يدخل من الشرفة، يقف يتأملها وهي تجمع المصابيح الزجاجية المكسرة، يعلق:

. خسارة ثمنها.

. كلها فداك، والله لا أريد إغضابك، كسِّر ما تشاء، تعال اضربني، كسِّرني أنا، ولا تغضب.

ويدوي انفجار رهيب، ترتج له الأرض، أم جميل تترك المكنسة، تركض إلى أبو جميل تحتمي به، تلتف به، ودموعها تنهمر:

. أبو جميل.

أبو جميل يضمها إلى صدره، يحضنها بكلتا يديه:

. يا أبو جميل، والله مالي غيرك، لا عفرين ولا أهلي ولا الدنيا كلها.

أبو جميل يقبل رأسها، يمسح دموعها، يهمس:

. شيرين، حبيبتي.

ويدوي انفجار آخر، تسقط صورة جميل.

تركض أم جميل تحملها، تحتضنها، وتنهمر دموعها، وتعلق:

. ما معنى سقوط الصورة يا أبو جميل؟ أنا خايفة؟ جميل أصيب بمكروه.

. لا، لا تخافي، أنت مؤمنة، وقوية الإيمان، لا يجوز التشاؤم، سقوط الصورة لا يعني أي شيء، تثبيتها بالمسمار ماكان بشكل صحيح، هاتي الصورة.

يتناول الصورة، يتجه بها إلى الجدار، يمسك المسمار، يشده، فيخرج من الجدار، يضع الصورة على المنضدة، ويلتفت إلى أم جميل:

ـ انظري، المسمار خرج من الجدار بكل بساطة، غداً أستعير من جاري أبو وائل المثقب الكهربائي، وأثبِّت الصورة.

ويلعلع الرصاص، وتدوي أصوات قذائف وانفجارات.

أبو جميل يتجه نحو الشرفة، أم جميل تلحق به:

. أبو جميل، أرجوك ابتعد عن الشرفة.

أبو جميل يعلق:

ـ هذه قذائف متبادلة بين حي بني زيد، وهو وراءنا، وحي الزهراء، وهو في الطرف المقابل، في الجهة الغربية، بعد آخر شارع النيل.

. تعال اقعد، تابع التلفزيون، وأنا سأعد لك مغلي اليانسون.

أبو جميل يعلق:

. كنا سنأخذ أنا وأنت قيلولة؟

. وأنت كنت ستكتب قصيدة؟ أين القصيدة؟

أبو جميل يعلق:

ـ راح الشعر وراح الحب، هذا ليس زمن الشعر ولا زمن الحب، هذا زمن الحرب.

أم جميل تعلق:

. قبل ربع ساعة قلت عكس ذلك، هل نسيت كلامك، قلت لي: الحرب تصنع الحب.

. الآن تبيَّن لي عكس ذلك.
. أنت كل ساعة في رأي.
. بحسب الواقع.
القذائف المتبادلة تزداد.
أم جميل تسأل:
. ما هذا يا أبو جميل؟ هل نحن في المدينة أم في جبهة حدودية؟
. والله لا أعرف.
ويصمت، ثم يضيف:
ـ أنا أسمع خبط أقدام الفيلة، زئير الأسود، فحيح الأفاعي، نقيق الضفادع، قهقهات القردة، نعيق الغربان، الأفاعي ذوات الأجراس تجلجل أجراسها، أحس خفق أجنحة الخفافيش.
والشمس وراء الأفق تغيب.

لا يُعْرَف ولا يُوصَف

يزداد تبادل القذائف.
أم جميل تتكلم وهي خائفة:
. الوضع لا يحتمل يا أبو جميل.
. لا تخافي، القذائف كلها تمرّ من فوقنا.
. وإذا سقطت علينا إحدى القذائف؟
. هذا قدرنا، لا نستطيع فعل شيء سوى تسليم الأمر لله، والدعاء.
الجدران تهتز، الأرض ترتج، الأبواب تنخلع، النوافذ الزجاجية تتحطم.
الهاتف الجوال عند أم جميل يرن، أم وائل تدعوها للنزول إلى شقتهم.

*

أم وائل تسرع إلى الترحيب بهم، وهي تسأل لاهثة:
. أرجوكم، قولوا لي ماذا يجري؟
أم جميل ترد:
. والله لا أحد يعرف.
أبو جميل يعلق:
. ما يجري لا يُعْرَف ولا يُوصَف، ماحدث مثله من قبل لا في جبهات القتال ولا في الحرب العالمية الأولى ولا الثانية.
يقعدون صامتين كأنهم يصغون إلى سيمفونية مقدسة.
ويدوي انفجار، أبو جميل يعلق:
. هذه سقطت وراءنا في مساكن السبيل.
يعقبه انفجار آخر، أبو وائل يعلق:
. هذه قذيفة نزلت وراء جامع الرحمن.
أم وائل تتكلم:
. هل سنقعد لنستمع إلى تعليقاتكم على الانفجارات، حدثونا أرجوكم عن أي موضوع آخر، غير الانفجارات والقذائف.
أبو جميل وأم جميل يجدان بعض الأنس والطمأنينة مع أبو وائل وأم وائل.
تبادل القذائف يتصل بالحدة نفسها.

حوالي العاشرة الهاتف الجوال عند أم وائل يرن، هي جارتها أم صلاح تدعوها:

. الوضع خطير يا أم وائل، اتصلي بجارتكم أم جميل، وتفضلي أنت وهي وزوجك وزوجها، انزلوا إلى شقتنا، نحن في الدور الأرضي وضْعُنا أفضل، على الأقل نتسلى معكم، وتتسلوا معنا.

أم وائل تحدثهم عن دعوة أم صلاح، أبو جميل يتحمس للفكرة.

أم جميل تعلق:

. ولكن أم صلاح تستضيف أختها وزوج أختها، ومعهم خمسة أولاد، وأم صلاح عندها زوجها وثمانية أولاد، مجموعهم سبعة عشر، ونحن معهم نصبح أكثر من عشرين.

أبو جميل يرد:

. عندهم مثلنا خمس غرف، وعندهم الحديقة، نستطيع السهر في الحديقة، في ضوء القمر، الليلة القمر بدر.

أبو وائل يعلق:

. لأ، نحن سننزل إليهم ليكون فوقنا ثلاثة أدوار تحمينا، لا للسهر في الحديقة تحت السماء مباشرة، والقذائف تنهمر مثل المطر.

أبو جميل يسأل زوجته:

. ما عندي علم باستضافة أم صلاح لأختها، وأنا منذ فترة أسأل نفسي لماذا ضجة الأولاد زادت عند أم صلاح، حسبتها قامت بافتتاح روضة للأطفال.

أم جميل توضح:

. أختها نزحت مع زوجها وخمسة أولاد من إدلب، من عشرة أيام تقريباً، دارهم في إدلب نزلت كلها حجراً على حجر، ودكان زوجها نزل فوقها ثلاثة أدوار، ما بقي عندهم شيء، والأوضاع في إدلب أصعب من الأوضاع في حلب.

أبو وائل يعلق:

. كان الله في عون الجميع.

يهبط الأربعة إلى شقة أم صلاح، أم وائل تحمل معها سلة ملأى بالفاكهة.

*

يلتف الجميع حول صينية كبيرة فيها شعيبيات متألقة كأنها قباب من ذهب، ورائحة السمن والقرفة تسطع في الأجواء.

أم صلاح تقدم لهم زوج أختها:

. أبو نديم الغشاش صاحب أشهر محل لصنع الشعيبيات في إدلب، محله في مدخل إدلب، مقابل المتحف.

يعلق زوجها أبو صلاح:

. قولي لهم: المحل أمام مركز الحافلات القادمة من كل المدن السورية.

أبو نديم يعلق:

. كل قادم يشتري من محلي فور وصوله شعيبية واحدة، يذوق شعيبياتي، ويشتري منها عند المغادرة عشر شعيبيات، أو عشرين، يأخذها هدية من إدلب، شعيبياتي معروفة في كل سورية.

أبو صلاح يعلق:

. نعم، كلامه صحيح، إلا أهل إدلب، فلا أحد يشتري من محله.

ويستغرق الجميع في الضحك، زوجته أم نديم تضيف:

. حتى الآن ما سألتم لماذا كنيته الغشاش، أنا سأقول لكم: لأنه غشني، وتزوجته.

أختها أم صلاح تتكلم:

. جده الله يرحمه أكبر صانع حلويات في إدلب، ذات صباح دخل عليه أحد رجالات إدلب المشهورين، وسأله ماذا عنده لهذا اليوم، فأجابه: هذه محشوة بالجوز، وهذه بالفستق، وهذه باللبأ، وهذه مغشوشة، فهم الرجل قصده، وكان عنده دعوة في صباح عرس ابنه، فطلب من أجيره أن يرسل تلك الصينية وفيها أكثر من ثلاثين شعيبية، إلى الدار، ودخل الرجل على ضيوفه، وقال لهم: هذه الشعيبيات من محل الغشاش، ولا أعرف بأي شيء هي محشوة، أو مسقية، وانصبت عليها الأيدي، وإذا هي محشوة بالقشطة، ومسقية بالعسل، ومن يومها حملت الأسرة لقب الغشاش.

ويتكلم أبو نديم ويقول لهم:

. تفضلوا، هذه الشعيبيات، والله غير مغشوشة.

وتضيف أم صلاح:

. اعذرونا، لا أشواك، ولا صحون، ولا ملاعق، ولا سكاكين، لأسباب معروفة، أولها لا أشواك ولا سكاكين كافية، وآخر الأسباب معروف وهو انقطاع المياه عن المنطقة كلها منذ أسبوع.

ويضيف أبو نديم:

. السبب الرئيسي: الشعيبيات صنعت بالأصابع ولا تؤكل إلا بالأصابع، تناول الطعام بالأصابع أطيب وأهنأ.

وتمتد الأيدي والأصابع إلى الشعيبيات.

أبو جميل يعلق:

. الأصابع هي سر الحضارة، استعمال الإنسان لأصابعه هو الذي صنع الحضارة.

أم جميل تعلق:

. نعم، نحن الآن أصابعنا مغموسة في الحلوى، وهناك الآن أناس أصابعهم على زناد البنادق والرشاشات والمدافع.

وتعلو أصوات الانفجارت مصحوبة بفحيح الصواريخ وزعيق القذائف وصراخ الرشاشات.

أبو نديم، يحمل شعيبيته، نحو باب الحديقة يريد الخروج إليها، وهو يتكلم:

. اعذروني، أنا سأدخن سيكارة.

يسمعون بكاء طفل رضيع، أم صلاح تسرع إلى غرفة داخلية ثم تخرج تحمل علي يدها وليداً، وهي تتكلم:

. هذا وضعته قبل الأوان، جاء على أصوات الانفجارات والقذائف بدلاً من الزغاريد، ونزحنا به وسط الاشتباكات وعمره أسبوع.

وتطوف به على أم وائل وأم جميل، تحتضنه كل منهما، تزرعان قبلاً ناعمة على خديه، يحمله أبو وائل، يحمله أبو جميل، الجميع يدعون الله يسألونه السلام.

أم وائل تسأل:

. ماذا أسميتموه؟

أم صلاح تتكلم:

. أبو صلاح مصر على تسميته: "حرب"، وأنا أصر على تسميته: "سلام".

ويضج الجميع بالضحك. أبو وائل يعلق:

. هذه الشعيبيات إذن بمناسبة المولود.

أبو نديم يعلق:

. نحن كل يوم عندنا مناسبة ولله الحمد، وأم نديم لا تطبخ في البيت، نحن إفطارنا شعيبيات وغداؤنا شعيبيات وعشاؤنا شعيبيات.

أبو جميل يسأل:

. مغشوشة؟

أبو نديم يضحك:

. الحقيقة ما عدنا نقدر على الغش.

أم جميل تضيف:

. بعودة ابني الدكتور جميل سأوصيك على الشعيبيات المغشوشة.

أبو نديم يرد:

. أنا جاهز، بالخدمة، والقشطة والعسل من عندي، وهي من إنتاج إدلب، سأوصي عليها من اليوم، لي صديق عنده سيارة حمولة، وهو يسافر كل يومين إلى إدلب، مع المشقات والمخاطر وطول الطريق، الحياة لا تتوقف، الحياة أقوى من الموت.

أم جميل تسأل:

. أخي أبو صلاح، وهل بدأت العمل هنا ببيع الشعيبيات؟

أبو صلاح يبتسم، يتكلم:

. يا أختي أم جميل، عرضت على أكثر من محل هنا في حلب لبيع الحلويات العمل عندهم، كل أصحاب المحلات قالوا نحن غير محتاجين لصانع جديد، وكلهم احتجوا بقلة الطلب على الشعيبيات، وعلى الحلويات بصورة عامة، الأسعار ارتفعت.

أبو جميل يسأل:

. هل فكرت ببيع الشعيبيات على عربة أو على بسطة أمام العمارة؟

أبو صلاح يرد:

. والله يا أخي فكرت، لكن في هذه الحالة سأصنع شعيبيات من نوع رديء، الشعيبيات الممتازة سعرها فوق مئة ليرة، ولا أحد يشتري شعيبية بمئة ليرة من عربة جوالة، خليها على الله.

أم صلاح تتكلم:

. أنا نصحته بالسفر إلى تركيا.

أبو صلاح ينهض، يستل سيكارته، يضعها في فمه، يقف في الباب المفضي إلى الحديقة، يتكلم:

. والله أنا طول عمري ما غادرت سورية، ولا استحصلت على جواز سفر، على كل حال، ما هي مشكلة جواز سفر، يمكن الحصول عليه في يومين، ومعي مبلغ بسيط يكفيني للسفر إلى تركيا واستئجار محل وبدء العمل ببيع الشعيبيات، صناعتي متقنة ولله الحمد، ولكن والله أنا غير مقتنع بالسفر، ولا أفكر فيه.

ويصمت ثم يضيف:

. أنا على كل حال ما توقفت عن العمل، الحمد لله كل يوم أصنع صينية شعيبيات لهؤلاء الأولاد، ليأكلوا ويفرحوا، نحن كل يوم عندنا ثلاث وجبات شعيبيات، مثلما قلت لك، والله لن أسافر ولو خربت فوق رأسي.

يشعل السيكارة، يخرج إلى الحديقة، والدموع تملأ عينيه.

الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، القذائف والأصوات هي هي، لم تهدأ ولم تفتر، حتى الصغار من الأطفال لم يناموا، خرج بعضهم إلى الحديقة للعب.

أم صلاح صنعت لهم القهوة.

أصر الجميع على شربها في حديقة الشقة، تحت ضوء القمر وهو بدر، من فوقهم تعبر القذائف، وبين حين وآخر تزمجر طائرة تحلق في ضوء القمر.

الأطفال على صوت القذائف ينامون. النعاس يداعب العيون. أبو جميل وزوجته وأبو وائل وزوجته يشكرون لأم صلاح الضيافة والسهرة.

أم صلاح ترد:

. أهلاً بكم، الفضل للاشتباكات.

أم جميل تقول لأبو جميل وهما يصعدان الدرج إلى شقتهما بعد وداع أم وائل وأبو وائل:

. يا أبو جميل، أنا أشعر بالذنب؟

. لماذا؟

. القتال مشتعل، والقذائف متبادلة، ونحن نتناول الشعيبيات؟

ـ على العكس، ما فعلناه هو الصحيح، نزلنا إلى الجيران، وشعرنا بالألفة والأمان، وتناولنا الحلوى، وأدخلنا البهجة إلى قلوب الأطفال، ونسينا الخوف والرعب، واستمتعنا بالقهوة في ضوء القمر، هل كان من الأفضل قتالنا والخصام وتبادل الشتائم أو القذائف؟ ليت كل المتقاتلين يفعلون مثلما فعلنا، وتذكري، قبل ساعة تخاصمنا أنا وأنت، ماذا استفدنا؟

. خسرنا الأعلام وأوراق الزينة والمصابيح الصغيرة الملونة.

أمام باب الشقة أم جميل تضيف:

. أسرة فقيرة تؤوي أسرة فقيرة، وكل من الأسرتين تمتاز بالكرم.

. بالكرم ننتصر على الفقر.

تدخل أم جميل إلى الشقة وفي إثرها يدخل أبو جميل، يغلق وراءه الباب، ويتابع تعليقه:

. وبالحب ننتصر على الحرب.

تلتفت إليه أم جميل تسأله:

. أنت وعدتني بكتابة قصيدة.

. تأخر الوقت.

. الآن هو وقت الشعر والإلهام.

. سأذهب إلى غرفة ابني إذن، أحاول كتابتها.

. لا، تعال معي إلى غرفة النوم، لنكتب معاً القصيدة.

تتشابك منهما أصابع اليدين وهما يتجهان إلى الداخل.

والاشتباكات ما تزال مستمرة.

سلام الغشاش

في ضحى اليوم التالي أم وائل وأم جميل تحملان إلى أم نديم هدايا كثيرة: ألبسة وحفاضات وعلب حليب.

حوالي الساعة الثالثة من اليوم نفسه يلتئم شمل الأسر الأربع، أكثر من عشرين شخصاً يلتفون حول مائدة طويلة تمتد على طول الحديقة في شقة أم صلاح.

في المائدة على عادة أهل حلب في مثل هذه المناسبات عش البلبل الجاهز*، صناعة محل مهروسة بالخالدية، بلحم الغنم، والسمن العربي، وإلى جانبه اللبن الرائب، بالإضافة إلى السلطات.

أم وائل تعلق:

. الصحون والكؤوس والملاعق كلها بلاستيكية، وزجاجات الماء كلها بلاستيكية، لا يهمنا إن جاءت المياه أو انقطعت.

صلاح يدخل من المطبخ معلناً:

. المياه الآن وصلت، يمكن أن تغسلوا وتستحموا.

قبل أن ينهضوا عن المائدة يدخل عليهم أبو نديم بالشعيبيات، يقول لهم:

ـ المثل يقول: في البطن خلوة، لا تملؤها إلا الحلوى، هذه المرة شعيبيات مغشوشة بالسمن العربي والقشطة، صناعة عمكم أبو نديم الغشاش.

ويصمت قليلاً ثم يتكلم:

. وبالمناسبة، نزلت عند رغبة زوجتي وقررت تسمية ابني

ويصمت، ويتعالى صراخ الأولاد، وتتداخل الأصوات:

. سلم.

. حرب.

ويتدخل أبو جميل:

. اسمح لي، أخي أبو نديم، أنا سأجري استفتاء.

---

* يقدم عش البلبل في الأفراح والمآتم والدعوات الخاصة، يصنع من العجين المشبع بالسمن، على شكل أقراص صغيرة، تعلوها طبقة من اللحم الناعم الممزوج بالبهار ودبس الرمان، تعلوه حبات الصنوبر، ويخبز في الفرن، ويقوم بتصنيعه بصورة خاصة أصحاب محلات الحلويات.

أبو جميل يقف أمام رأس المائدة، ويتكلم:

. هيا، برفع الأيدي، من مع الحرب؟

أيادي الأطفال ترتفع، أبو جميل يعد، ثم يعلن:

. ثلاثة عشر من الأصوات مع الحرب.

ويصمت، ثم يسأل:

. من مع السلم؟

تسرع أم جميل وأم وائل وأم صلاح إلى رفع الأيدي، أم نديم ترفع يديها الاثنتين ويدي ابنها المولود الاثنتين، أبو وائل يرفع يده، أبو جميل يعد، ثم يعلن:

. ثمانية أصوات مع السلم.

ثم يلتفت إلى أبو نديم، ويعلن:

ـ للأسف يا أبو نديم، ثمانية أصوات فقط مع السلم، وأضيف إليها صوتي، تصبح تسعة، وصوتك يصبح المجموع عشر أصوات، الحرب هي الفائزة بالتصويت.

وينطق أبو نديم قائلاً:

. التصويت لا يعني دائماً الديموقراطية، أكثر الأصوات يرجع إلى أشخاص لا يحق لهم التصويت.

ثم يلتفت إلى أبو جميل ويقول له:

ـ أنت يا أبو جميل أجريت التصويت على السلم والحرب، ولم تصوت على كلمة سلام، أنا اسم ابني، هو: سلام الغشاش.

ويصفق الجميع، من كبار وصغار، هاتفين:

. سلام.. سلام.

ثم يتابع أبو نديم كلامه:

ـ هذه الدعوة، بما فيها الشعيبيات، تكفَّل بها عمكم أبو جميل، توجهوا له بالشكر، وادعوا الله طالبين الوصول بالسلامة لابنه الدكتور جميل.

أبو جميل ينظر إلى الجمع، فتدمع عيناه، يتمنى لو كانت في الجمع أخته، يتمنى لو يستضيفها في بيته، مع قدوم ابنه، هي وأولادها.

ويدوي انفجار كبير، تتبعه أصوات قذائف ولعلعات رصاص قريب وآخر بعيد.

الدكتور سامي وقصة الومضة

أبو جميل يدخل إلى البيت بعيد العصر، زوجته تسرع إليه، تسأله مدهوشة:

. أبو جميل، حبيبي، ماذا بك؟

ـ رأسي، جسمي يا أم جميل، كلي مرهق، أرجوك، أسرعي بكأس من مَغْلِيّ اليانسون.

أبو جميل يلقي بنفسه في مقعد عريض في غرفة الجلوس، شاحب الوجه، زائغ العينين، وهو يضع راحته على جبينه.

أم جميل تقيس ضغطه.

ـ ضغطك مرتفع، العلوي ١٦ والسفلي ١٠.

تسرع بإعطائه حبة هيبوتين ٥٠ وحبة أسبيرين ٨١ وحبة سيتامول، يستلقي على الأريكة.

. رأسي، يا أم جميل.

. هل وقعتْ على رأسك اللوحة المعلَّقة فوق الصيدلية؟

أبو جميل يبتسم، يعلق:

. ليتها وقعت على رأسي، ليتها جاءت في رأسي.

. هل أزعجك أحد؟

يصمت، يكبح انفعاله، يتكلم:

. سامي، الدكتور سامي، يا أم جميل.

ويغصّ، يكاد يختنق.

. مَن هو الدكتور سامي؟ لا أعرفه؟ ولماذا راجعته؟ هل شكوت من شيء؟ هل قال لك عندك سرطان لا سمح الله؟

أبو جميل يكاد يضحك، يعلّق:

. لأ، لأ، الدكتور سامي قاص وروائي، وهو طبيب.

أبو جميل يتناول رشفات من كأس اليانسون المَغْليّ، يتكلم:

. اهدئي، سأحكي لك بالتفصيل.

أم جميل تقعد أمامه، تتكلم:

. إذا كان الكلام سيتعبك لا تتكلم، حاول النوم، حتى تستريح.

. لأ، سأحكي لك، حتى أستريح.

يتناول كأس اليانسون المغلي، يشربها كلها، ثم يتكلم:

ـ صُبِّي لي مرة ثانية في الكأس، واسمعي، مضيت إلى حديقة السبيل اليوم وحدي من غير أبو وائل، مللت، نزلت إلى حديقة السبيل، كالعادة، بعد بضع خطوات، وأنا متَّجهٌ إلى مقعدي المألوف، وإذا الدكتور سامي أمامي، لا أعرف، برز أمامي فجأة.

. من هو الدكتور سامي؟

ـ سأحكي لك، أرجوك لا تقاطعيني، قلت لك، هو طبيب، وقاص وروائي، تعرفت عليه قبل شهر ونصف في دار الكتب الوطنية، قلت له: مفاجأة جميلة، وقعدنا متجاورَيْنِ على مقعد واحد، حديثُه ممتع، رجل مثقف، طبيب، ومتنوِّر، ويكتب القصة والرواية، سألته عن مشروعاته، أجابني: سأكتب رواية عن الوضع الحالي، وكان قبل شهر قد قال لنا حرفياً: الكتابة عن الوضع الحالي صعبة، وأكَّد تحدِّيه وعزمه على الكتابة، أنا اليوم سألته: ما موقفك في الرواية التي ستكتبها؟ أجابني: أنا سأرصد الظاهرة مثلما هي في الواقع، ولن يكون لي موقف، الموقف يتخذه القارئ، أنا لن أوحي إلى القارئ بأيِّ شيء، ولن أفرض عليه أيَّ رأي، سأكون محايداً جداً، الرواية التقليدية التي يقول فيها الروائي كل شيء انتهت، على القارئ أن يقرأ ما وراء الأسطر وأن يحلل وأن يستنتج.

أم جميل تعلق:

ـ كلامه صحيح، وهذا ما يقال عن الرواية المعاصرة، وإن كنت أنا الحقيقة مقصِّرة، لا أقرأ ولا أطَّلع للأسف، نحن المعلمين، مجرَّد نقلة لما في الكتاب إلى الطلاب، إذا حدنا عن المقرر بكلمة، ثار علينا الطلاب، وخاصة طلاب الشهادة الثانوية، لأن سلم التصحيح مستمد من الكتاب وعلى الطالب التقيد بالكتاب حرفياً ليأخذ العلامة المستحقة، حتى الشاهد يجب أن يكون هو نفسه الشاهد الوارد في الكتاب.

. ما هذا هو موضوعنا يا أم جميل.

ـ عفواً، سامحني، أنا استطردت، ولكن من قهري، هذه هي حياتنا، نحن المعلمين، نحن لا نقرأ، وهذا طبيب، يقرأ ويكتب، ويعرف الرواية الحديثة، والله هو أفضل...

أبو جميل يقاطعها:

ـ يا أم جميل، يا أم جميل، عدنا إلى الاستطراد، اسمعي، ولا تقاطعيني، وأنا سألته: ومن سيقرأ هذه الأيام؟ وهل سيقدر القارئ على الاستنتاج والتحليل، أجابني

فوراً: أنا لا أفكر بمن سيقرأ، وإلا لَمَا كتبت نهائياً، أنا عندي حتى الآن خمس روايات، وثلاث مجموعات قصصية، أنا أفكر بالمستوى الفني للرواية، وبالاتجاهات الفنية الحديثة.

ـ أين نشر رواياته؟ وهل فاز بمسابقة للرواية؟ أنا سمعت عن مسابقات تمنح جوائز ضخمة للرواية؟

ـ سألته عن هذا، قال لي: أنا من الكتاب الهواة لا من المحترفين، أنا أضع رواياتي وقصصي في الفضاء الرقمي، عبر مواقع كثيرة، ثم قال لي: أعرف، هناك مسابقات ودور نشر تشجع على كتابة روايات ذات اتجاه معين وموضوعات مخصوصة، ولكن أرفض هذا كله، أنا لا أكتب من أجل المال ولا من أجل الشهرة ولا من أجل جائزة.

ـ وكم عمره؟

ـ قلت لك يا أم جميل لا تقاطعيني، هو في الأربعين، وبعدها أنا سألته: هل رواياتك واقعية، هل عشت حوادثها حقيقة في الواقع؟ أجابني على الفور: يا أستاذ عبد المجيد، مع احترامي لك، الناس أساؤوا فهم الواقعية، ظنوها تصويرَ الواقع كما هو، والنقل عنه حرفياً، الواقعية تعني تصوير ما يمكن وقوعه، تصوير ما هو إنساني وعام ومشترك، ومن الممكن وقوعه، لا تصوير حادثة فردية وقعت ولن تتكرر، إذا كان الكاتب سيكتب ما جرى معه، فلن يكتب غير رواية واحدة، هي سيرته الذاتية، الكاتب الحق يكتب عن الناس، عن الآخرين، فهمُنا الجامد للواقعية قضى على عنصر الخيال، قلت له: نحن نرفض الخيال، لا حاجة بنا للخيال، الواقع أكبر من الخيال، ضحك وأجابني: الخيال لا يتناقض والواقع، الخيال قوة مبدعة خلاقة، والفن لا ينهض من غير خيال، ولا بد فيه من التخييل، أي إثارة خيال المتلقي، أنا بصراحة يا أم جميل شعرت بالخجل، ظهرت أمامه كأني لا أعرف أي شيء.

أم جميل تتكلم:

ـ ولذلك، ارتفع ضغطك، وأنت عصبيٌّ وحاد المزاج، وتتحسَّس من أي كلمة، والأمر لا يستأهل الانفعال ولا ارتفاع الضغط.

ـ يا أم جميل، لا تستعجلي الأمور، صبي لي مرة ثالثة في كأسي من مغلي اليانسون واسمعي حديثه عن الخيال، قال لي: الخيال غير الوهم، أو التوهم، الخيال قوة خلاقة، وله أشكال متعددة أبسطها خيال سائق سيارة الأجرة، عندما تقول له: أوصلني من حديقة السبيل إلى حي سيف الدولة، فوراً يتخيل الخريطة، وما عليها من طرق، ثم يختار الطريق الأقرب والأسرع والأقل ازدحاماً، ويليه خيال الطالب عندما يحل مسألة رياضية، فهو يجمع المعطيات، ويحلِّلها، ويركبها، ثم لا بد من لحظة يتخيل فيها الحل، وهي لحظة إبداع، ومثله خيال الكاتب عندما يبني الشخصيات

ويجري فيما بينها من علاقات ويصنع مخطط الرواية، وهناك الخيال الأدبي الذي يبتكر عوالم غير موجودة وإن كانت مستوحاة من الواقع، مثل رحلات السندباد ورحلات غاليفر ورحلات أليس في بلاد العجائب، وهناك الخيال العلمي الذي يبتكر أشياء غير موجودة من قبل، أو يضيف إلى أشياء موجودة تحسينات وتعديلات، بصراحة يا أم جميل، أنا ضجرت ولم أفهم، قاطعته، وقلت له: هات لخص لي روايتك التي ستكتبها

أم جميل تتدخل مقاطعة:

. وبماذا أجابك؟

. ببساطة قال لي: الرواية تفقد قيمتها إذا لخصناها، الرواية نقرؤها، جمالها في تفاصيلها، أحسست بالخجل، الحقيقة أنا لا أعرف، أنا في أيام المرحلة الإعدادية والثانوية قرأت الكثير، كنت أذهب إلى دار الكتب الوطنية وأقرأ، وبعد عملي في التدريس انقطعت عن القراءة نهائياً، والتدريس محا ذاكرتي، وقضى على موهبتي.

. يا أبو جميل أنت تخرج عن الموضوع...

ـ نعم، سامحيني، ثم قال لي: الرواية الحديثة يا أستاذ عبد المجيد، لا تحكي قصة مثل الروايات القديمة لها بداية وعقدة وحل ونهاية، ولا تتحدث عن بطل وبطل مضاد، ولا تقدم حوادث مبنية على التسلسل وفق السبب والنتيجة، وليست غايتها شد القارئ وتشويقه، الرواية الحديثة ضد مفهوم الوحدة والتماسك وقوة البناء، الرواية الحديثة تقوم على مواقف وحالات، لا رابط فيما بينها في الظاهر، ولا بطل فيها، ولا أبطال، ولا قصة، ولا حبكة، الرواية الحديثة تقدم للقارئ لقطات أو جزئيات فسيفسائية مفككة، وعلى القارئ تجميعها وصنع لوحة منها، وهنا سألته أنا: وهل هذا النوع مناسب للقارئ عندنا؟

أم جميل تضحك، وتسأل:

. وماذا أجابك، ولكن قبل ما تتكلم، قل لي أرجوك، لماذا ارتفع ضغطك؟ ماذا رأيت في الطريق؟ هل وقعت قذيفة على رأس أحد؟ هل داست سيارة قطة أو طفلة؟ حديث الدكتور سامي يخفض الضغط لا يرفعه، بصراحة، حديثه مُمِلّ، كيف صبرت عليه؟.

أبو جميل يتكلم:

. قلت لك انتظري، أرجوك، في النهاية سأحكي لك عن كل ما جرى معي.

أم جميل تقاطعه:

ـ أظنك ضجرت منه، ثار غضبك، انفعلت، وصحت به: اتركنا من الرواية القديمة والرواية الحديثة، وتخاصمت معه.

أبو جميل يرد:

ـ ليتني خاصمته، على العكس، دعوته إلى البيت، وسار معي، وليتني ما دعوته.

أنفاسه تتقطع، صدره يضيق، يغص بالدموع، أم جميل تناوله كأس اليانسون، تعلق:

. سامحني يا أبو جميل، نصيحتي لك، لا تتكلم.

أبو جميل يتكلم بهدوء:

ـ قال لي بالحرف: هذا القارئ الذي لا يعرف الرواية هو القارئ الخام البكر الذي نريد التوجه إليه بالرواية الحديثة، ثم أضاف: والواقع الذي نعيشه واقع مفكك، غامض، لا نعرف فيه إلا الظاهر، ولا نعرف فيه إلا جزئيات يومية مفككة، نحن نعيشه ساعة ساعة، نعيشه حدثاً حدثاً، وهذا الواقع بتركيبته هذه لا تناسبه إلا الرواية المفككة، لأنها تعبر عنه خير تعبير، ثم قال لي: سأفاجئك، أنا عندي مشروع كتابة رواية من ألف ومضة، هي مجرد قصص قصيرة جداً، مجرد ومضات، مقطعة متباعدة متنوعة مضحكة مبكية، ترصد الواقع، وعلى القارئ تجميعها، سألته: وما الومضة، أجاب: قصة قصيرة جداً في أقل من خمسة أسطر، لا تزيد كلماتها عن خمسين كلمة، ترصد أي موقف جزئي من الحياة، فيه مفاجأة أو إدهاش أو صدمة، فيه ما هو متناقض، أو غير معقول، مثل الحياة التي نحياها، يقوم القارئ بتركيبها، قاطعته أنا، وقلت: هذا متعب للقارئ، القارئ يريد قراءة لرواية ليتسلى وينام.

أم جميل تتكلم:

. صدقت، هكذا نحن نفهم الرواية، أو أنا على الأقل.

أبو جميل يتكلم:

. وابتسم الدكتور سامي وقال: يا أستاذ عبد المجيد، نحن نكتب الرواية للقارئ لا لكي نسليَه فينام، ولا لكي نقدم له قصص الجنس فيهرب إلى عالم الأحلام، نحن لا نكتب الرواية ذات الحوادث المشوقة التي تشد القارئ وتسحره، وتجعله يجري وراء الحوادث لمجرد معرفة ما يجري، وما سيقع في الختام، نحن نكتب الرواية الحديثة للقارئ كي يفكر بحرية، لا نحلل الشخصية ولا نعلق على المواقف، نترك ذلك للقارئ، وبذلك نملّكه الحرية، حرية الفهم والتفكير، نحن لا نقدم حلاً، بل ندفع القارئ بهذه الطريقة إلى اتخاذ موقف يختاره لنفسه بحرية.

أم جميل تقاطعه، وتسأل:

. مرة ثالثة ورابعة سيتكرر السؤال: ومن يقرأ مثل هذه الرواية؟

أبو جميل يتكلم:

ـ أنا سألته السؤال نفسه، قلت له: الأمر صعب، لن تجد من يقرأ مثل تلك الروايات، أضاف بهدوء: طبعاً المسلسلات التلفزيونية وأفلام الأكشن والرعب والجنس

شوَّهت مفهوم الشعر والقصة والرواية والأدب والفن بل شوهت مفهوم الثقافة، أصبحت فقط ثقافة التلفزيون والصورة وغابت ثقافة الكلمة أو كادت تغيب، وصمت الدكتور سامي، يا أم جميل، ثم أضاف: خطاب الصورة للدماغ يا أستاذ عبد المجيد، غير خطاب الكلمة المكتوبة، وللأسف شعبنا اعتاد على خطاب الصورة واللون البراق والحركة السريعة والإيقاع الصاخب، ما عاد يصبر على خطاب الكلمة المكتوبة، فَقَد الصبر، فَقَد القدرة على التركيز، لأن القراءة صعبة، وتحتاج إلى التأمل والتفكير وإعمال العقل، خطاب الصورة سهل وممتع وفيه تسلية وغير متعب، ولا سيما إذا كان فيها الجنس، والحقيقة الجنس بمستوياته وأشكاله ودرجاته المختلفة مكون أساسي في خطاب الصورة، نظام التفكير عندنا أصبح نظام الصورة، الحقيقة، يا أم جميل، مللت، لذلك قلت له فجأة: ما رأيك بزيارتي، شقتي هنا قريبة، مطلة على السبيل، لكن ليتني ما دعوته.

أم جميل تعلق:

. شَغَلْتَ بالي، ماذا حصل؟ قل لي.

أبو جميل يتكلم:

. آه، تذكرت، وسألته عن الأستاذ خالد النايف، مدير دار الكتب الوطنية، وعن لقاءات المثقفين الأسبوعية في مكتبه، أخبرني بإحالة الأستاذ خالد إلى التقاعد، لبلوغه الستين، وتم تعيين مدير جديد، شاب متخرج في قسم اللغة العربية، وهو شاعر أيضاً، اسمه، اسمه، أحاول التذكر، نعم اسمه محمد حجازي، ولكن سرعان ما أُغْلِقَتْ دار الكتب الوطنية، بسبب القذائف الكثيرة التي بدأت بالسقوط في منطقة باب الفرج.

أم جميل تعلق:

. إغلاق دار الكتب خسارة كبيرة.

. المهم الآن سلامة الإنسان، يمكن افتتاحها في أي وقت.

أم جميل تسأل:

. وهل أصيب أحد المثقفين من أصحاب المدير؟

أبو جميل يتكلم، والدموع تملأ عينيه:

. نعم، الدكتور سامي، استشهد يا أم جميل.

ينهض وهو يشهق باكياً.

أم جميل تضع يدها على كتفه، وتسأل مدهوشة:

ـ ولكن أنت قلت لي قابلته في الحديقة، وحكى لك عن الرواية، ودعوته إلى البيت.

أبو جميل يلتفت إليها، يمسح دموعه، يتكلم، وهو يغص بالبكاء:

ـ لم يستشهد هناك عند دار الكتب الوطنية، استشهد هنا، أنا دعوته، وقَبِلَ الدعوة، قال: سألبيها في وقت آخر، لكن سأسير معك إلى العمارة، حتى أعرف الموقع، الحقيقة، الدكتور سامي لطيف جداً ومهذب ومتواضع ومتفائل، ماذا أقول لك...

أبو جميل يوليها ظهره، يسير نحو الشرفة، وهو يتكلم:

ـ ويا ليتني ما دعوته.

يتكئ بذراعه على باب الشرفة، يسند رأسه إلى الباب، أم جميل تسرع إليه:

. أبو جميل.

يلتفت إليها بكامل جسمه، والدموع تملأ عينيه:

. أم جميل، أم جميل، يلقي برأسه على كتفها.

. أرجوك أبو جميل، تعال، اقعد.

. لا أعرف، لا يمكن أن أنسى المشهد، كيف سأنام؟ كيف سأقعد؟ كيف سأقوم؟

أم جميل: الدكتور سامي راح، بكل بساطة راح، نطق بكلمة واحدة: الله، وقع على الأرض، طب أمامي، اختلج، وانتهى، والدم يكتُّ من رأسه، ولا حركة.

. ماذا وقعت فوق رأسه اللوحة المتأرجحة فوق الصيدلية؟

. رصاصة، رصاصة يا أم جميل، رصاصة واحدة لم يسمع صوتها، أنا نفسي ما سمعت صوتها.

. هل هي رصاصة قناص؟

ـ لا أعرف، في المنطقة كلها لا يوجد قناص، رصاصة طائشة، من أين جاءت؟ لا أحد يعرف.

يضع رأسه بين يديه، ويجهش في البكاء:

. هنا عند حديقة السبيل، كنا على رصيف الحديقة في الطريق إلى الشقة، كنا قريبين من العمارة، ليتني ما دعوته، لا كانت الرواية ولا كانت حديقة السبيل، ليتني ما رأيته ولا رآني، ليتني ما تعرفت عليه ولا تعرَّف عليَّ.

ويضرب بقبضة يده على باب الشرفة، يسند رأسه إليه، يتكلم:

ـ هو القاص والروائي وصاحب مشروع ثقافي للمستقبل، يقتل، وعُلا ابنة الثلاثين، تقتل، وأنا الرجل الماضوي المحبط الخائر المتقاعد ابن الستين، لم أستطع كتابة ثلاث صفحات عن سليمان لحلبي، أظل على قيد الحياة، ما معنى حياتي، حكمتك يارب.

وتتكلم أم جميل:

. هذا قدره يا أبو جميل، سَلم الأمر لله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

. لو أنه هاجر إلى ألمانيا أو السويد، كان كتب عشر روايات، وكان صار من أشهر كتَّاب الرواية العرب، وكان تزوج وأنجب وكوّن أسرة، خسارة يا أم جميل خسارة، مقتل فرد مقتل الأمة بأكملها، نحن رجعنا إلى الوراء مئتي سنة أو أكثر.

أم جميل تسأل:

. وبقيت إلى جانبه حتى جاءت سيارة الإسعاف! ما خفت من رصاصة ثانية؟

ـ ما خطر هذا على بالي، نعم بقيت إلى جانبه، ورحت معه إلى مشفى الجامعة، الرجل كان جثة هامدة، وهناك، في مشفى الجامعة، رأيت العجب العجاب، أشياء يعجز الكلام عن وصفها، غير ما نراه في التلفزيون.

ويصمت، ثم يضيف:

ـ شيء فوق العقل، فوق الخيال، لا يصدق، هذا هو الإنسان، يا أم جميل، أرجوك، لا تسأليني أكثر، القصة طويلة، رواية من ألف صفحة، لكن في الحقيقة مثل ما قال الدكتور سامي، صارت القصة قصيرة، وقصيرة جداً، هي مجرد ومضة، وينتهي الإنسان.

أبو جميل يروح ويجيء في غرفة الجلوس، يلتفت فجأة إلى أم جميل، يهم بالكلام، يصمت، يضرب بقبضة كفه راحة يده الأخرى، يتكلم، والدموع تملأ عينيه:

. أم جميل، وأنا أودع ابني جميل في المطار، في زيارته الأخيرة، تعانقنا، قبلته في خديه، وقبلني، أم جميل....

ويصمت، يلقي برأسه على كتف زوجته، يتكلم، وهو يغص بالدموع:

. سأقول لك، وأنا أقبله، ماذا أقول، أم جميل، راودني إحساس، أحسست كأنني أودعه

ويجهش في البكاء، ويكمل كلمته:

. الوداع الأخير.

مشهد الحريق

هو في دمشق، يسعى إلى الجامعة ليحصل على صورة من مصدقة نيله الإجازة، مقر منح الشهادات انتقل إلى حي آخر، هو يعرف دمشق حياً حياً، ولكنه ضائع الآن فيها، يدخل في زقاق صاعد، هو زقاق الريش، أمام جامع أسامة بن زيد، يلتفت وراءه، هو حي أقيول، بحلب، أمه تسير أمامه مع زوجته، الزقاق صاعد، تتفرع منه عدة أزقة، يدوي صوت إطلاق رصاص، ثمة اشتباكات، الحجارة القديمة تصد الرصاص، يرى أمه تدخل في منعطف، زوجته تختبئ في باب دار عتيقة، أمه أصيبت، رصاصة دخلت من خاصرتها اليمنى لتخرج من خاصرتها اليسرى، يهبط ثلاثتهم عن سور المدينة إلى طريق ريفية، يحاول الاتصال بالهاتف الجوال، يضيع منه الرقم، بمن يتصل؟ لا يعرف، يحاول، أصابعه تخطئ الأرقام، أمه تقول له لا تخف: لن أموت، يحس بضيق في الصدر، لا يكاد يستطيع التنفس.

يستيقظ، ينهض.

يوقظ زوجته، يقيس ضغط الدم، العلوي ثلاث عشرة درجة، والسفلي ثماني درجات، تقول له زوجته:

. ضغطك جيد، اطمئن.

يحكي لها عن الحلم، تعلق:

. اللهم اجعله خيراً.

تعد له فنجان قهوة، يتناهى إلى سمعه أذان الفجر.

يتوضأ وينزل إلى جامع الرحمن، يؤدي صلاة الفجر، يشتري ثمانية أرغفة، ويرجع.

لا يواتيه النوم، يقعد في الشرفة، صباح نيسان بارد، ولكنه منعش، يتلو آيات من القرآن الكريم.

زوجته تصغي إليه.

ـ صحِّحي لي تلاوتي، أنت متخرجة في قسم اللغة العربية، وتجيدين التلاوة أفضل مني، وأنت مواظبة على التلاوة من قبل، فاتني، مع الأسف، شيء كثير.

ـ أنت طيب القلب، ومؤمن، فقط كنت من المقصرين، والآن هداك الله، ولله الحمد.

. نسأل الله أن يهدي جارنا الذي فوق وجارنا الذي تحت.

أم جميل تضحك، تعلق:

. جارنا أبو وائل ما رأينا منه ومن زوجته إلا كل ما هو خير، وجارنا الذي فوق، ما رأينا منه أي شر.

. والرطوبة والعفونة؟

. هذه أمور يعاني منها كل الناس.

. حسبي الله ونعم الوكيل.

. دعنا نعش فرحتنا، بعد يومين يصل ابننا.

يسألها:

. أنا أرى ضرورة سفرنا أنا وأنت إلى دمشق، حتى ننتظره في المطار، ونساعده على حمل الحقائب، ما رأيك؟

ـ السفر متعب لنا، وابننا لا يحمل في العادة غير حقيبة يد واحدة، ولا تنس، السفر إلى دمشق يستغرق أحياناً عشر ساعات، بسبب الأوضاع الحالية.

أبو جميل ينهض، يروح في الغرفة ويجيء، يطل من الشرفة، يعلق:

ـ نسأل الله السلامة لولدنا، وللوطن كله....الحقيقة يا أم جميل أنا مستاء من الحلم.

. قل: اللهم اجعله خيراً، وأنا أعرفك لا تصدق الأحلام، وتراها تتعلق بالماضي، ولا صلة لها بالمستقبل.

. نعم، صدقت، ولكن رسخ في لا شعورنا الاعتقاد بارتباط الحلم بالمستقبل، ولا نستطيع التخلص من هذا الاعتقاد.

. أنا سأذهب إلى مدرستي، وأنت انزل مع أبو وائل إلى حديقة السبيل.

. انزلي معي، أنت دوامك يبدأ اليوم في العاشرة، عندك فراغ في الحصة الأولى والثانية، ننزل معاً، سأحكي لجاري وزوجته عن استشهاد الدكتور سامي، لعلي أرتاح إذا حكيت.

*

أبو جميل يحدثهما عن استشهاد الدكتور سامي.

أم وائل وأبو وائل يستمعان إلى الحديث ذاهلين.

والدموع تملأ العيون.

أبو جميل يعلق:

. نفسي ما عادت تشتهي زيارة حديقة السبيل ولا الخروج من البيت.

أم جميل تعلق:

. لا، انزل مع أبو وائل، روِّح عن نفسك، الدكتور سامي وافاه الأجل، وهذا هو قدره، وهنيئاً له هذه الميتة، نسأل الله تعالى أن يتقبله في الشهداء والصالحين.

أبو جميل يعلق:

. ولكنه ما كان يقاتل في سبيل الله.

أم جميل ترد:

. كان عنده مشروع كتابة رواية لإيقاظ الناس، والدعوة إلى الحب والسلام، كان كما قلت صاحب نية صافية، وإنما الأعمال بالنيات.

أم وائل تتكلم:

ـ نسأل الله تعالى له الرحمة والمغفرة، وأنا أنصح لك أخي أبو جميل بالذهاب مع أبو وائل إلى حديقة السبيل للتسلية، ليس عندنا مكان نتسلى فيه غير حديقة السبيل، هذه هي الحياة، كلنا في هذه الطريق، نسأل الله المغفرة.

أم جميل تضيف:

ـ والدكتور سامي لم يستشهد في حديقة السبيل، هو استشهد كما قلت قرب العمارة على الرصيف.

أبو جميل يعلق:

. حلب كلها صارت مثل الرصيف الذي استشهد عليه الدكتور سامي.

أم جميل تضيف:

ـ ليست حلب وحدها، سورية بكل قراها ومدنها، كان عندنا نكبة واحدة في فلسطين، صار عندنا نكبات في البلاد العربية كلها.

بعد صمت طويل تتكلم أم وائل:

. أنا ذاهبة بعدكما إلى زيارة صديقة لي في شارع النيل، ومن بيتها سأتوجه إلى سوق الخالدية، سأشتري فروجتين مشويتين.

ثم تتوجه بالخطاب إلى أبو جميل:

. اليوم معاً سنتناول الغداء.

أبو جميل يعلق:

. والله نفسي لا تشتهي الطعام.

أم جميل تتكلم:

. لأ، هذه المرة سيكون الغداء عندنا.

أم وائل ترد:

. عندنا أو عندكم، كله واحد، ولكن هذه المرة عندنا، غداً، عندما يصل الدكتور جميل بالسلامة سيكون الغداء بالفرح سبعة أيام عندكم.

ويرد أبو جميل:

. إن شاء الله، بكل السرور، أنا جاهز.

أم جميل تتكلم:

. وأنا ذاهبة إلى المدرسة، تأخرت، اقتربت الساعة من العاشرة، اليوم ليس عندي دروس في الحصة الأولى والثانية، وعندي بالمقابل حصة في الفوج الثاني، سأنصرف حوالي الساعة الواحدة.

أم جميل تغادر، ويغادر في إثرها أبو جميل وأبو وائل.

*

في الطريق إلى حديقة السبيل يصادفان دلال العقارات أبو سامر، يستوقفهما، يحييهما، ثم يفاجئ أبو جميل بالقول:

. كنت حدثتني عن ابنك الدكتور جميل، الله يحميه، وقلت لي عند شراء الدار إنك ستشتري له شقة، أنا اليوم عندي شقة، هي هدية لك، لا أريد ثمنها.

أبو جميل يبدي استياءه، يعتذر إليه، يقول له:

. لا أفكر في شراء أي شقة.

أبو سامر يلح:

. أنا لن أبيع، وأنت لن تشتري، هي هدية لك، فقط تفضل معي لترى الشقة.

أبو جميل يحاول التخلص منه، ولكن أبو سامر بأسلوبه يتشبث به، ويسير بينه وبين أبو وائل وهما متجهان نحو السبيل، وهو يثرثر:

. الشقة تعرفها، هي جنة، هي شقة وبستان، ثمنها مليون ونصف، يمكن بيعها بعد يومين بثلاثة أو أربعة، الأسعار قفزت، ولكن أنت أولى بها من غيرك، بصراحة، هي الشقة التي فوق شقتك.

أبو جميل يقف مذهولاً، ينظر فيه، وأبو سامر يثرثر:

. جارك زارني أمس، وأجرى لي وكالة خاصة ببيع الشقة، وأوصاني ببيعها لك بمليون ونصف، وليس لي من المشروع كله أنا وشريكي حكمت بك غير مئة ألف، الشقة ثمنها مليون ونصف بكل ما فيها من أثاث، الرجل قبل ساعة حمل أشياءه الخاصة وخرج، وهذا مفتاح الشقة، تفضل خذه بيدك.

أبو جميل:

. أقسم بالله لن تمسه يدي، لا أريد المفتاح ولا الشقة ولا ، أنا شقتي نفسها سوف أبيعها.

أبو سامر يثرثر:

. أعرف، أعرف، الرجل يعتذر إليك، وأنا أعتذر إليك، نعرف الماء يتسرب عبر الجدران، أنت يمكنك إلغاء البركة وأحواض الزرع، هي لك، على كل حال متى

سيرجع ابنك؟ أنت قلت لي ابنك سوف ينهي عقده ويحضر معه تعويضاته وتريد شراء شقة له قريبة، وهذه الشقة هي أنسب شقة لابنك.

أبو جميل يتكلم غاضباً:

. يا أخي، ابني سيسكن عندي ولن يشتري شقة.

أبو سامر يتكلم:

. أخي أبو جميل، أنا أذنبت معك، وأرجو منك السماح، على كل حال، سأحتفظ بالمفتاح عندي في المكتب، والشقة غير مسجلة في أي مكتب، ولا أحد يعلم بأمرها، غير أنا وحكمت بك، وهي لك ولابنك، سننتظر حتى يصل ابنك بالسلامة، وعندك فرصة شهر لتفكر، شهر بعد عودة ابنك بالسلامة، لا تقرر الآن، فكر، ولا تستعجل، شاور زوجتك أختنا أم جميل، وشاور جارك أبو وائل، شاور من تحب، وفي أي ساعة تحب تجد المفتاح عندي، وكل ما في الشقة من أثاث عهد الله لن تمسه يد.

ويهم بالمضي، ثم يرجع ليقول:

ـ بصراحة إذا عرف شريكنا أكرم المحمد بأمر الشقة فلن يترك المفتاح معي ساعة، سيدفع ثمنها فوراً نقداً.

أبو جميل يتكلم مدهوشاً:

. أكرم المحمد الذي باعني الشقة هو شريك لك؟

أبو سامر يتلعثم، ثم يتكلم:

ـ نعم، الآن كل شيء راح ومضى، نعم، أكرم المحمد شريكنا، هو بأمواله، ونحن بهذا اللسان.

ويمد لسانه، ثم يضيف:

. هذا هو عملنا يا أبو جميل، تقع تحت يدنا شقة صاحبها مستعجل في بيعها، نشتريها، نضيف إليها تحسينات بسيطة، نربح منها خمسمئة ألف، تسعمئة ألف، ولكن بيني وبينك، تعبنا كله ضائع، هذا المال كله حرام، ونحن نعرف، ماذا نفعل؟ غرقنا حتى رأسنا، قبل أسبوعين حكمت بك أجرى عملية تركيب صمام، كان يشعل سيكارة من سيكارة، لا تنزل السيكارة من يده، كان يدخن في اليوم أربع علب، وكان بصراحة على علاقة مع امرأة، تاب إلى الله، الحمد لله، واستغفر ربه، ونوى أداء فريضة الحج هذه السنة، وترك التدخين، نسأل الله العفو عنا جميعاً.

ويصمت ثم يضيف:

ـ وأنا تبت إلى الله، ما عدت أشتغل إلا بالصدق، بصراحة، ابني قبل يومين اثنين، أخذ سيارتي ليوصل أمه إلى بيت جده في حي الفرقان، وكان يسوق بسرعة عادية، وهو في داخل المدينة، ولكن خرجت له سيارة مسرعة من شارع فرعي، فكانت الإصابة مباشرة في الباب إلى يساره، الحمد لله، ما أصيب بأي أذى لا ابني ولا

زوجتي، ولكن الضرر كان بأكثر من مئة ألف، صاحب السيارة الثانية مجرم، ماذا أفعل؟ صلَّحت له سيارته، كلفني تصليح سيارته وسيارتي أكثر من مئة ألف، ونزلت قيمة سيارتي.

ويصمت، يلتقط أنفاسه، وهو يمشي إلى جوارهما، ثم يقول:

ـ والله، أول الأمر قررت الانتقام، قلت لنفسي، لن أقبل بعد اليوم من أي بيعة بأقل من خمسمئة ألف عمولة، ولكن بعد ساعة، رجعت لنفسي، أقسمت على العمل بصدق، والبعد عن الحرام، طبعاً المسألة ما هي مسألة مئة وخمسين ألف، أو تصليح سيارة، المسألة هي مسألة هداية من الله، والله كلنا من قبل نعرف الله، ونميز الحرام من الحلال، ولكن النفس أمارة بالسوء، أنا كانت حادثة السيارة بالنسبة إلي إشارة، والحمد لله، سلامة الروح هي أهم شيء.

ويدعوهما إلى فنجان قهوة في المكتب، ولكنهما يعتذران، يودِّعهما ويمضي.

*

ويمضي أبو جميل وأبو وائل على الرصيف في طريقهما إلى حديقة السبيل يمشيان مستمتعين بشمس أواخر نيسان الدافئة.

أبو جميل يقول لصاحبه أبو وائل:

ـ هذا الرجل أنا لا أثق به.

أبو وائل يعلق:

ـ الحق معك، ولكن نبرته الآن مختلفة، وهو على ما يبدو صادق، وقد اعترف بذنبه وطلب منك السماح، وحادث السيارة جعله يصحو ويرجع إلى نفسه، الحقيقة، هذه الظروف الصعبة، دفعت الناس للعودة إلى الله.

أبو جميل يعلق:

ـ صدقت، يا أخي يا أبو وائل، ولكن للأسف، هذه الظروف هي نفسها كشفت عن كثير من ضعاف النفس ومرضى العقل والدين واستغلوا الواقع أبشع استغلال.

أبو وائل يضيف:

ـ هذه هي الدنيا، من آدم إلى قيام الساعة، الصراع مستمر، حسبي الله ونعم الوكيل.

ويصمت، ثم يلتفت إلى أبو وائل يسأله:

ـ وما رأيك بشراء الشقة؟

ـ لا تتردد.

ـ ولكن أمر هذا الرجل، صاحب الشقة، غريب.

ـ أنت لا علاقة لك به، أنت تشتري من الدلال بموجب وكالة خاصة قانونية، وطبعاً لا بد من الاستعانة بأحد المحامين.

. هل عرفت أنت هذا الجار؟

. قلت لك أمره غريب، هو سكن قبلي، أنا سكنت عام ألفين، التقيته مرتين على الدرج، سلمت عليه، دعوته إلى زيارتي فاعتذر، وقابلته مرة في عيد الأضحى، هنأته بالعيد، وأبديت رغبتي في زيارته، فقال: "أنا لي ظروفي الخاصة، لا يزورني أحد"، ثم هبط على الدرج.

. وما اسمه؟ وما عمله؟

. الحقيقة لا أعرف، أنا اشتريت شقتي عن طريق مكتب التقوى نفسه، ولكن قبل أن يشتريه أبو سامر وشريكه حكمت بك، صاحبه السابق رجل طيب وسمح، اسمه نزار، قال لي جارك في الطابق الأخير متقاعد، وهو رجل يعيش وحده، لا يحب معاشرة الجيران، وأنا والله لا أعرف اسمه، ولا أعرف متى يدخل ومتى يخرج.

. بصراحة، يا أبو وائل، أنا كنت عند الحلاق في الشارع خلف حديقة السبيل، سألني أين تسكن ياعم، حدثته عن الشقة، فقال: أنت تسكن تحت تاجر مخدرات.

أبو وائل يضحك، ثم يضيف:

ـ لا تصدق، طوال عشر سنين ما دخل إلى الشقة غير تلك المرأة التي يقول هي ابنته، وأنا أشك، وأظنها خادمة، ويقضي معها رغبته، ولو كان تاجر مخدرات لاختلف الأمر.

ـ ولكن ما هذه السرِّيَّة التي يعيش فيها؟ لعله ضابط كبير متقاعد، أو ملحق ثقافي، أو لاجئ سياسي.

أبو وائل يضحك أكثر، ويعلق:

ـ لا شيء من هذا كله، لو كان مثلما قلت لرأيت غرفة للحارس على باب العمارة، أو لرأيت بضعة رجال دائماً حول العمارة للحماية، لا شيء من هذا، هو رجل عادي، مثلي مثلك، لكنه غني، عنده عقارات يعيش من أجرتها، أو عنده رصيد في البنك يعيش من فوائده، ولا تنس، هو وحده، مصروفه بسيط، يستطيع تناول طعامه كل يوم في مطعم، ما المشكلة؟

ويمران أمام الصيدلية المغلقة، واللوحة المعلقة فوقها يلعب بها الهواء، وهي مثبتة من طرف واحد بمسمار.

أبو جميل يشير إلى اللوحة ويعلق:

. انظر يا أبو وائل إلى هذه اللوحة، من أربعة أشهر، في أثناء بحثي عن شقة، رأيت هذه اللوحة المتأرجحة فوق الصيدلية، ومن ذلك الوقت والصيدلية مغلقة، واللوحة تتأرجح في الهواء فوقها، أحياناً أتمنى لو طاحت بها الريح ووقعت، وأحياناً أتمنى لو أصابتها رصاصة طائشة، فسقطت، واسترحنا منها، لا أعرف لماذا تقلقني، اليوم أتمنى لو أصعد على سلم، وأثبتها.

أبو وائل يتكلم:

ـ صدقت يا أبو جميل، هذه الصيدلية مغلقة من أول هذا العام ٢٠١٣، ولكن صدقني هذه أول مرة أتنبه فيها على تأرجح اللوحة فوق الصيدلية.

. وما قصة الصيدلية؟ لماذا هي مغلقة من أول العام؟

ـ آه يا أبو جميل لو تعرف، صاحب الصيدلية، الأستاذ يحيى، رجل شهم، ورائع، هو صديقي، هاجر هو وزوجته وأولاده إلى السويد.

. خسارة.

. والله كان الرجل مثال الأخلاق والكرم، إذا كان نوع من الدواء في الوصفة غير متوفر عنده، كان يحضره بنفسه للمريض في المساء أو في صباح اليوم التالي، وكان يعطيني الحقنة في عيادته ويرفض أخذ أجرة، وكان على علاقة راقية مع كل سكان المنطقة.

ـ الحقيقة، من سوء حظ البلد كلها هجرة مثل هؤلاء الناس الطيبين، لا سيما أصحاب الاختصاصات.

ويعبران الشارع إلى حديقة السبيل.

في مدخل الحديقة يشدّ أبو جميل على يد أبو وائل يستوقفه أمام بائع غزل البنات، وهو يعلق:

. من زمان ما رأيت بائع غزل البنات.

ويرد أبو وائل:

ـ هل نسيت؟ دائماً نراه في الحديقة وهو يحمل غزل البنات في أكياس نايلون ويبيعها للأطفال.

. أقصد، من زمان ما رأيت بائع غزل البنات أمام عربته، وهو يرش السكر في هذا الحوض الصغير الدوار، وتحته موقد، وسرعان ما يتحول السكر إلى خيوط حريرية ناعمة كالهواء حلوة بطعمها وألوانها.

ويمد يده إلى البائع بمئة ليرة، يقول له:

. أعطني غزلتين، كل واحدة بخمسين ليرة.

ويناول البائع كلاً منهما غزلة كبيرة وردية اللون.

أبو وائل يحمل الغزلة مضطرباً، وأبو جميل يحملها فرحاً مزهواً، ويقضم منها قضمة، ويعلق:

ـ يا أله، ما أشهاها! تذوب في الفم كالهواء، حلوة، سهلة، لذيذة، ناعمة، ليت الحياة هكذا مثلها.

أبو وائل حائر لا يعرف كيف يحمل الغزلة، يتكلم:

ـ هذه الغزلة يا أبو جميل للأطفال، ماهي للعجائز مثلنا، وهي كبيرة، كيف سنمشي بها ونأكلها أمام الناس؟

أبو جميل يضحك، يقضم من الغزْلة ويتكلم:

ـ ونحن أطفال، هل هذا عيب، عجوز وعجوز وكل واحد اشتهى على غزل البنات، هل نفعل ما هو حرام؟

ويضيف أبو وائل:

ـ ليت أم جميل تراك، أو أم وائل.

ـ قل: ليت أم جميل وأم وائل معنا، لاشتريت لكل واحدة غزلة، عند عودتنا إلى البيت، سأشتري لكل واحدة غزلة بمئة ليرة.

ويمضيان إلى داخل الحديقة، أبو وائل يتكلم:

ـ بصراحة يا أبو جميل، هذه أول مرة أراك تنطلق بحرية، أعرفك دائماً تتحفظ، تقول: هذا لائق وهذا غير لائق، هذه أول مرة تتصرف بحرية.

ـ هذا من القهر، لعله انتهى عمري، أو لعلي عدت إلى الطفولة، هل نسيت المثل: الرجل الكبير مثل الطفل الصغير؟

أبو وائل يضحك، ويعلق:

ـ اليوم ضحكنا، من زمان ما ضحكنا، اللهم أعطنا خير هذا الضحك.

ـ الإنسان الذي يكثر من الضحك، في داخله هم كبير وقهر كبير وعذاب.

بعد خطوتين يخرج لهما من جانب في الحديقة طفل، ينظر في الغزلة التي مع أبو جميل، ويقول له:

ـ عمو، عطيني قطعة صغيرة.

أبو جميل يناوله الغزلة كلها.

وما إن يمضي بها الولد، حتى تظهر طفلة صغيرة، هي أخته، على ما يبدو، تتوجه إلى أبو وائل، وهي تقول:

ـ وأنا، عمو؟

أبو وائل يناولها غزلته، فتركض بها وراء أخيها فرحة، ويعلق أبو وائل:

ـ كثرت أعداد النازحين وكثرت أعداد المشردين.

ويضيف أبو جميل:

ـ كان الله في عون مَن هُدِمَت دارُه واضطر إلى النزوح.

ويتخذان لنفسيهما مقعداً تحت شمس نيسان.

أبو جميل يروي الحلم لصديقه أبو وائل، يقول له أبو وائل:

ـ أنت تحب دمشق، وتتمسك بها، وما الشهادة إلا حبيبة كانت لك في دمشق، خبرني هل أحببت في دمشق؟

ـ نعم، في أيام الدراسة أحببت زميلتي، وكنت أساعدها في الامتحان، ولما تخرجنا عرضت عليها الزواج، فوافقت، ولكن أمها اشترطت أن يكون عندي شقة هي ملك لي في حلب، قلت لها: نعيش في دار أبي مع أمي وإخوتي، وندخر أنا وزوجتي ثمن شقة، فرفضت، طبعاً البنت عندنا لا تملك القرار.

أبو يعلق مازحاً:

. عندك الآن شقة فارغة في الملعب البلدي، ارجع إلى دمشق وابحث عن تلك الحبيبة.

أبو جميل يضحك، يقول له:

ـ صدقت، تفسيرك مقبول، ولكن أضعت الطريق إلى بيتها وإلى مديرية الامتحانات، وأضعت شقة الملعب البلدي.

. ماذا؟ بعتها؟

ويحدثه عن أخته وسكنها في الشقة، فيصيح به:

. أنت طيب زيادة عن الحد، بل أنت أبله، ولا تغضب مني، كان يمكنك تأجيرها بعشرين ألف ليرة.

ويستحلفه بالله إن كان صادقاً أو مازحاً، فيؤكد له أنه جاد، وهنا يقول له:

ـ هذا تفسير حلمك، أنت أضعت الشهادة في دمشق، أي أضعت العلم الذي حصلت به ثمن الشقة، أي أنت أضعت الشقة وعلمك وتعب العمر.

أبو جميل يضحك:

ـ تأويلك يا أبو وائل هذه المرة غير صحيح، ولكن ما بال أمي أصابتها رصاصة؟ هل تتعذب في قبرها؟

. لأ، أنت تحب زوجتك، وتريد لها الحياة، ولو بموت أمك.

ـ هذا غير صحيح، أنا أحب أمي، وأحب زوجتي، وأمي ماتت، نعم، يرحمها الله، ولا أريد الموت لها ولا لزوجتي، ولعلمك، أمي في الحلم لم تمت، وهي قالت لي: لا تخف، لن أموت.

يسأله أبو وائل:

. وما تفسيرك أنت؟

. لا أعرف.

ويصمت أبو جميل برهة، ثم يقول:

. أمي هي حلب، أصيبت، نُكِبَت، تنزف، كما ترى، ولن تموت.

ويسأله أبو وائل:

. وما تفسير الشهادة، وأنت تبحث عنها في دمشق؟

. دمشق هي العاصمة، والشهادة هي العلم، والعلم هو الخلاص.

أبو وائل يعلق:

. الحلم قابل دائماً لتفسيرات مختلفة.

ويرن الهاتف الجوال، يرفعه أبو جميل، يلتفت إلى أبو وائل:

. هذه أختي رجاء، كنت أحكي لك عنها، اسمح لي بالرد عليها.

ويتكلم:

ـ أهلاً رجاء...ما الأخبار؟ ...صالح وصل بالسلامة؟ ...الحمد لله...قلت لك لا بد من الإفراج عنه...ماعَرَف مَن خطفه؟ ....أجانب؟ ...غير سوريين...الله يخزيهم...المهم سلامته؟ قلتِ لي كانوا ستة شبان...والبقية؟ ...الحمد لله أفرجوا عن أربعة...احتفظوا بواحد لأنه عسكري من أجل المبادلة مع أسراهم... والثاني....كيف سيدفع لهم أبوه خمسة ملايين؟...غير معقول! حتى ولو كان صاحب مدجنة....غداً ينزل المبلغ إلى مليون ...وسينزل إلى خمسمئة...حسبي الله ونعم الوكيل...أعطيني صالح لأكلمه...لا بأس اتركيه في نومه...ولكن من الضروري مراجعته لمخفر الشرطة وتسجيل ضبط بخطفه وكسر بطاقة هويته...يمكنه الحصول على بطاقة جديدة...لم يأخذوا جواله لأنه رخيص لا يستحق....استرحت والأولاد في الشقة؟ ...الحمد لله....سلِّمي لي على صالح والأولاد...ابني جميل سيصل بعد ثلاثة أيام في الأول من أيار.....الله معك.

يلتفت إلى أبو وائل، يتنفس الصعداء، يتكلم:

. الحمد لله رجع ابن اختي صالح بالسلامة بعد ما خطفته جماعة مسلحة، والله كأنه ابني ورجع إلي.

ويصك سمع كل من في حديقة السبيل فحيح يملأ السماء، ويدوي انفجار مكتوم، كأنه في داخل شقة.

ويقف الناس في حديقة السبيل ذاهلين، يحدقون بأبصارهم نحو الجهة الشمالية، صوب دوَّار الدلة، حيث يتصاعد دخان كثيف تتراءى في وسطه ألسنة اللهب.

أبو وائل وأبو جميل يقفان يتأملان الحريق، وألسنة اللهب تتصاعد، وصوت سيارات الإطفاء يملأ الفضاء.

ويصيح أبو وائل:

. يا إلهي، هذه شقتي تحترق.

أبو جميل يعلق:

. أسرع، أظن هي شقتي، لا شقتك.

ويصل أبو جميل وأبو وائل، ليجدا رجال الإطفاء يمدون خراطيم الماء وهم يحاولون إطفاء الحريق، تمر نصف ساعة، والنار ما تزال تشتعل.

الشقة كلها تشتعل.

تصل أم وائل وتصل أم جميل.

بعد أكثر من ساعة يتم إخماد الحريق، ولكن يظل الدخان الأسود يتصاعد من النوافذ والأبواب.

رجال وأطفال في الحي ما يزالون واقفين ذاهلين أمام شقة أبو جميل.

في ضيافة أبو وائل

أبو جميل وأم جميل في ضيافة أبو وائل.

أم جميل تقترح أن يرحلا إلى عفرين، أبو جميل يوافقها.

ولكن أبو وائل يقسم عليهما إلا أن يظلا في ضيافتهما، شهراً وشهرين، بل سنة وسنتين، إلى أن يفرجها الله.

أم وائل تتكلم:

. الدار داركم، والبيت بيتكم، نحن الضيوف، وأنتم أهل البيت.

ويضيف أبو وائل:

ـ نحن لا ننسى، سورية استضافتني أنا وأبي وجدي، وإخوتي، نحن هنا عشنا في ضيافة سورية، وسورية سمحت لنا بالدراسة والعمل والتملك.

ويصمت، ثم يضيف:

. كل شيء يمكن تعويضه، سلامتكم هي الأهم، نعم، كل شيء احترق، حتى ورق الجدران، ولكن يمكن بمليون ليرة إعادة طلاء الجدران وتركيب نوافذ وأباجورات جديدة، وبمليون ليرة يمكن شراء فرش جديد وحديث، كل شيء يمكن تعويضه، إلا الإنسان، المهم سلامتكم، وغداً يصلُ الدكتور جميل بالسلامة، ونفرح به كلنا، وننسى كل شيء.

أبو جميل يتكلم:

. ولكن سوف نثقل عليكم.

أم وائل تتكلم:

ـ أرجوك يا أبو جميل، لا تذكر مثل هذا الكلام، الناس للناس، الشقة واسعة، ولله الحمد، جارتنا أم صلاح استضافت عندها أختها وزوج أختها، وعند أختها خمسة أولاد، صار في الشقة عشيرة، وأنتم رأيتم هذا بأنفسكم لما نزلنا إليها قبل أسبوع.

أبو جميل يلتفت إلى زوجته ويقول لها:

. هل سمعتِ؟ الآن تذكرت، أنتِ قلتِ عني أحمق، عندما استضفتُ أختي في شقتي بمنطقة الملعب البلدي.

ويلتفت إلى أبو وائل ويقول له متضاحكاً:

ـ وأنت، يا أخي يا أبو وائل، قلتَ عني أبله، عندما حكيت لك عن استضافتي لأختي، وهذا أنت الآن تستضيفني في شقتك!

وتتكلم أم وائل:

ـ ما فعلته يا أبو جميل هو الحق والصواب، أحسنت، بارك الله فيك، وبصراحة حكت لي أختي أم جميل، وعاتبتها، واسألها ماذا قلت لها.

وتتكلم أم جميل:

ـ نعم، أم وائل لامتني، وقالت لي: موقف زوجك هو الصحيح، وهو الواجب، وإلا، فأين ستذهب أخته وأولادها؟ هل يتركهم لينا‌موا في الشارع؟ نعم الدولة فتحت المدارس والسكن الجامعي للنازحين، ولكن في وجود شقة فارغة، من الأَوْلَى استضافة أخته فيها.

وتتكلم أم جميل، فتقول:

ـ والله، في زيارتي قبل بضعة أيام لصديقة لي هنا في شارع سمعت عجائب القصص عن أشخاص كأنهم ملائكة أو أنبياء، أحدهم عنده عمارة في حي الحمدانية، فيها تسع شقق، فتحها كلها للنازحين، وشخص آخر عنده مستشفى في حي المعادي بحلب، وهو من الأحياء الفقيرة، وهو يقدم الخدمات كلها بالمجان، ولا يأخذ أي ليرة، وفي المستشفى خمس أجهزة لغسل الكلى، وذكرت لي اسم الرجل ولكن والله نسيته.

يضيف أبو جميل:

ـ نعم، هذا صحيح، وهذا من قبل الأزمة، وكان أخي يغسل كليته فيه كل أسبوعين مرة، نعم، وهناك أكثر من جمعية خيرية كانت تقدم المساعدات من قبل، وهي الآن تقدم مساعدات أكبر وأكثر، ولكن....

وتقاطعه أم جميل، فتتكلم:

ـ وهناك كثير من الأشخاص عندهم آبار وقاموا بفتحها وركبوا الحنفيات في الشوارع حتى يأخذ الناس حاجتهم من الماء، وبدأ كثير من الناس بحفر آبار لتوزيع المياه، ومساعدة الناس.

ويتكلم أبو جميل:

ـ كنت سأقول، وأم جميل قاطعتني، ولكن لا ننسى طبعاً بالمقابل، هناك من رفع أجرة الشقة من عشرة آلاف في الشهر إلى خمسة وعشرين، وهناك من يسرق الماء من خزان جاره على السطح، وهناك قصص أكثر وأكثر عن حالات وحالات أسوأ وأسوأ ألف مرة.

ويعلق أبو وائل:

ـ هذه هي الطبيعة البشرية، فيها الطيب وفيها الخبيث، وفيها الصالح وفيها الطالح، ويزداد الأمر وضوحاً في الحروب وفي الأزمات، قد تزيد نسبة أحد الطرفين، ولكن هذا الصراع مستمر، وهو قانون الحياة.

ويعلق أبو جميل:

ـ صدقت يا أخي يا أبو وائل، ولكن التاريخ، للأسف، لا يذكر إلا الصفحات السوداء.

ويضيف أبو وائل:

ـ ونحن هنا، لا يليق بنا تركككم، الشقة شقتكم، ونحن الضيوف عندكم، والله، نحن من قبل كنا نرى الشقتين: شقتكم وشقتنا شقة واحدة، تخيلوا: لو شقتنا نحن هي التي احترقت: أين كنا سنذهب؟ كنا سنصعد إليكم وننزل عندكم، شئتم أو أبيتم، الناس لبعضها يا أبو جميل.

وتضيف أم وائل:

ـ والمهم الآن وصول الدكتور جميل بالسلامة، ورجاء، إذا اتصل وسأل، لا تخبروه بأي شيء، هذه شقتكم، ونحن ضيوف عندكم.

أبو جميل يستأذن في الخروج إلى الشرفة يكفكف دموعه.

وبعد أقل من ساعة يزورهم أبو سامر، وبصحبته ابنه سامر، يقدم لهم مفتاح الشقة، وهو يقول:

ـ هذا مفتاح الشقة في خدمتكم، اقعدوا فيها ولا تشتروها، اقعدوا فيها سنة أو سنتين حتى يتم إصلاح الشقة، وأنا أتعهد لكم إصلاحها بمليون، وإعادتها أفضل مما كانت عليه.

أبو جميل يقول له:

ـ أشكرك يا أبو سامر، ولكن نحن الآن في يوم الأحد، بعد غد الثلاثاء يصل ابني جميل، ونبقى هنا يومين في ضيافة أخي أبو وائل، ولا بد من زيارة عفرين، وبعدها نقرر، قد نبيع الشقة كما هي.

أبو سامر يتكلم:

ـ لأ، بيعها الآن خسارة كبيرة، قلت لك، يمكن إصلاحها إذا أردت بأقل من مليون، ولكن بمليون أكفل إكساءها لتعود أفضل مما كانت عليه، ويمكن بيعها بعد ذلك إذا أردت بعشرة ملايين، الأسعار قفزت.

ويتكلم أبو جميل:

ـ أنا نفسي نفرت من العمارة، ومن المنطقة كلها، مع اعتذاري لأخي أبو وائل.

أم وائل تتكلم:

. على كل حال، الأفضل تأجيل الموضوع حتى يصل الدكتور جميل بالسلامة، ويستريح، بعد ذلك يمكن بحث الأمر بهدوء.

أبو سامر يهم بالمغادرة، أبو وائل يستوقفه، يسأله:

ـ أود سؤالك عن صاحب الشقة، لماذا هو انعزالي لا يزور ولا يزار؟ ولماذا سيبيع الشقة؟ ما قصته؟

أبو سامر يبتسم:

ـ لا قصة، ولا أي شيء، الرجل من أسرة محترمة، من بيت النجار، كان من أكبر القضاة في حلب، نزيه وشريف وعادل، في عام ١٩٨٢ أحيل على التقاعد وهو في سن الأربعين، في أوج عطائه، وما من سبب، ولا تفسير.

أبو جميل يقاطعه سائلاً:

. كان من الإخوان المسلمين؟

أبو سامر يرد:

ـ لا، لا، أبداً، ما كان منهم ولا من غيرهم، لا هو ولا أحد من إخوته أو أبناء عمه، كان الرجل من المحايدين المستقلين، وأبعد ما يكون عن السياسة، أنا أعرفه شخصياً منذ تلك الأيام، والرجل أحس بصدمة، لذلك اعتزل الحياة، الآن عمره حوالي اثنين وسبعين سنة، أولاده كلهم خارج سورية، عنده ولد طبيب، مقيم في ألمانيا، وولد يختص في القانون الدولي في فرنسا، وولد يدرس الإخراج السينمائي في أمريكا، وبنت في إنكلترة، في عام ١٩٩٨ اشترى هذه الشقة، قبل ما أشتري أنا المكتب، وعاش فيها وحده، بيته صومعة أو محراب، اعتزل الناس، لا يزور ولا يزار، لا أحد غير تلك المرأة تزوره في الأسبوع مرة أو مرتين لتنظيف الشقة، سيدة فاضلة، تخدم في أكثر من بيت في المنطقة حولنا، أنا أعرفها، وقلت لكم هي ابنته، حتى لا تشكوا في الأمر، والرجل حوَّل السطح أمامه إلى جنة: بركة وأزهار، حتى يتسلى، ويملأ وقته، والله هو أوصاني لا أبيع الشقة إلا لأخي أبو جميل، وبمليون ونصف، بكل ما فيها، قال لي: "الجار أولى بالشُّفعة"، وكان يفكر في النزول إليك، ليودعك، ويعتذر إليك، وهذا كل ما عندي، وهذا ابني سامر، كان معنا، وشهد الموقف.

ويلتفت أبو سامر إلى ابنه ويقول له:

. حدث عمك يا سامر عن الأستاذ فاضل.

سامر يتكلم بأدب:

. نعم، الأستاذ فاضل أوصى ببيع الشقة بما فيها لعمي أبو جميل.

أم جميل تتكلم:

. عندنا في عفرين أسرة من بيت النجار.

أبو سامر يتكلم:

ـ لأ، هذا الرجل من حلب، في كل قرية وفي كل مدينة في سورية يوجد بيت النجار، في الأصل عندما بدأت سورية بتسجيل الأسر كانت كل أسرة تُسَجَّل بحسب عمل رب الأسرة، وفي حلب نفسها أكثر من أسرة من بيت النجار.

أبو وائل يتكلم:

ـ نحن حسبنا شقته هي المستهدفة.

أبو سامر يتكلم:

ـ الرجل لا علاقة له بأي شيء، وما هي إلا أقدار مكتوبة على الإنسان.

يستخرج من جيبه ورقة مطوية، يفتحها، ويتكلم:

ـ هذه هي الوكالة، وهذا اسمه، فاضل النجار ابن أحمد، وهو يوكلني أنا ببيع الشقة، ووضع الأمانة في عنقي ببيعها بكل ما فيها للجار الذي تحته بمليون ونصف، أو لغيره بالسعر المناسب، وحملني أمانة أثقل، غير مكتوبة بعقد ولا وكالة، وهي التبرُّع بكامل ثمن الشقة لدار السعادة الواقعة في السوق المحلي في آخر شارع النيل، هي دار للعجزة، والدار معروفة للجميع، وكان يفكر هو باللجوء إليها، وتمضية بقية حياته فيها، ولكن رأى السفر إلى إنكلترة ليمضي بقية حياته عند بنته في لندن، قبل سنة أجرى عملية القلب المفتوح، الأجل اقترب، كان ينوي الإقامة في دار المسنين، الخدمة فيها راقية، هي مثل الفندق بأربعة نجوم، فيها أطباء وخدَم، فيها رعاية عالية، وأنا سمعت عن أستاذ جامعي كبير ومن أسرة محترمة قضى فيها بقية حياته، وتوفي فيها.

ويتكلم أبو جميل:

ـ نعم، هو الدكتور فاخر عاقل، أعرفه حين كنت في جامعة دمشق، هو أستاذ كبير، طبعاً أقام في دار المسنين على نفقته الخاصة.

ويتكلم أبو سامر:

ـ وهذا كان قرار جاركم الأستاذ فاضل النجار، الإقامة فيها أفضل من الإقامة في شقة وحده، ولكن في الأيام الأخيرة سمع عن القذائف تنزل حول دار المسنين، وأحياناً عليها، فقرر السفر إلى إنكلترة، وتمضية بقية حياته عند ابنته، وقرر التبرع بثمن الدار.

أبو جميل يعلق:

ـ ما شاء الله، الدنيا ما تزال بخير، ولهذا، لن أشتريها أنا، يمكنك بيعُها يا أبو سامر لغيري بالسعر المناسب، ليكون الثمن أكبر، ولتستفيد دار السعادة.

أبو سامر يتكلم:

. وقد أشهد الرجل الله عليَّ، وما من عقد ولا وكالة بهذا الخصوص، خصوص التبرع بثمنها لدار السعادة، وها أنتم شهود الآن أمام الله، وأنا أعاهد ربي على الوفاء بالعهد.

ثم يشير إلى ابنه سامر، ويقول:

. وهذا ابني سامر، أحضرته معي، حتى يشهد معكم على ما أقول، وحتى يتعلم الصدق وحب الخير للناس.

ويهم أبو سامر بالخروج، لكنه يلتفت إلى أبو جميل ليقول:

. أخي أبو جميل، من حقك تقديم طلب إلى المحافظ، تعرض فيه واقع الشقة، وسيرسل لجنة تقدر الخسائر، وستساعدك الدولة بمبلغ جيد، وهذا من حقك.

ويستأذنهم، ثم يخرج هو وابنه.

أم وائل تعلق:

. خيال الناس واسع، كل واحد كان يحكي عن الجار قصة مختلفة، حتى نحن، أنا وأبو وائل، ذهبت بنا الظنون مذاهب.

أبو وائل يعلق وهو يضحك:

ـ لا تتهميني يا أم وائل، أرجوك، أنا ما ظننت في الرجل أي ظن، أنا خيالي قاصر، أنت صاحبة الخيال الواسع.

أم وائل تعلق:

ـ الحقيقة ما فعله هذا الرجل، جارنا الذي فوق، أشبه بالخيال، من العزلة عن الناس، إلى التخلي عن كل ما يملك، ومنْحِه ثمن الدار هبة لدار المسنين، أو كما يقال: من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، أو بالعكس.

أبو وائل يرد على زوجته:

ـ ما فعله هذا الرجل هو الحقيقة والواقع، وما هو ردة فعل، فالإنسان عندما يحس بدنو أجله، يزداد تعلقه بالدنيا ويتكالب عليها، أو يزهد فيها ويتخلى عن كل شيء.

ويضيف أبو جميل:

. والله صدقت يا أبو وائل، أنا والله لولا ابني جميل، وانتظاري وصوله، لتركت كل شيء، وذهبت إلى قرية زوجتي عفرين، وعشت فيها بقية حياتي.

أم جميل تعلق:

ـ أنت تحن إلى أيام تدريسك في ثانوية عفرين، ويوم كنت أنا طالبة عندك، ولعلمك، عفرين صارت مدينة، ولم تعد مثلما كانت: عفرين التي عرفت قبل أكثر من ثلاثين سنة، على كل حال، إذا رحت إلى عفرين لن تجد فيها شيرين.

أبو جميل يسألها:

. أنت معي حتماً.
أم جميل ترد:
. لأ، أنت اذهب إلى عفرين، وأنا سأذهب إلى ابنتي في قطر.
أبو وائل يعلق:
. أنت يا أبو جميل تهرب إلى الماضي، والأخت أم جميل تقفز إلى المستقبل.
أبو جميل يتكلم:
. يا أبو وائل، ضاع منا كل شيء، ضاع الماضي كله، وضاع المستقبل.
أم وائل تتدخل:
ـ غداً، إن شاء الله يصل الدكتور جميل إلى حلب بالسلامة، نفرح به كلنا، ونفرح عن قريب بزواجه، ويلتئم شملكم به، وإصلاح الشقة أمر سهل، لا عفرين ولا قطر، ما لنا كلنا غير حلب.
أبو وائل يعلق:
ـ أود العودة إلى موضوع جارنا، وأريد القول: الإنسان في الحقيقة، يرجع إلى معدنه الطيب، وأصله الخيِّر، وخاصة في المصائب والأوقات الحرجة، فيتوب إلى الله، ويعمل الصالحات، ويبدو هذا الأمر في البداية غير متوقع أو غير واقعي، مثلما فعل جارنا، ولكن في قناعتي هذا هو مبدأ الحياة.
أم وائل تتكلم بقوة:
. هذا الرأي يا أبو وائل يحتاج إلى أفعال لا إلى أقوال.
يسألها أبو وائل:
. ما قصدك؟
. أنت ترى الناس تابت إلى الله، ورجعت إليه، وأنت آن الأوان لتتوب إلى الله، وترجع إليه.
أبو وائل يرد:
. وماذا كنت أفعل حتى أتوب إلى الله؟ والله طول عمري ما قتلت ولا سرقت ولا زنيت ولا كذبت؟ ولا دخنت سيكارة ولا شربت خمرة؟ عن أي شيء أتوب؟
أم وائل تتكلم:
. أنت مقصِّر.
ويتكلم أبو جميل:
. سامحوني، أنا في الحقيقة ظننت في الرجل الظنون، لا أنت يا أختي أم وائل ولا أنت يا أخي أبو وائل، وشككني في الأمر الحلاق، أنا حكيت هذا لأخي أبو وائل.
ويعلو صوت الآذان لصلاة الظهر، أبو وائل يلتفت إلى أبو جميل يقول له:
. أبو جميل، هيا، أنا نازل معك إلى الجامع، لنصلي الظهر معاً.

ثم يلتفت إلى أم وائل يقول لها:

. هل يرضيك هذا؟

أم وائل تعلق سائلة:

. ما الذي دفعك هكذا فجأة إلى اتخاذ قرارك بأداء الصلاة؟ هل ارتكبت إحدى الكبائر وتريد التوبة إلى الله والتكفير عن ذنبك؟

أبو وائل يعلق مدهوشاً:

ـ لا يا أم وائل! هذا ظنك في زوجك؟ أنت تعرفين زوجك من حوالي أربعين سنة.

أم وائل ترد مرتبكة:

. سامحني، ولكن، والله أنا فوجئت بقرارك.

أبو وائل يرد:

. بكل صراحة، وأرجو ألا تسخروا مني، كنت لا أصلي حتى لا يقال عني من الإخوان المسلمين، ثم صرت لا أصلي حتى لا يقال عني إرهابي متطرف، ولكن اليوم لما رأيت هناك من يسعى إلى تشويه الإسلام، وإعطاء صورة سيئة عن المسلمين، قررت أداء الصلاة في أوقاتها، وفي الجامع، لأؤكد حقيقة الإسلام، وبعدَه عن التطرف والإرهاب، ولذلك سأنزل الآن مع أخي أبو جميل للصلاة في الجامع.

من مطار دمشق

الساعة السادسة من صباح يوم الثلاثاء ٢٠١٣/٤/٣٠ يرن الهاتف الجوال عند أبو جميل، وإذا هو ابنه جميل:

. أنا الآن في مطار دمشق.

ـ الحمد لله على السلامة، خذ فوراً سيارة أجرة خاصة بك، وإلى حلب على الفور.

. لا تقلق يا أبي، أنا قادم على الخطوط الجوية القطرية، وهناك حافلة من شركة الزيتوني ستنطلق في الساعة الثامنة، فيها عشرة ركاب إلى حلب، وراكبان إلى حمص، وثلاثة إلى حماة.

. بالسلامة يا ولدي.

جميل يكلم أمه، ثم يعود ليكلم والده:

ـ من المتوقع وصولي إلى حلب في الرابعة مساء، سوف آخذ سيارة أجرة إلى دوار الدلة، مباركة الشقة الجديدة يا أبي.

أبو جميل يناول الجوال لزوجته ويخرج إلى الشرفة، يكلم نفسه:

ـ أي شقة يا ولدي يا جميل؟ نحن هنا في ضيافة عمك أبو وائل، نحن في الدور الأول، لا تصعد إلى الدور الثاني، لا تنظر إلى واجهة العمارة، حتى لا ترى الشقة المحترقة.

أبو وائل يلحق به إلى الشرفة، يربت على كتف أبو جميل، يقول له:

ـ شقتي هي شقتك يا أبو جميل، والحمد لله على سلامتكم، وسلامة جميل، فرحتنا الآن بوصول الدكتور جميل إلى سورية أنستنا الشقة كلها، والله لو كان عندي شقة لأهديتكم إياها، وعلى كل حال، هذه شقتي هي شقتكم.

بعد ساعة ونصف يعاود جميل الاتصال:

. والدي الحبيب، الحافلة غادرت دمشق، الأمور ممتازة.

ويكلِّم أمه:

ـ أمي الحبيبة، ساعات قليلة ونلتقي، أنا بخير، أحضرت لك ولأبي فيزا لزيارة المملكة والإقامة فيها سنة، يمكنك أداء العمرة في رمضان والبقاء حتى موسم الحج، هناك صديق سيتولى أموركم كلها، لا تنسيني من الدعاء.

أبو وائل وأم وائل ينضمان إلى أم جميل يهنئانهم بوصول الدكتور جميل إلى دمشق بالسلامة.

أم وائل تتكلم:

. لماذا يأتي الدكتور جميل إلى سورية في هذه الظروف الصعبة؟

أم جميل تتكلم:

. ما كنت أريد لابني العودة إلى سورية في هذه الظروف، نحن في حرب هي أسوأ أنواع الحروب، ولكنه قرر العودة، قال أنا اكتسبت خبرة من عملي في غزة، يجب أن أفيد أبناء وطني.

ويتكلم أبو جميل:

. في عام ٢٠١٢ تطوع ابني جميل للعمل مع فريق طبي في غزة، هو مختص في الأطراف السفلية، اكتسب خبرة وخاصة في إصابات الشظايا والألغام.

عند الساعة الثالثة يتصل جميل:

. وصلنا إلى خان شيخون، لم ندخلها، هناك قذائف، الحافلة اختبأت بين بعض البيوت الريفية، عندما تتوقف القذائف تتابع الحافلة رحلتها، خان شيخون تبعد عن حلب مئة كيلو متر، إذا تيسرت الأمور، نصل إلى حلب في ساعة.

أم جميل تقلق، تعلق:

. ليتنا سافرنا إلى دمشق، كنا بقينا هناك حتى تهدأ الأمور.

أبو جميل لا يجد ما يقوله.

أبو وائل يعلق:

. اطمئنوا، توقُّفُهم أفضل من متابعتهم الطريق.

في الرابعة والنصف يرن الجوال:

. نزلنا من الحافلة، نحن في ضيافة أسرة، نتناول عندهم الغداء، لن ندخل إلى خان شيخون إلا بعد السابعة، بعد المغرب، إلا إذا توقفت القذائف، إذا انقطع الاتصال معي، يمكنكم الاتصال بمكتب الشركة في حلب.

القلق يزداد.

في السادسة يتصل جميل:

. أنا مع الركاب من حلب، مجموعنا عشرة، اتفقنا على استئجار سيارة ميكرو صغيرة، ودخول خان شيخون ومنها إلى حلب، لا يشغل بالكم، سننطلق بعد ربع ساعة، في حدود ساعة أو أكثر نصل إلى حلب، اتفقنا مع سائق الميكرو، سيوصل كل راكب إلى بيته.

. وسائق الحافلة؟ كيف تركتم؟

ـ بقي عند الأسرة في مدخل البلدة، نصح لنا بالبقاء، ولكن كنا متشوقين للوصول إلى حلب، السائق أكد نصحه لنا بعدم المغامرة، وأشهد علينا رجلين من البلدة، وأخذ منا ورقة أقررنا فيها اختيارنا ترك الحافلة بكامل حريتنا وإرادتنا والسفر في الميكرو على مسؤوليتنا ولا تتحمل شركة الزيتوني ولا الشركة القطرية أي مسؤولية.

. الله يحميكم يا ولدي.

. لا تقلق، سائق الميكرو من خان شيخون، ويعرف الطرق الجانبية الأكثر أمناً.

أبو جميل يتصل.

لا رنين، لا تغطية.

بعد نصف ساعة، يرن الهاتف، يأتيه صوت:

ـ أنا هنا من أهالي بلدة خان شيخون، وجدنا على هذا الجوال شريحة سورية جديدة، فيها هذا الرقم وعليه أكثر من خمسة اتصالات.

. نعم، هذا رقم ابني جميل، وهو قادم من السعودية.

. أريد الاسم بالكامل.

. أين ابني؟ هل هو معتقل؟ مخطوف؟ جريح أسير؟

. نريد التوثيق، لا تقلق، اسمه بالكامل واسم الأب والعمر والعمل، ومن أين هو قادم؟

ـ جميل بن عبد المجيد حداد من مواليد حلب، عام ١٩٧٥، طبيب جراحة عظمية، قادم من المملكة السعودية.

. ابنك كان في مكرو مع تسعة مسافرين قادمين من دمشق؟

. نعم.

. هل مع ابنك حقيبة؟

. لا أعرف، ولكن ابني لا يحمل عادة غير حقيبة يد.

. هل تعرف أي راكب من الركاب الذين كانوا معه؟

. لأ، خبرني أرجوك، أين ابني؟

. سنتصل بك بعد قليل.

أم جميل:

. ويلي، ابني جميل، يا أبو جميل؟ خطفوه؟ قل لي أرجوك؟

. مثلما سمعت يا أم جميل، سلِّميه لله تعالى.

أم وائل تمسك يد أم جميل:

. لا تقلقي، نسأل الله تعالى له السلامة، لا نملك غير الدعاء.

أبو وائل يفتح التلفزيون، يتنقل من فضائية إلى أخرى، ولا أخبار عن حلب أو خان شيخون.

يتصل هو بالهاتف، ولا رنين.
أم جميل تهتف:
. أبو جميل، افعل أي شيء، تعال ننزل نأخذ سيارة أجرة إلى خان شيخون.
أبو جميل يرد:
. الصبر جميل.
بعد عشر دقائق، يرن الهاتف:
. ابنك كان مع ركاب من دمشق قادمين إلى حلب، غادروا الحافلة، واستأجروا ميكرو إلى حلب، على نفقتهم ومسؤوليتهم، والسائق من خان شيخون، لكن قذيفة أصابت الميكرو إصابة مباشرة، احترق الميكرو وتفحمت الجثث كلها، ولم نستطع التعرف على غير ثلاث جثث من خلال الجوالات.
يصيح أبو جميل:
. وجثمان ابني؟
ـ من المؤسف يا عم، لا جثث ولا حقائب ولا جوازات سفر، فقط الهيكل الحديدي للميكرو وثلاث جوالات، من الجوالات عرفنا الشخصيات، لا شك الشركة عندها قائمة بأسماء ركاب حلب، يرحم الله الجميع، يسلم الدين والإيمان، هو من الشهداء إن شاء الله، وتقبل تعازينا.
أم جميل تصيح:
. ولدي جميل.
وتسقط مغمى عليها.
تبادر أم وائل إلى رفع رأسها، أبو وائل يقول لها:
ـ لأ، يا أم وائل اتركي رأسها، ارفعي قدميها، أنا سأحضر الماء لأرش على وجهها.
أبو جميل يسأل في الهاتف الجوال:
. والجثة ...الجثة؟
. لا أثر، ولا جثة، لا للركاب ولا للسائق، فقط الجوالات، سنتصل بك، وسيصل الجوال إلى العنوان الذي تريده، سنتصل بك فيما بعد.
. الجوال هدية لك، على روح ابني، لا أريد الجوال...
أبو وائل يتناول الجوَّال، يقول لأبو جميل:
. أنت أنعش زوجتك، وأنا سأتكلم بالجوال.
أبو وائل يصيح بالجوال:
. ألو ..ألو
. نعم؟

. أين فرق الإطفاء أو الإنقاذ؟....حدثني عن الحادث بالتفصيل..

ـ ياعم، أنا أحمد رمضان، رئيس فرقة الإنقاذ، الميكرو مرَّ بين هضبتين، وانهالت عليه القذائف ...

. من كان يطلق القذائف؟

ـ من الشمال ومن الجنوب، ومن الشرق والغرب، كل طرف يظن أن الميكرو من الطرف الآخر، انهالت عليه القذائف من كل الجهات، الميكرو أصيب بأكثر من قذيفة إصابة مباشرة، أسرعنا نحن فرقة الإنقاذ، ما استطعنا الاقتراب، كنا نرى الميكرو أمامنا يحترق، والقذائف تنهمر مثل المطر، ثم بدأ إطلاق النار، بعدما انتهى كل شيء، اقتربنا نحن في سيارة إسعاف رافعين الأعلام البيض، كل شيء محترق، ما عثرنا على غير أقفال الحقائب، وسبع جوالات محترقة، وعلى بعد عدة أمتار عثرنا على ثلاثة جوالات.

أبو جميل يعمل على إنعاش زوجته.

أم جميل تصحو، تصيح، وهي متعبة:

. لا، ابني ما مات، ولا قُتِل، لا تصدقوهم، لا تصدقوا الكذابين، ابني وصل، هو تحت في باب العمارة، ابعدوا عني، سأنزل لأفتح له باب العمارة.

تحاول النهوض فلا تستطيع، تصيح بصوت ضعيف خافت وهي تشير إلى الباب:

. أرجوكم افتحوا أنتم له الباب، افتحوا الباب...ابني وصل.

جميل

أبو جميل يتصل بأخته عبر الهاتف الجوال.

. رجاء.

. أهلاً بأخي أبو جميل، هل وصل ابنك الدكتور جميل؟

. نعم، وصل إلى سورية، ولكن لم يصل إلى حلب، أريد سؤالك، متى موعد وضعك المولود؟

. بعد أربعة أيام، هكذا قال الطبيب.

. لي طلب عندك يارجاء.

. طلباتك أوامر.

. أرجوك يا أختي، سمِّيه جميل.

حلب

٢٠١٥/٧/٤

المحتوى

العنوان	الصفحة
الكرة الأرضية	٧
الشرفة	٩
أنا أحب الشعر	١٥
أجمل شقة	٢١
في غرفة المدرسات	٢٨
كيس القمامة	٣٦
في السجل العقاري	٣٩
غداء بالسمك	٤٤
لسعة حشرة	٥٣
المغفرة يارب	٥٩
ليلة ماطرة	٦٢
قصص الماضي	٦٧
رسالة واحدة	٧٨
لوحة كانافاه	٨٥
سليمان الحلبي	٨٩
نتائج غير متوقعة	٩٦
الصمت	١٠٠
جناية الجبرتي	١٠٢
في الطريق إلى كفر جنة	١١٩
في طريق العودة	١٢٨
يصعد إلى زوجته	١٣٨
المياه تتسرب	١٤٠
الحياة تبدأ بعد الستين	١٤٧
جنون القهوة	١٥٣
انزلاق على درج الجامع	١٥٩
قليل من الضحك	١٦٣
الروح	١٦٨
أنا في انتظارك	١٧٤
شجيرات الورد	١٧٦
عشر دقائق في حديقة السبيل	١٨٠

طيف الإمبراطور العجوز	١٩٢
الأحلام وتفسيرها	١٩٦
هاتف من رجاء	٢٠٣
عشر ساعات إلا قليلا	٢٠٧
لا أريد التاريخ	٢١٣
صندوق الأشعار القديمة	٢١٨
قليل من الخصام	٢٣٨
لا يُعرَف ولا يوصف	٢٤٣
سلام الغشاش	٢٤٩
الدكتور سامي وقصة الومضة	٢٥١
مشهد الحريق	٢٥٩
في ضيافة أبو وائل	٢٧١
من مطار دمشق	٢٧٩
جميل	٢٨٤
المحتوى	٢٨٥

الدكتور أحمد زياد مُحَبِّك

السيرة الشخصية :

- من مواليد مدينة حلب في ١/٥/ ١٩٤٩
- دكتوراه ي الأدب العربي الحيث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤
- أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب
- عضو اتحاد الكتاب العرب

المؤلفات المنشورة:

- حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة) :
  اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢.
- من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية):
  وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣.
- يوم لرجل واحد، (قصص قصيرة):
  اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦.
- المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة):
  دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩.
- حجارة أرضنا ، (قصص قصيرة):
  مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩.
- الكوبرا تصنع العسل، (رواية):
  دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
- بدر الزمان، (مسرحية):
  دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
- حلم الأجفان المطبقة، (قصص قصيرة):
  اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦.
- عريشة الياسمين، (قصص قصيرة):
  دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
- دراسات في المسرحية العربية، (دراسة) :
  مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧.
- حكايات شعبية (نصوص ودراسة) :
  اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩ .
- دروب الشعر العربي الحديث (دراسة) :

مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠.

- لأنكِ معي (قصص قصيرة جداً) :
دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠.
- طعم العصافير (قصص قصيرة) :
دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١.
- قصائد مقارنة (دراسة ونصوص) :
مطبوعات جامعة حلب، حلب،٢٠٠١.
- دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة (دراسة):
منشورات دار علاء الدين، دمشق،٢٠٠١.
- العودة إلى البحر(قصص قصيرة):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١.
- الرحيل من أجل مها (قصص قصيرة):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣.
- انكسارات (بحوث ومقالات)
دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤.
- الدكتور أحمد زياد محبك (كتاب التكريم تأليف مجموعة من الباحثين):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤.
- متعة الرواية (دراسة)
دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
- من التراث الشعبي (دراسة)
دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
- وردات في الليل الأخير (قصص قصيرة)
دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
- عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)،
وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦.
- قصيدة النثر، (دراسة)،
اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٧.
- قراءات في الشعر العربي الحديث، (دراسة)،
مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧.
- نوافذ وشرفات، (مقالات)،
دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.
- ريش نعام، (قصص قصيرة جداً)،

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.

- نجوم صغيرة، (قصص قصيرة جداً)،
مطبعة الأصيل، حلب، ٢٠٠٨.
- الأعمدة والغزالة، (قصص قصيرة)،
دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.
- اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، (دراسة)
دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.
- دراسات في المسرحية العربي، (طبعة جديدة مختلفة كلياً)
مطبعة جامعة حلب، حلب، ٢٠١٠.
- حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)
دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١.
- عمر أبوريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، طبعة ثانية
دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢.
- نقد السرد، (دراسة)
دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢.
- فوق سطح العمارة، (قصص)
دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٤.
- أبو معتز والكناريات، (قصص)
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤
- ما أزال أنتظر، (قصص قصيرة جداً)
كتاب الرافد، الشارقة، ٢٠١٥

المؤلفات بالمشاركة:

- ستة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعات سورية (١٩٨٨.١٩٨٦)
- خمسة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعة سبها بليبيا (١٩٩٢)
- كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف) (ستة أجزاء) حلب (٢٠٠٠. ٢٠١١)
- عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (٢٠٠٤. ٢٠٠٧).
- الحركة الأدبية في بلاد الشام،الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (٢٠٠٨).

عنوان المراسلة :

البريد العادي : كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية

البريد الإلكتروني : mohabek @gmail.com

هاتف المنزل : ٠٠٩٦٣ ٢١ ٢٦٤٢١٣٢

الجوال: : ٠٠٩٦٣ ٩٤٤٩٢٨٧٩٢

كلمة الغلاف الأخير

رواية تصور انعكاس واقع الأزمة في سورية متخذة من النصف الأول من عام عام ٢٠١٣ زماناً لها ومن مدينة حلب مكاناً، وهي تصور الأزمة من خلال انعكاسها في حياة الناس العاديين وما تعانيه الطبقة المثقفة بصورة خاصة، ولا تدَّعي الرواية التأريخ ولا التوثيق، إنما تحاول رصد الواقع الاجتماعي والثقافي، ولا تقف عند الجانب العسكري أو الاقتصادي أو السياسي، لأنه ليس من الضروري أن يقول الأدب كل شيء، وتقوم الرواية على مواقف، تصورها بعين الكاميرا، ولذلك يغلب عليها الحوار، ويقل فيها السرد والتحليل، لأنها تعتمد المشهد واللقطات، فكانت أشبه بالسيناريو، والشخصيات فيها متنوعة، من عرب سوريين وكرد وفلسطينيين ولبنانيين، لتأكيد وحدة الشعب والهدف والمصير، وعلى الرغم من تحول معظم الشخصيات في الرواية إلى الخير والحب، فإن الأزمة تقسو عليهم جميعاً ولا ترحم منهم أحداً، مما يؤكد قبح الحرب، ولكنهم مع ذلك يكتبون الشعر ويمارسون الحب ويعيشون الحياة، ولذلك، على الرغم من الخسائر، يظل الأمل مرتبطاً بمستقبل جديد، يرمز له الطفل الذي تشير الرواية في الختام إلى أنه سيولد.